روايه

RED MISTRESS

السيدة الحمراء

إليزابيث بلاكويل

مكتبة ياسمين

عصير الكتب

ترجمة: سراج سراج

السيدة الحمراء

في زمن الحرب والخداع، بمَ تُضحي لإنقاذ مَن تحب؟

في ربيع ١٩١٤، تتطلع ناديا شولكينا -سليلة عائلة روسية أرستقراطية- إلى مستقبل مُشرق. لم يكن لديها أيُّ هواجس متعلقة بقيام الحرب، ناهيك بالثورة التي توشك أن تدمر عالمها الهادئ.

تُجرَّد عائلتها النبيلة من كل ما تملك، وسرعان ما تتوالى عليها المِحن. ولتنقذ ما تبقَّى من عائلتها.. ومن مستقبلها.. تتزوج ناديا من بلشفي متحمس، في عملية بالغة التعقيد من التماهي مع واقع جديد.

عندما توافق ناديا على العمل السري مع السوفيت في عشرينيات القرن التاسع عشر في باريس، تُجتذَب إلى عالم جميل، ولكنه غادر... عالم من الأسرار والخداع.

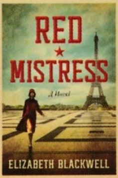

يؤرقها صراع الولاءات، وتدخل في اختبار من حب محرم. ثم تتورط في مؤامرة تنتهي بجريمة قتل مروعة. فما الأخطار التي عليها أن تتقحمها لتقرير مصيرها؟

t.me/yasmeenbook

تصميم الغلاف كريم آدم karimadam.com

9 789776 902442

aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb

RED MISTRESS

السيدة الحمراء

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

- العنوان الأصلي: Red Mistress
- العنوان العربي: السيدة الحمراء
- طُبِع بواسطة: Lake Union Publishing (July 21, 2020)
- طُبِع بواسطة: ليك يونيون للنشر (21، يوليو، 2020)

- حُقوق النشر: Elizabeth Blackwell 2020 إليزابيث بلاكويل 2020
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: سراج سراج
- مراجعة وتحرير: محمد الجيزاوي
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: نوفمبر/ 2021م
- رقم الإيداع: 2021/21161م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-44-2

لندن إيفِننج ستاندارد
18 من مايو 1938
ميتةٌ غامضةٌ في «مايدا فيل»

في وقت متأخر من مساء أمس، لَقِيَت سيدة مصرعها بعد أن صدمتها سيارة على طريق تيتشلي بويستمينستر، وعُرفت شخصيتها على أنها ماري دوفال، سيدة في الخامسة والثلاثين من العمر، من مدينة تولوز بفرنسا. لم يكن هناك شهود عيان، إلا أن بعض المقيمين أبلغوا الشرطة أنهم سمعوا صوت اصطدام في حدود الساعة التاسعة وخمسٍ وأربعين دقيقة. ويعاون مسؤولون في السفارة الفرنسية الآن الشرطةَ في تحرياتها، ويُرجى من أي أحد على معرفةٍ بالسيدة دوفال أو شاهد سيارة تسير بتهور في تلك الليلة أن يتصل بقسم شرطة ويستمينستر.

«يقود الشباب سياراتهم هذه الأيام بسرعة جنونية، غير مبالين بأحد، فلا يمكنك عبور شارع دون أن تخشى على حياتك».

هكذا عبَّرت السيدة جورج ويذربي، التي رأت الضحية وأبلغت السلطات، عن صدمتها لوقوع مثل تلك المأساة في حيِّها الهادئ.

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

روسيا
1914

كان لي الكثير من الوجوه، والكثير من الأسماء. مِتُّ ووُلِدت من جديد. وفي السجن، لم أكن إلا رقمًا، ولكني بدأتُ حياتي باسم (ناديا شولكينا)، وهو اسم كنتُ أفخر به في يوم من الأيام، وهو أيضًا اسمٌ سارَ بي نحو حتفي.

لا تخلو شجرةُ عائلةٍ من فروع مركزية قوية، كما لا تخلو من هزيل الأغصان. كانت عائلة شولكين عائلةً عريقةً ممتدة، كما كانت غنيةً وذات علاقات قوية. ولكن، حتى وأنا فتاة صغيرة، كنت أعرف أنني وأخي نقبع في القاع من هذه السلسلة؛ فأبونا هو الابنُ الأصغر لأب كان هو أيضًا أصغرَ إخوته، وقد ورِث منزلًا متوسط الحجم في سانت بطرسبرج وضَيعةً متواضعةً، تُدعى (بريالكو)، ضيعةً لم تكن إلا شيئًا ضئيلًا فيما يملكه أبناء عمومته. ولأن من يملكون أكثرَ مما نملك.. أحاطوا بنا كالسوار بالمعصم، فقد كان الثراء هو آخر ما يمكن أن نوصفَ به. وكان أبي -أو الدوق شولكين عند سائر الناس- تمامًا كما يوحِي اسمُه؛ فخورًا بأصله، سياسيًّا محافظًا، نادرًا ما يُرى في الأماكن العامة بغير نياشينه، تلك النياشين التي اكتسبها نظيرَ خدمته المخلصة للقيصر. لكنْ خلف هذا المظهر الجليل، كان كريمًا طيب القلب، دائمًا ما يَلقى الأصدقاء بالكلمة الطيبة، ويعين بالمال مَن يحتاج إليه منهم. علاقة أبي مع من يخدموننا كانت طيبة كذلك، أو هكذا حسبت! هل كان خدمنا يسخرون منه من وراء ظهره؟ مِن فظائع الثورة أنها أفسدت ماضيَّ، ملوِّثةً حتى الذكريات السعيدة بشكّ.

أبي وأمي كانا غير متكافئين بصفة هزلية؛ حقيقةٌ ما كان أحد منهما ينكرها. فجَدُّ أمي كان فرنسيًّا، يعمل في تصدير الخمور، متزوجًا من عائلة روسيةٍ أرستقراطية ولكنْ مفلسة، وكان ابنُه، أو أبو أمي، رجلَ أعمالٍ، يمارس

عمله في باريس وسانت بطرسبرج على حد سواء، وقد أَلِفَ أطفاله هذا منذ نشأتهم. اعتادت أمي أن تعزف موسيقى ديبيسي الشجية على البيانو، وكانت تحرص على التأكد من أن الطهاة يعدون «البيتي فور» لحفلاتها المسائية خاليًا من أي عيب، وكانت كذلك راعيةً مخلصة لفن الباليه، كما أنها عيَّنت خادمة فرنسية عندما وُلِد فاسيلي، أخي الأكبر. ولطالما أخبرتنا أنها لا تطيق صراخ الأطفال الرُضَّع، ولم تبدأ في قضاء بعض الوقت معنا إلا حينما أصبحنا قادرين على الحديث.. بالفرنسية طبعًا.

ربما لم تكن أمي أمًّا بالمعنى التقليدي، ولكني لم أهتم بذلك؛ فقد كانت تمثل لي شيئًا أفضل بكثير؛ بطلةً رومانسيةً حقيقيةً. كانت مولعةً بالفنون، جياشة العاطفة، عيناها تنحدران لأسفل مضفيةً على وجهها تعبيرًا طبيعيًّا من الحزن. لقد كانت أجمل وأكثر حيويةً من أي أم عرفتها. وهي دائمًا متحمسةً، فتارة تتحمس للبيانو أو الرسم، وتارة أخرى تنتقل من شغف العمل بالإبرة إلى ولع بالشِّعر، منجذبةً إلى الذّروة من كل شيء، منتشيةً وهي تحتفل بإتمام لوحةٍ، أو متحسرةً إذا ما انتهت روايةٌ نهايةً مأساويةً. كانت مزاجيةً لا تستقر على حالٍ إلا لتنتقل إلى غيره. وقد عوّدتُ نفسي أن أتكيف مع هذا. لم يساورني شكٌ قط في محبة أمي الشديدة لي، حتى عندما كانت تبعدني عنها. فقد كان أمامها الكثير لتفعله، والعديد من الأشياء الجديدة لتجربها، ولم يكن لديها قط ما يكفي من الوقت.

اعتادت أمي أن تصفَ عائلةَ أبي بأنها عائلةٌ مملةٌ، وفضَّلت أن تختلط مع الفنانين وأفراد المجتمع المغامرين ممن كانوا يرعون هؤلاء الفنانين. ولم أكن أرى أبناء عمومتي إلا في الاحتفالات العائلية الكبيرة، غالبًا في مناسبات التعميد، فقد كانت نساء عائلة شولكين يَلِدْن بمعدل مذهل. ما اجتمعت عائلة أبي في مرة من المرات إلا ونظروا إلى أمي نظرة مشفق تقول عيناه: «مسكينةٌ، ليس لديها غيرُ طفلين!»، وبعد سنوات عديدة بدأت أشك أن السبب في صغر عائلتي لم يكن مجرد حظ عاثر، فبالنسبة إلى أمي أنا وفاسيلي كافيان.. جدًّا!

إن قلتُ لكم إن أخي كان وسيمًا، ولديه موهبة كبيرة في كل شيء، من ركوب الخيل إلى الرقص، فستحسبون أني أخفي استيائي منه، والحقيقة غير

ذلك تمامًا، فأنا أحب فاسيلي حبًّا يملك عليَّ نفسي. كان فاسيلي يكبرني بخمس سنوات، وهو ما يكفي لئلا يكون بيننا أي تنافس. كان يعاملني كحيوان أليف جيء به إلى المنزل ليقوم بتسليته، وكنتُ أتبعه كما يتبع الجروُ صاحبه لاهثةً خلفَ اهتمامه. كانت لي صديقاتٌ في عمري نفسه، وكُنَّ من بنات العائلات التي ترتضيها أمي، أما فاسيلي فكان كالشمس يحجب نورُه كلَّ ما عداه.

وفي ربيع سنة 1949 لم تكن لديَّ أي هواجس تتعلق بالحرب، ناهيك بالثورة، ومع ذلك فإني أتذكرها كوقت عصيب. سيذهب فاسيلي إلى الكلية العسكرية في فصل الخريف، وكم أحزنني هذا. حاولتُ أن أظلَّ مطيعةً كعادتي، أن أبقى تلك الابنةَ المؤدبة التي لا تتسبب في المشكلات أبدًا. ولكنْ في أعماقي كان رحيل فاسيلي يثقلني كالمرض، حياتي كلها كانت تدور حول أخي، فمن أنا في غيابه؟ وعندما تلقينا دعوةً لحضور حفل تقديم ماريا شولكينا، بدا الأمر ككارثة أخرى؛ فها هي أعظم حفلة منذ سنين -حفلة قد تشرف بحضور العائلة الملكية- تجيءُ، وفاسيلي ذو السبعة عشر عامًا كبيرٌ بما يكفي للذهاب، في حين أن أخته، ذات الاثني عشر عامًا ليست كذلك.

كنت مهذبةً للغاية؛ ما منعني من أن أضج بالشكوى، ولكني أيضًا كنت قد أمضيت أعوامًا وأنا أرقب أداء أمي المسرحي وتصنُّعها، وأعرف ما تستطيع أن تفعله الدموعُ الصامتة، فمثَّلتُ الاكتئاب؛ رحت أذرع البيت جيئةً وذهابًا، لا أخطو خطوةً إلا متنهِّدةً أجرُّ رجليَّ جرًّا وأنا أضع قناعًا من الكآبة والتماوت، كما تفعل ممثلة من الدرجة الثانية تتدرب على مشهد احتضار، فأثمر هذا عن اتفاق يرضي الجميع؛ سأذهب وأتناول العشاء وأشاهد الرقصات الأولى.

كسندريلا، سأذهب إلى الحفل.

لكم أسعد أمي أن تجد مثل هذا العذر لإنفاق المال! فاستدعت خيّاطتها المفضلة وطلبت منها أن تصنع لي أول فساتين سهراتي، كما اشترت لي حذاءً وقفازين متناسقين. ولكنْ في ليلة الحفل ذاتِها انهمكتْ أمي في استعداداتها الخاصة فلم تعد ذاتَ فائدةٍ كبيرة لي، فجهَّزتني المربية، الآنسة فيلدز. استقدم أبي المربية في العام السابق من خلال وكالة توظيف في

لندن، في محاولة لتحسين لغتي الإنجليزية الشنيعة. اعتادت أمي أن تقول ساخرةً: «يأخذ الإنجليز الأمور بجدية فظيعة». ولكن الآنسة فيلدز كانت صغيرةً إلى حد ما، سلوكها طيب رقيق، لها ابتسامة جميلة فوق خدين مستديرين. استمالت فيلدز فاسيلي بإعادة تمثيل معركة واترللو على أرضية غرفة الجلوس، باستخدام كُرات البلي، وتشكيلةِ أمي من المعالق الفضية. قضت فيلدز معي ساعاتٍ طويلةً مثابِرةً وهي تقرأ جهرًا رواية «الحديقة السرية».. حتى تمكنتُ من قراءتها بنفسي قراءةً متقنة. ولم يمر وقتٌ طويل حتى أصبحتْ لغتي الإنجليزية بجودة لغتي الفرنسية، وكان كلاهما أفضلَ بكثير من لغتي الروسية.

وحين كانت فيلدز تُشبِّك الدبابيس في شعري كنت أثرثر في قلق وترقب: «تُرى هل ستأتي الأميرات؟»، «إن الأميرة الصغيرة في عمري نفسه»، «أنستازيا، أليس كذلك؟»، «بلى، ألن يكون رائعًا أن أقابلها؟ ولكني لن أتفوه بكلمة من شدة الارتباك».

في تلك الأيام كان القيصر وعائلته غالبًا ما يقبعون في قصورهم بسبب ما كان أبي يدعوه بـ«اضطرابات 1905». لم يفسِّر أبي ماهية هذه الاضطرابات قط، ولم أهتم قط بالسؤال.

أخذت ألوِّح بذراعيَّ أمام المصباح على التسريحة، مفتونةً بلمعان أحجار الماس حول معصمي.

سألت نفسي بقلق: «ما رأيك؟»، ورددتُ: «جميل جدًّا، ولكن ماذا لو انكسر المشبك وفقدت العقد؟»، «لن تسامحني أمي أبدًا»، «إنها أول حفلة لكِ بوصفكِ فتاة كبيرة، فلتتمتعي ولتكفي عن القلق».

سمعت أبي يناديني من الدور الأرضي، فنظرت نظرةً أخيرة في المرآة. كان جسمي ملفوفًا في رداء من حرير بخضرة الغابات وتولّي أصفر، ألوانٌ أظهرت شعري الأسود وعينيَّ السوداوين اللتين ورثتهما عن أمي. جعلتني تسريحتي الأنيقة أبدو أكبر بأعوام كثيرة. كانت هذه أول مرة أشعر فيها برعشة السعادة التي تأتي مع الشعور بأنكَ صرتَ شخصًا غيرك! وما من

قدرة من قدراتي الخداعية التي سأتقنها في السنوات التالية إلا ومنبتها تلك اللحظة، تلك اللحظة التي حدقتُ فيها إلى المرآة فرأيتُ شخصًا آخر.

صاح أبي مناديًا مرة أخرى، فردت فيلدز:

- قادمون!

ثم دفعتني بعيدًا عن المرآة صوب الباب، معلنةً أن وقت الذهاب قد حان.

هبطتُ السُّلَّمَ، وهي تتبعني من كثب، كنتُ كملكة تتبعها وصيفتها، وفي الأسفل كان في انتظاري جمهوري المحب: أمي وأبي وفاسيلي، وخالي سيرجي، أخو أمي الأصغر، كم سرني وجوده بينهم! خالي نحيل داكن البشرة كأمي، وهو مثلها أيضًا محب للفن والأدب، إلا أنه لم تكن تجتاحه أمزجتها الغريبة. كان في أوائل الثلاثينيات، ولم يتزوج بعدُ؛ ما جعله عُرضة للمناكفات باستمرار، ولكنه لم يُلقِ لهذا بالًا قط، ومرة قال لأمي:

- عندما أتوق للسعادة المنزلية آتي إلى بيتك.

فردّت قائلةً:

- آهِ، بالطبع، فأنا زوجة نموذجية.

كان هذا هو اليوم الذي تعلمت فيه أن الكبار أحيانًا يقولون خِلاف ما يقصدون.

كنت أُضمر شعورًا بالسعادة، لأنه ليس علينا أن نتشارك سيرجي مع زوجة وحفنة من الأولاد. وبالرغم من أنه يتنقل إلى باريس أو فيينا باستمرار فهو يزور منزلنا كثيرًا، ودائمًا ما يفسح في وقته للحديث معي. كان يهتم حقًّا بما أقول، بخلاف أكثر الكبار. أسرعتُ إليه وقبَّل كل منا خد الآخر. قلت له، متعجبةً:

- كنت أعتقد أنك في إيطاليا.

- ويضيع مني حفل العام؟ ما كنت لأجرؤَ على هذا.

ثم أخذ بيديَّ ولفَّني حول نفسي كما يفعل الراقصون، قائلًا:

- يا للجمال!

ثم نظر من فوق كتفيَّ وألقى التحية على فيلدز، فردت عليه:

- طابَ مساؤك، سيدي.

كان سيرجي يستمتع بممارسة لغته الإنجليزية مع الآنسة فيلدز، رغم أن لغته المتأنقة كانت أحيانًا تجعلها تضحك. وأذكر أنها مرةً قالت لي:

- إن خالكِ يقلب أبسط محادثة إلى قصيدة من الشعر.

ولم أتبين حينها إذا ما كانت تسخر منه أم لا.

سأل سيرجي الآنسة فيلدز:

- أيعود إليكِ الفضلُ في هذا التحول المذهل الذي طرأ على ناديا؟

- لا يمكن أن يُنسب الفضلُ كله لي، فلستُ من صنع الفستان.

قالت ذلك إلا أنها ابتسمت بفخر، وجعلني اتفاقهما على استحسان هيئتي الجديدة أشعر بالرضا، ففي أعينهم ما عدتُ فتاةً صغيرةً.

ها هو أبي في كامل أُبَّهته، تبرق نياشينه في ضوء المصباح، وأمي تخلب الألباب في فستانها الأزرق الداكن، وعقد من الياقوت يتلألأ على صدرها، أما فاسيلي فبدا كجندي حقيقي، بحذائه اللامع وسترته القرمزية، وقد ارتدى سيرجي بدلة توكسيدو بدلًا من بزاته المجعدة المعتادة. الجميع يبرُق وفي منتهى الأناقة. هذه حقًّا هي عائلة شولكين.

وقف أيفان العجوز، كبير الخدم الذي يدبر أمور المنزل منذ أيام، بانتباه في المدخل وفتح الباب عند إشارة أبي. بالخارج انتظرتنا السيارة المرسيدس، وعند المدخل ثلاث خادمات يحملن معاطفنا. ألقيتُ تحيةَ وداع سريعةً على الآنسة فيلدز وأنا محاطة بعائلتي. لديها أوامر صارمة بأن تعيدني من الحفل إلى المنزل في تمام العاشرة، ولا أريد أن أضيع أي ثانية. ابتسمت فيلدز متأثرةً كما لو كانت تودِّع ابنتها. قالت لي:

- ستبهرينهم جميعًا.

بثقةٍ أحاطت بي كدرع واقٍ. أخذتُ أنظر من نافذة السيارة ونحن ننطلق، مفتونةً بالسحر الغريب لسانت بطرسبرج في المساء؛ فتلك المباني رائعةُ

الأناقة في النهار بدت غامضةً تحت ضوء المصابيح، كما بدت قنواتُ الماء سوداءَ كالحبر، تخالطها خيوط من الضباب. سرنا في شارع نيفسكي ذي الإضاءة المشرقة النابض بالحياة، نلتفُّ حول العربات قديمة الطراز والسيارات الأخرى الأبطأ، ستكون هذه واحدةً من أروع الليالي في حياتي، لا شك عندي في هذا.

وفي ظل هذه الآمال العالية ربما كان من المحتوم أن تبدأ ليلتي بخيبة الأمل؛ قصر أبناء عمي أشبهُ بمتحف منه منزلًا، بستائره الحريرية السميكة وغرفه الشاسعة التي يتردد فيها الصدى، ومثله كانت الحفلة؛ خانقةً. استغرق الأمر نحو نصفِ ساعةٍ لأحيي كل أقاربي، فرُحتُ أنحني لتقبيل أيدي عمات كُبريات لا أكاد أعرفهن، وعند العَشاء، أجلسوني مع الجدات والعوانس، تلك الكيانات المهملة المنفية إلى أطراف الحجرة، ولكن ما إن رُفِع الطعام وعُزفت الموسيقى حتى انقشعت غيوم كآبتي. دخلت النساء تتحرك فساتينهن بهمسات مغرية، والسيوف تصطك بأرجل مرافقيهن. أخذتْ قدماي تتراقصان، مأخوذةً بإغراء إيقاع رقصة الفالس. ورغم وجودي على مقربةٍ من أمي، فإنها لم تُعرْني انتباهًا، فقلت لنفسي: «ربما لو بقيتِ هادئةً كفاية لانتهى الأمر بأن تنسى أنكِ هنا».

تقدم سيرجي إلى أمي، مادًّا يدَه، يطلب رقصةً معها، فابتسمت، وأومأت برأسها، ثم انخرطا في دوامة الراقصين، وأخذا يتحركان في تناغم تامٍّ. لم أكن أعلم أن سيرجي بارع في الرقص، وتمنيت بشيءٍ من الغيرة لو أنني مَن كنت بين ذراعيه. قيل لي من قبل إن العلاقة بين أمي وسيرجي وأبي لم تكن دائمًا على ما يرام. فسيرجي الذي ينشر مجلةً أدبية، وأبي الوزيرُ في الحكومة، دائمًا على خلاف بشأن أمور السياسة والاقتصاد، بل بشأن كل شيء تقريبًا. وفي أيام زواج أمي الأولى كانت المسكينةُ تُضطر إلى لعب دور حمامة السلام عندما تتحول الخلافات بين أخيها وزوجها إلى مباريات من الصراخ. والآن يتذكرون هذه المعارك بابتسامات حزينة، كنوادر من ماضٍ بعيد. ومع أن أبي لم يزَل يشير إلى سيرجي بالراديكالي المتحمس، وسيرجي يسخر من أبي، ناعتًا إياه بالحفرية القديمة، فإن كلا منهما يحترم عناد صاحبه. ومع أن

سيرجي يدافع في بعض الأوقات عن حقوق العمال، وأبي يهمهم بالشكوى من أن بعض الناس لا يحترمون التقاليد، فإن الاثنين كانا من الطراز نفسه من الرجال، ذلك الطراز الذي يُقبِّل أيدي النساء ويحني رأسه لأصحاب الألقاب الرفيعة، كما أنهما يتقنان رقصة الفالس إتقانًا يثير الانبهار.

استغل فاسيلي عدم انتباه أمي وتسلل مع بضعةٍ من أبناء عمي الأكبر سنًّا، ووددتُ لو وجدتُ مهربًا مثله، ربما إلى غرفة الطعام، حيثُ رأيت الخدم يرصّون سلطانيات مشروب البانش وصواني الحلويات.

- ناديا أنطونوفنا؟

رأيت خلفي فتى طويلًا نحيفًا، ورغم أنه أطول مني قدرَ رأسٍ على الأقل، فإن خديه لم يزالا نضِرين بنعومة الشباب. لم أعرف من هو.

انحنى لي انحناءةً سريعة متمرِّسة، قائلًا:

- ميخائيل نيكولايفيتش.

كانت عائلة شولكين تستخدم مجموعة صغيرة من الأسماء ذاتها، لأجيال عديدة، فكان على من يُعرِّف بنفسه أن يذكرَ اسمه واسمَ أبيه ليعرف الناس من هو. ورغم ذكره أنه ميخائيل ابن نيكولاي فإن هذا لم يكن كافيًا، فهناك على الأقل نصفُ دستةٍ من عائلة شولكين الكبيرة بهذا الاسم. ولكن عندما أسهب الفتى في الشرح وأدركت أنه ابنُ الأمير نيكولاي الأكثر ثراءً وإجلالًا بين أفراد عائلة شولكين شعرت بإحراج بالغ.

تلعثمتُ قائلة:

- آسفة، فأبناء عمي كثيرون جدًّا، وأكاد ألّا أعرفَ كل هؤلاء الموجودين في سانت بطرسبرج، ناهيك بهؤلاء الموجودين في موسكو...

فقاطعني:

- من فضلكِ، لا داعي للانزعاج، أظن أننا تقابلنا مرةً واحدة. في جنازة جدتي؟

تذكرت حينها رحلة القطار، في عربة خاصة فخمة، كانت هذه الرحلة هي أبعد رحلة لي عن المنزل، ولكن مع ذلك لم أستطع أن أتذكر أي شيء من الطقوس نفسها.

- كان هذا من سنوات طويلة، مدهش أنكَ تذكرتني.

- لم أتذكركِ، ولكني رأيت أمَّك، وعرفت من هي فور رؤيتي إياها.

فسّر قوله هذا كل شيء، فالجميع يعرف أمي.

تحدثنا في بعض أمور العائلة لدقائق قليلة، وبحثنا الروابط بيننا، إلى أن توصلنا إلى أننا أقرباء من الدرجة الثالثة. أخبرني ميخائيل أن عمره خمس عشرة سنة، وأنه الأخ الأصغر لثمانية إخوة، أغلبهم متزوجون. ليس من المعتاد لصبيّ في مثل سنِّه أن يُدعى إلى حفل تقديم بنت عم بعيدة القرابة، ولكن أمه قررت أن تُحضره لمرافقتها، بعد أن وعدتْه بزيارة المسرح ومشاهدة الباليه في أثناء وجودهم في المدينة.

قال ميخائيل:

- موسكو مكان جيد للاستمتاع بالوقت، ولكنها لا تداني المكان هنا.

ورغم أني لم أذهب إلى المسرح أو الباليه قط، فإني هززت رأسي متفقة معه، وظللت أهزه وهو يخبرني عن مسرحية لـ «جيزيل»، شاهدها في مسرح البولشوي، ثم ذهبَ حديثُه بلا مقدمات إلى خطط أسرته لقضاء الصيف.

- تريد أمي البقاء في جنوب فرنسا، ولكني آملُ أن أقنعها بالذهاب إلى باريس. هل ذهبتِ إلى هناك؟

هززتُ رأسي بالنفي هذه المرة، متسائلةً إذا ما كان ميخائيل نادمًا على الحديث مع نكرةٍ مملةٍ مثلي، ولكن لم يبدُ أن صمتي يزعجه.

- كم أحب أن أزور أحد هذه المراسم التي تنتشر اللوحات في كل أنحائها، حيث يمكنكِ أن تشاهدي الرسامين وهم يخلطون الألوان.. أتودين أن ترقصي معي؟

ثم تمايل بكتفيه وهو يضحك من نظرتي الحائرة. وقال مبتهجًا:

- أرى أنكِ تريدين الرقص، لمَ لا نجرب؟

مددتُ يدي، فأخذها وانطلق بي إلى دوامة الأجساد الراقصة. حاولت قدماي بصعوبة أن تنسجم مع حركاته، إلى أن ضبطتُ إيقاعي معه شيئًا فشيئًا ولانت ذراعاي. رحنا نرقص بحرص، ولكن بشكل جيد إلى حد ما. ظل ميخائيل يثرثر طوال الرقص، ولا عجب؛ فقد كان أصغر إخوته، وسَرّه أن يكون محط الاهتمام، كما أزاحت ثرثرته عني عبء الكلام، فأنّى لي التعبير عن كل ما كان يعتمل بصدري من مشاعر! فهأنذا أرقص مع ابن الأمير شولكين! أدور وأتحرك وسط كل هذا الجمال، ينبض قلبي مع إيقاع الموسيقى. ثم رأيت أمي تنظر إليَّ بعبوس عند طرف المرقص. لقد بطُلت التعويذة. سحبتُ نفسي من بين ذراعي ميخائيل، قائلةً:

- عليَّ أن أذهب.

تغيّر وجه أمي من الضيق إلى الاهتمام عندما قدمت لها ميخائيل، ثم تبادلا الحديث لبعض الوقت. كنت أرجو أن أحظى بفرصةٍ لقضاء المزيد من الوقت معه، ولكن تلاشت آمالي سريعًا؛ إذ استأذنت أمي وقادتني بحزم إلى الردهة حيث كانت السيدة فيلدز تنتظرني حاملةً معطفي. سلَّمتني أمي لها طابعةً قبلةً سريعةً على خدي وهي في عجلة لتعود إلى الحفل.

سألتني فيلدز:

- كيف كان الحفل؟

- رائعًا! لقد رقصتُ أيضًا.

- ليتني رأيت ذلك.

- تعالَي وألقِ نظرة، سأعرفك بابن عمي ميخائيل.

فهزَّت رأسها رافضة وردت سريعًا في حسم:

- لا.. يجب ألّا أفعل هذا.

يا لغبائي! بالطبع لا يمكن لمربية أطفال في ثوب بسيط أن تتهادى في حفل رسمي كهذا. كان شعرها الكثيف المتموج قد خرج من مشابكه، كما هو حاله دائمًا، وتدلت خصلاته الهشة على جبينها وخديها. كم أحببتها! ولكنني

أعلم أنها ستبدو كنغمة شاذة في الحفل، كبطةٍ قبيحة تقف بين الطواويس. وعدتُها أن أخبرها كل شيء عن الحفل.

أبطأت السيدة فيلدز من سيرها ونحن نتقدم تجاه الباب الأمامي، وأخذت تمعن النظر في المدخل المقوس. وعلى مرمى البصر، كان الراقصون يتحركون كمزيج من الألوان، تتبع حركاتهم تعليمات الأوركسترا. كان يوجد في عينيها شيء وهي تشاهدهم، أثرٌ من حنين، جعلني أتساءل إذا ما كانت السيدة فيلدز قد ذهبت إلى حفل من قبل، إذا ما كانت قد تهادت من قبل على أرضية مرقص، محاولةً جذب اهتمام أحد الشباب، وقبل أن يتسنى لي أن أسألها، وجدتها تدفعني بعيدًا بطريقتها المعتادة من اللامبالاة. ها قد ولَّت لحظات الثقة! ولكني اتخذت قرارًا في تلك الساعة؛ سأدعو السيدة فيلدز إلى حفل تقديمي.

بعد مرور شهر، ذهبنا إلى الريف لنقضي الصيف هناك كما نفعل كل عام. عادةً ما تضعني تلك الأشهر التي نقضيها في بريالكو في حالة حالمة من الخمول، حالة بين الشعور بالملل والإحساس بالرضا. ولكن صيف عام 1941 كان مختلفًا. فمن أول لحظة لي هناك شعرت بالتوتر. لم يسبق لفيلدز الذهاب معنا إلى الريف من قبل، وكان بإمكاني أن أدرك لحظةَ وصولِنا أنها شعرت بخيبة الأمل، رغم أنها حاولت أن تخفي شعورها هذا خلف ابتسامة جامدة. رأيتُ مدخل السيارات الأمامي موحلًا تمزقه آثارُ الإطارات، والكراسي المترهلةَ مبعثرةً في الرواق الأمامي، وسمعت صياح الدجاج الذي كان يتجول في خلفية المنزل، وضجيج الخدم الذين اندفعوا اتجاهنا لإنزال أمتعتنا. ولاحظت تكسر شريط الزخارف بطول السقف وشعرت بشيء من الغضب يتسلل إليَّ؛ ليس المنزلُ بالجمال الذي أذكره.

كانت مدبرة المنزل «إلينا» وزوجها يوري، ناظر العزبة، ينتظراننا عند الباب الأمامي. يعملان عندنا منذ سنوات طويلة، وهما في الواقع بمنزلة فردين من العائلة. اصطحب يوري أبي في جولة تفقَّدا فيها الحظيرة التي أُصلِحت حديثًا، وأخذت أمي تتشاور مع «إلينا» بخصوص الترتيبات الضرورية للأيام المقبلة، كنوع الطعام الذي سيقدم في العشاء، ومَن الضيوف الذين

سندعوهم، وفي أي يوم. ورغم أن بيتنا في بريالكو أصغر من بيتنا في سانت بطرسبرج وأسوأ منه حالًا، فإننا نستقبل فيه ضيوفًا على الدوام، فأبي وأمي يفضلان أن يكونا برفقة الآخرين على قضاء الوقت بمفردهما. وفي الريف، كان اللهو أقل رسمية بكثير منه في المدينة. ففي بريالكو، بإمكاني ارتداء الفساتين الخفيفة والفضفاضة، دون الحاجة إلى ارتداء مشد للخصر، كما كان بوسعي أن أجري حافية. كان أكثر مكان أشعر فيه أنني حرة.

توجهتُ بالآنسة فيلدز إلى غرفة الجلوس، وكانت مليئة بقطع من الأثاث التي جمعها أجدادي. سألتُ فيلدز:

- ما الخطب؟

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

- ماذا تقصدين؟

- تبدين حزينة.

- إمممم.

أعرف هذه الهمهمة جيدًا، فالآنسة فيلدز تستخدمها لتأخير المحادثة إلى أن تجد الإجابة الملائمة. فبادرتها بقولي:

- لا يعجبك الوضع هنا.

- كلا، بالطبع يعجبني. كل ما في الأمر أنه ليس كما كنت أتوقع، كنت أظنه أكثر تعرضًا للهواء وبه المزيد من النوافذ، في وسط حديقة، لا مخبَّأً بين الأشجار. ولكن هذا لا يهم إطلاقًا، إنه جميل تمامًا، ومريح جدًّا.

قلت لنفسي: «مريح؟»، الآن فهمت. فليست هذه الكلمة إلا مرادفًا لـ «صغير»، كما أن كلمة «جميل» هي كلمةٌ مناسبة جدًّا عندما تريد أن تتحدث بلباقة. ولم أشعر إلا بمزيد من الخجل عندما أريتُ الآنسة فيلدز غرفةَ نومها في خلفية المنزل، فليست سوى مكانٍ بالغ الصغر، لا يتسلل إليه الهواء، يصلح بصفة مثالية لأن يكون خزانة ملابس. فقلت لها فيما يشبه الاعتذار:

- لن تحتاجيها إلا وقت النوم، سترين، فنحن نمضي كل وقتنا بالخارج.

- إذن، سأكون في منتهى السعادة.

وبالفعل، معظم ذكرياتي من هذا الصيف تكاد تكون صورًا ليس لها من خلفية غير الأشجارِ وضوء النهار، بين تجمعات في الرواق، ونُزَهٍ في الهواء الطلق، كانت أمي تدعوها «جنتي الصغيرة». الناس يجيئون ويذهبون طيلة الوقت، إما أصحاب أبي وأقاربه، وإما أصحاب أمي وأقاربها، توجد أيضًا بعض الزيارات الليلية القصيرة من قِبَل عائلات أخرى من عائلات سانت بطرسبرج الذين يسافرون إلى ضِياعهم الأبعد من ضيعتنا. بالطبع لم يكونوا جميعًا ضيوفًا لنا في الوقت نفسه، ولكني الآن أراهم في مخيلتي كحشد واحد، كما لو أنّ أحداث عشرات من الأيام المختلفة قد تكاثفت في ظهيرة يوم واحد. خالي سيرجي دائمًا ما كان يعقد اجتماعات وصالونات في المدينة ولم يكن يغادر سانت بطرسبرج لأكثر من أسبوع في المرة الواحدة، ومع ذلك يبدو حاضرًا في كل ما أتذكر، إما لاعبًا دورًا أساسيًّا، وإما مجتذبًا عيني في خلفية كل صورة من ذكرياتي تلك.

يجمع سيرجي الأصدقاءَ كما يجمع الأطفالُ الأصدافَ على الشاطئ، بغير تمييز، مبتهجًا لحداثتهم غيرَ ملقٍ بالًا لعيوبهم. تتسع دائرته الاجتماعية للجميع، من كبار الروائيين إلى مثيري الرعاع الذين لا يكادون يحسنون القراءة، ولكنه كان أحكم من أن يدعو معارفه صغيري الشأن إلى منزل والديَّ. في ذلك الصيف، أحضر رجلين، الأول شاعر اسمه بوريس، لا أدري هل كان متحفظًا للغاية، أم كان خجولًا جدًّا، إلا أنه كان يتحاشى النظر مباشرة إلى أعين الآخرين حتى عندما يتحدَّثُ أحدُهم إليه. أما الآخر، فاسمه أليك، يكتب في السياسة. كان أليك طويلًا واثقًا بنفسه، يبدو طوال الوقت مستمعًا، لا يتحدث إلا إذا أراد إيصال فكرة ما. ورغم أنه أصغر من سيرجي، فإن رزانته جعلته يبدو أكبر. وعلى خلاف سيرجي، لم يكن يبدي اهتمامًا بالأطفال، وكان هذا مبعثًا للراحة، فهو من تلك النوعية من الناس التي تخيفني فتدفعني إلى الصمت.

في أول ليلة، على العشاء، قال سيرجي:

- نحن مدعاة للخجل.

ثم استطرد:

- فالروس متخلفون بالمقارنة بسائر دول أوروبا، كما أنهم يؤمنون بالخرافات.

فاعترض أبي، قائلًا:

- أهذا لأننا نعبد الله، في حين يسيطر الاشتراكيون الملحدون على كل مكان آخر؟

كانت أي كلمة في حق روسيا (الأم) كفيلةً باستفزاز أبي إلى حالة دفاعية هائجة. ولكن أليك حافظ على هدوئه رغم اشتياط أبي، قائلًا:

- أنا لا أتحدث عن الله، بل عن شعبنا. نحن مقموعون من قِبل هيكل طَبَقي عفا عليه الزمن، يبقينا تحت أغلال تربطنا بالماضي. تماما كالسجناء.

خرجت الكلمة كهجوم، كانفجار مفاجئ من اللهيب. كنا جميعًا نعرف، مِن سيرجي، أن أليك سُجِن بالفعل لسنتين بتهمة كتابة منشورات مناهضة للحكومة. غيَّر أبي الموضوع بأن امتدح شبكة خطوط القطارات الروسية، قائلًا:

- إن العالم يحسد روسيا بسببها.

ولكن أليك تصنع الابتسام وتساءل عن العمالة التي جعلت منها تلك الأعجوبة. نظر إليَّ فاسيلي نظرة سريعة عبر طاولة الطعام، وقد اتسعت عيناه من السعادة وهو يقول:

- هذا أحسن عشاء تناولناه منذ سنوات طويلة.

ثم اقتحم صوت أمي المعركة:

- الشيء الوحيد الذي لا أطيقه بشأن هؤلاء الثوريين هو افتقادهم حسَّ الدعابة.

ثم وجهت حديثها إلى أليك:

- أليك، هل حقًّا يتحتم عليكم جميعًا أن تكونوا بمثل هذه الجدية القاتلة؟ ألا تستمتعون بأوقاتكم على الإطلاق؟

وفي حركة مسرحية قال سيرجي لأليك:

- إن أختي لا تسمح أبدًا بالحديث في السياسة في أثناء الصيف.

فهز أليك رأسه في خجل، متوجهًا إلى أمي بقوله:

- تقبلي اعتذاري سيدة شولكينا.

أشرق وجه أمي بالابتسامة، وبدأ التوتر في الزوال.

وفي اليوم التالي، وصلت عربة مكتظة بضيوف ينوون حقًّا الاستمتاع بوقتهم، فيما بدا كتعزيز لأوامر أمي. كانت إحداهم الأميرة نيميروفا، الزوجة الثانية لنبيل مُقعد، وهي تبذل قصارى جهدها لتنفق ثروة زوجها على من يصفون أنفسهم بالفنانين، الذين تصادف أن يكونوا جميعًا رجالًا، ووسيمين. كان اثنان من رعاياها يرافقانها، كلاهما راقص، وكلاهما اسمه بيوتر، وسرعان ما سمّتهما أمي «بيوتر الأشقر» و «بيوتر الأسمر». وكان هناك أيضًا السيد فولودنوف وحرمه، رسّامَان؛ ترسم هي المناظرَ الطبيعية وهو يرسم «بورتريهات»، أسوأ رسوماته كانت صورة بالحجم الطبيعي لزوجته، عاريةً في الحمام. كان الزوجان يمثلان تجسيدًا للفوضى البوهيمية، فالسيدة فولودنوفا تشبك شعرها الكستنائي بالدبابيس بعشوائية لتتدلى خصلاته المضفورة على عنقها، والسيد فولودنوف يرتدي سترات ملطخةً بالألوان مفتوحة عن الصدر. تعبيراتهما الدرامية وأصواتهما العالية جعلتهما يبدوان طوال الوقت كأنهما يقدمان عرضًا مسرحيًّا أمام الجمهور. كنتُ كبيرةً بما يكفي لأعرف متى يكون الكبار على وشك القيام بشيء، ولكنْ أصغرَ من أن أترجمَ إشاراتهم المشفرة.

امتلأت تلك الأسابيع التي قضيناها في الريف بتفاعلات اجتماعية غريبة لن يتسنى لي أن أفهمها إلا بعد أعوام طويلة. فالضيوف ينقسمون إلى أزواج، أو مجموعات صغيرة، ثم يعيدون التجمع في توليفات جديدة؛ ما بدا معه مستحيلًا أن يبقى المتابع لهم على دراية بكل ما يجري. حيَّرتني كل حادثة، كل انقسامة والتئامة، ولكنَّ أغلبها بقي غامضًا، تمامًا كخليط الألوان في اللوحات التجريدية التي تعشقها أمي، ويراها أبي اعتداءً على الذوق السويّ. أمي قد شغفها التصوير مؤخرًا، فأخذت تمضي ساعات طويلة وقد أوقفت شخصًا

أو آخر بجوار جذع شجرة بديع أو في أحد المروج التي تضيئها الشمس. ونصب آل فوفودنوف حوامل لوحات الرسم خلف المنزل وهم يتظاهرون بإعداد الألوان في كل صباح، رغم أنهم يقضون وقتًا طويلًا في الثرثرة؛ ما جعلهم لا ينجزون إلا قليلًا في نهاية كل يوم. أقنعَتِ الأميرةُ نيميروفا بوريس أن يُلقيَ بعض أشعاره، في حين كان بيوتر الأشقر وبيوتر الأسمر يجلسان إلى جانبها ثابتين كتمثالين. قلت لنفسي: «لو كنت في ثراء الأميرة لأستأجرت شبابًا حسان المظهر ليتبعوني حيثما أذهب، كما تفعل».

في أثناء تجولي في الضيعة.. كثيرًا ما كنت أسمع صوت أمي:

- أليك! ما القصة التي أخبرتني بها سابقًا، عن زوجة القيصر؟

أو:

- أنا واثقة أن لدى أليك ما يقوله بشأن هذا الـ...

وأحيانًا، على سبيل المناكفة:

- أوه، أليك، كم أنت فظيع!

كانت أمي غالبًا ما تبدو وكأنها تسخر من أليك، موسعة عينيها في اندهاش مُبالغ فيه على شيء قاله، ثم هازةً رأسها. لم أسمعه قط يغازلها أو يحاول أن يتقرب إليها، ولكن من الواضح أنها تستمتع برفقته. وذات مرة قالت له:

- لا أعرف أبدًا فيما تفكر.

وأعتقد أن هذا كان سرَّ سحره، مع أني لم أستوعب السبب في ذلك الوقت، فبالنسبة إليَّ يبدو أليك باردًا ويمثل تهديدًا لا أدري كُنهه، ولذلك يُفضَّل تجنبه. وكثيرًا ما كانت فيلدز تجرُّني بعيدًا عندما تسخن الأحداث. فعندما يشرع أبي في انتقاد أمي سائلًا كم سيمكث آل فولودنوف معنا، تظهر فيلدز فجأةً وتقول:

- حان وقت الدرس.

وحين يقرأ سيرجي وأليك خطابًا من صديق في موسكو، ويتمتمان بشأن فضيحة ما، تأتي فيلدز من خلفي، وتطلب مني أن نذهب لالتقاط الزهور

البرية من أجل دراسة علم النباتات. حتى إنها ذات مرة اقترحت أن نتمشى إلى القرية، في نزهة شككت أنها كانت بإيعاز من أمي للتخلص مني.

كنت أعرف أن القرية التي يعيش فيها عمال ضيعتنا قريبة من منزلنا، ولكن لم يكن لديَّ ما يدعوني إلى زيارتها. كانت في تصوري مثل نيويورك أو كالقمر، مكان أعرف أنه موجود ولكن لا صلة له بحياتي اليومية. سِرت أنا وفيلدز عشر دقائق أو قريبًا من ذلك، عبر طريق ترابي تحول إلى أرض صلبة بفعل أجيال من الخدم ساروا عليه متعبين جيئةً وذهابًا. ولا يمكن لغير التعريف الأكثر كرمًا لكلمة «قرية» أن يصف المستعمرة التي وصلنا إليها. فقد تراصّت صفوف من الأكواخ الخشبية على طول ممر لعربات الكارو، وقد تناثر عليه -الممر- روث البهائم. لم يكن هناك من مبنى أكبر من غرفة واحدة. الدجاج والخنازير تتجول بحرية داخل البيوت وخارجها، جنبًا إلى جنب مع أطفال يعلوهم الوحل. أخذتْ فيلدز تنظر يَمنة ويَسرة، كأنها تبحث عن مكان آخر، أجمل. رأينا هناك مجموعة من الرجال المتجهمين، متجمعين أمام المسكن الأكبر، انسلَّ أكبرهم من وسطهم، مقتربًا منا.

- هل أنتِ في حاجة إلى المساعدة يا آنسة؟

هززتُ رأسي، ولكن لم أستطع أن أفكر في أي شيء أقوله لأبرر وجودنا هنا. مرَّت بي لحظة مؤلمة والرجل والآنسة فيلدز يحدقان إليَّ، ثم نظرتُ إلى الأرض. أومأت فيلدز للرجل واستدارت، مشيرةً لي باتباعها. وبمجرد أن ابتعدنا بالقدر الذي لم يعد أحد منهم يسمعنا، قالت فيلدز:

- حسنًا!

و «حسنًا» هذه، أيضًا أعرف ما تعني، فقلت:

- ليس هذا ما كنتِ تتوقعينه؟

- نعم.

- إنها تختلف عن القرى الإنجليزية.

- نعم.

لم تفسر فيلدز ردها، وكنت خجولًا لدرجة منعتني من السؤال. كان من الواضح أنها تتبع أحد مبادئها المفضلة؛ إن لم يكن لديكِ ما يحسُن قوله، فلا تقولي شيئًا على الإطلاق. تذكرتُ حينها إحدى الرسومات في كتاب من كتب الآنسة فيلدز، بعنوان «إيمّا»، لجين أوستن. كان رسمًا تظهر فيه شخصيتان تسيران في المدينة، وخلفهما محالّ وعربات وحشائش ترعى فيها الخراف. لو أن هذا ما كانت تتوقع فيلدز أن تراه، فلا عجبَ في أن أملها قد خاب. شعرتُ بوخز الخجل في وجهي وسائر جسدي. فهنا، وعلى بعد خطوات من منزلي، يقبع دليل شديد الوضوح على صحة حديث أليك، فمقارنة بإنجلترا، كانت روسيا فقيرة ومتخلفة. ولكن لم يكن ما دفعني إلى الشعور بالشفقة هو حال سكان عائلتي البائس، بل كنت غاضبةً لأن قذارة القرية تنعكس سلبيًّا على مزاج أبي.

ورغم أن فيلدز تفعل كل ما تستطيع لتشغلني، فليس باستطاعتها أن توجد في كل مكان في الوقت نفسه، في بعض الأحيان أنجح في التسلل فأرى من المشاهد ما ينحفر في ذهني أعوامًا طويلة بعد ذلك، تمامًا كأفلام أديرها مئات المرات. مشاهد كآل فولودنوف وأبي وهم يسيرون عبر ممشى أشجار الفاكهة خلف المنزل، السيد فولودنوف يسير متعبًا باحثًا عن ثمرة كمثرى ناضجة ليأكلها، وأبي يقدم ذراعه للسيدة فولودنوفا، فتقترب من أبي، مميلة رأسها، تهمس وشفتاها تكادان تلمسان أذن أبي. كنت أعرف أنه يوجد شيء غريب في وقفتهما، بجسدها الذي يلتفُّ حول جسده كشجرة العنب. يبدو أبي كما لو كان يشعر بالإطراء والحزن في الوقت نفسه، لا أعرف كيف يكون هذا. تُدني السيدة فولودنوفا فمها من عنقه، وينادى السيد فولودنوف من مكان قريب، فيبتعد أبي وتبتعد السيدة فولودنوفا.. فجأةً، وفي صمت، وحين ينضم إليهم السيد فولودنوف أشعر كما لو أن الأمر كله كان من نسج خيالي.

وفي يوم آخر، رأيت أمي وأليك يجلسان على جذع شجرة بجوار النهر، وقدماهما منغمستان في الماء، وقد شمرت أمي تنورتها حتى ركبتيها وخلعت جواربها. لم أزل أذكر صدمتي عندما رأيت ساقها البيضاء ووقفتها الطفولية. تواريتُ خلف شجرة وأخذت أشاهد أمي وهي تهمهم وتضحك، لم أكن قريبة

منهما بدرجة تسمح لي أن أفهم ما تقول. كان أليك يشاهدها وينصت إليها وقد تثنى فمه فيما يبدو كأقرب شيء إلى التبسم، وعندما بدأت ساقاي تتخدران، تسللت مبتعدة وأنا أشعر كما لو أني رأيت مشهدًا من مسرحية وصلتُ إليها متأخرةً، وأُجبرت على الرحيل قبل إسدال الستار.

وهناك لحظات أخرى أتذكرها كصور متجمدة عبر الزمن، كتلك الصورة التي تظهر فيها فيلدز وهي تشاهد سيرجي وأليك واقفين عند إحدى النوافذ وهما يتبادلان الحديث، في حين أن أمي تشاهد فيلدز. وفي صورة أخرى أرى بيوتر وبيوتر وقد أمسك كل منهما بيد الآخر وهما يسيران في الغابة متهامسين. كما أذكر بيوتر الأسمر وقد انفردت به الأميرةُ نيميروفا بعد العشاء، وأصابعها ترقص على حافة كُمِّه، وبيوتر الأشقر متجهمٌ في الناحية الأخرى من الغرفة. وفي صورة أخرى أرى السيد فولودنوف يضع يده أسفل ظهر زوجته ويعتصرها بشدة وهوس.

في أغلب الأحوال، كنت أجد تلك الوقائع مسلية، أرى فيها الكبار يتصرفون كالأطفال. ولكنْ توجد أشياء أخرى كانت مزعجةً، لأنها جعلتني أدرك أنه لا تزال الكثير من الأمور التي لا أعرفها بعد. كسيرجي مثلا وهو يسير في الحديقة على مهل فيستدير مبتعدًا عندما ألوِّح له. هذه أول مرة يتجنبني، وكان لإعراضه عني ألمًا كالصفعة على الوجه. أو كأمي عندما راحت تبكي، لا على طريقتها المسرحية التي تبدو فيها مشفقة على نفسها، ولكن بهدوء، تحت شجرة بجوار المنزل، وقد أغلقت فمها، وصرفت مشاعرها في دموع تنسال على وجهها. لطالما كنت أول من يحتضن أمي ويسليها عندما يعتريها مزاج من أمزجتها، ولكن في هذا اليوم أدركت بالغريزة أن عليَّ أن أبقى بعيدًا.

وكان أسوأ تلك الأيام يومَ تجسستُ على فاسيلي. يحب أخي الريف، ودائمًا ما يقضي وقته في الخارج إما في ركوب الخيل وإما في الصيد، أنشطة ذكورية لم أُدعَ إليها قط. وعندما رأيت حصانه يتهادى في حقول الشعير ذات ظهيرة، سعدتُ بالمفاجأة، فلربما أفلح في إقناع فاسيلي أن يتمشى معي. وعندما اقتربت، سمعت ضوضاء ولهاثًا خلف أكمة قريبة كأنها من شخص يتألم. هل فاسيلي جريح؟ حثثت السير إلى أن استطعت أن أرى من خلال

الأغصان. كان فاسيلي على الأرض، نائمًا فوق فلاحة شابة لم أرَها من قبل. وكان وجهها فاترًا لا يبدو عليه أي انفعال. كانت ملابسهما تحجب تفاصيل ما يجري، ولكني استطعت أن أرى جسد فاسيلي يرتفع وينخفض، وعرفت بوجه عام ماذا كانا يفعلان. وعندما بدأت أنفاس فاسيلي تستعر، أشحت بناظري، وأنا أشعر بالخجل له ولي. لو اتخذت الممر الذي يعود المنزل مباشرة، فلربما يراني، فانسللت بين الشعير. وبعد مدة قصيرة، حمل فاسيلي نفسه على حصانه وانطلق، وقامت الفتاة وسوَّت فستانها. كان خداها عريضين وأنفها مفلطحًا، لم تكن قبيحة تمامًا، ولكن لم يكن أيٌّ من ملامحها جديرًا بالملاحظة بأي حال من الأحوال. لم يكن في الأمر ما يفسر سبب اختيار أخي لها.

مرت الفتاة من أمامي مباشرة، متجهة إلى القرية، تحمل قطعة من الكعك عليها مثلجات قرنفلية، الكعكة نفسها التي تناولناها في نهايةِ عشائِنا منتصف النهار. لا بد أنها هدية من فاسيلي.. أم كانت أجرًا؟ أقحمت الفتاة الكعكة في فمها والتهمتها في قضمات ضارية سريعة، كما لو كانت تخشى أن يختطفها أحد من بين يديها. منظر مقزز، بل فتاة مقززة. صار شعوري حيالَ ما حدث خلف هذه الشجيرات متداخلًا مع شعوري تجاه القرية ككل بشكل لا ينمحي. لا يمكن أن يكون أخي المثالي ملومًا، لا بد أنه قد خُدِع فسقط في الإثم.

لم أخبر فاسيلي قط بما رأيته، فأصبح سرًّا من الأسرار التي اختزنتها هذا الصيف. كنت أحسب أنه لم يكن لأي من هذه الأسرار أي صلة بي حتى أواخر شهر يوليو، عندما أخبرتني الآنسة فيلدز أنها ستغادر، كان النبأ غير متوقع، لدرجة أني لم أصدقه، حتى عندما رأيت حقيبتها محزومةً في غرفتها. سألتها:

- لماذا؟

- لقد كبرتِ ولا حاجة لك بمربية، توجد بعض مدارس «الإتيكيت» الرائعة في سانت بطرسبرج، على ما أعرف.

- لا أريد أن أذهب إلى المدرسة...

ولكنها قاطعتني بحزم بهزة من رأسها:

- هذا ما يريده أبواك، ليتني أستطيع البقاء، ولكن هذا غير ممكن.

ورغم أني لم يسبق لي أن رأيت الآنسة فيلدز وأبويَّ يختلفان من قبل، فإني فهمت مغزى كلماتها؛ لقد استغنوا عنها. لماذا؟ لم أعرف. حاولت أن أمسك بيدها، ولكنها أبعدت يديها بسرعة ومدتهما إلى قبعتها، كابتةً مشاعرها وهي تعتمرها. سألتُها:

- هل يمكنني أن أراسلك؟

فابتسمت لي ابتسامة شاحبة، كتلك التي يبتسمها الكبار للصغار حين يتحدثون عن أصدقائهم الخياليين، ثم قالت:

- لا أعرف بعدُ أين سأعيش.

قالت ذلك ثم سرت عبر وجهها رجفة من قلق، وأربكني من جديد فراقها المفاجئ. فيمَ كانت العجلة؟ لماذا لم تُمنح وقتًا لتجد وظيفة أخرى؟ ثم كان أن قالت:

- أتدرين؟ سأكون أنا من يكتب لك أولًا، بمجرد أن أستقر.

تذكرت الرسمة في كتاب «إيمّا»، وتخيلتني أنا والآنسة فيلدز ونحن نسير عبر طرقات البلدة في الريف. قلت لنفسي: «في يوم من الأيام سأجد طريقةً لزيارتها، لن يكون هذا وداعنا الأخير». وعندما تجهَّزت العربة لتأخذها إلى محطة القطار، أطعتُ آخر أمر لها، فلم أبكِ. ولكن البكاء أتى فيما بعد، عندما ألقيت بنفسي على سريرها المتجعد، في الغرفة الخلفية، تلك الغرفة التي كانت أشد كآبة مما تستحق الآنسة فيلدز. حاولت أمي أن تعزيني، وأخذت تربت على ظهري، ولكنها تجاهلت توسلي لها بأن تخبرني سبب رحيل الآنسة فيلدز. سرى الحزن عبر جسدي موجاتٍ من الألم تركَتْ فؤادي خاويًا. أصبحتْ بريالكو مهجورة كئيبة بغير فيلدز، وكان في الطريق المزيد من المصائب؛ ففي الأول من أغسطس، أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا، وغادر أبي وفاسيلي إلى سانت بطرسبرج بعد ذلك مباشرةً. كان فاسيلي مبتهجًا لفكرة أن يصبح جنديًّا حقيقيًّا، ولكن أبي كان حذرًا، إلا أنه كان عازمًا على القيام بواجبه. كتبَ سيرجي خطابات عَجِلةً إلى بعض المراسلين الأوروبيين،

وهو يخبر أمي أنها كلها مضيعة وقت، وكان كثيرًا ما يتمشى بمفرده، مكتئبًا. وعندما حزم ضيوفنا حقائبهم ورحلوا، تحدث يوري مع أمي وقال إنه يود لو أن الجيش لا يستدعي أيًّا من الرجال في بريالكو قبل حلول موسم الحصاد. لم تعد «إلينا» تُضطر إلى إعداد كثير من الوجبات فاتسع وقتها لتخبز لي مقرمشات متقنة الصنع لأتناولها مع شاي المساء، ولكن الإحباط الذي شعرت به حرمني التمتعَ بها. وبعد أيام قليلة، ودَّعني سيرجي وداعًا جافًّا. قبل ذلك كان عدم اهتمامه بي كافيًا لإيذاء مشاعري، أما الآن فقد جعلتني خسارة الآنسة فيلدز أكثر صلابةً، فلم يكن هناك بكاء. وخلال كل المعاناة الموشكة، لا أكاد أذكر مرةً بكيت.

لندن

1938

سِرِّيّ

إلى: روجر بالانتري، بجهاز المخابرات السرية

من: المفتش هيو ثورنتون، بشرطة ميتروبوليتان

(مرفق الوثائق المطلوبة بخصوص وفاة المدعوّة ماري دوفال، وإليكم ملخصًا بما فيها، لأجل راحتكم:

1. البرقية التي تم تبادلها مع قسم شرطة تولوز: في إجراءٍ متبعٍ عند وفاة مواطن أجنبي، أُخطِرت السلطات المختصة في مسقط رأس المرأة، وأعلمونا أن عنوانها غير موجود، وأنهم لم يستطيعوا تحديد أي أصدقاء أو أقارب لامرأة بهذا الاسم.
2. تقرير المحقق في الوفاة: نتجت الوفاة عن جروح متعددة وكسور في العظام؛ ما يتسق مع القوة الناتجة عن مركبة متحركة.
3. إفادات الشهود: في حين استُجوب كل المقيمين في موقع الحادث، إلا أن معظمهم لم يرَ أو يسمع أي شيء غير عادي في ليلة الحادث، وكانت السيدة جورج ويذربي أول من يأتي لنجدة الضحية، وهي تؤكد أنها لم تكن تتنفس.

بعد تلقي البرقيات المرفقة من شرطة تولوز، مباشرة اتصل بي مكتب رئيس الوزراء، وأُمِرتُ أن أغلق التحقيق وأن أرسل الوثائق المتعلقة به إليكم. كونوا على يقين من أني على أُهْبَة الاستعداد متى طُلبت مني أي مساعدة، وأرجو أن أُخبَر ذات يوم بحل هذه القضية بالغة الغرابة).

روسيا
1917

إذا ما سألت كتبة التاريخ، سيخبرونك أن الثورة الروسية بدأت في الثالث والعشرين من فبراير سنة 1917، عندما زحفت حشود من النساء الغاضبات عبر شوارع مسقط رأسي. كانت سانت بطرسبرج قد سُمِّيت باسم بتروجراد، في نوبة من الفخر السلافي، ولكن ثلاث سنوات من الحرب أطفأت وهج المدينة. المَحَال شبة فارغة، وفي كل مكان ترى طوابير الناس متقوقعين داخل معاطفهم يطرقون الأرض بأقدام ثقيلة ليرفعوا عنها الشعور بالخدر وهم ينتظرون الحصول على حصصهم من الخبز. يبدو الوضع كأن إحباطًا قاتلًا قد ضرب الجميع. أمي تشكو الكآبة؛ إذ لم يعد أحدٌ ينظم الحفلات، وأبي يدمدم متذمرًا بشأن عدم كفاءة الجيش، أما أنا فكان يثقلني قلقي على فاسيلي الذي ذهب إلى جلّيقية منذ أكثر من سنة، في محاولة لإخراج الألمان من بولندا، كانت خطاباته نادرةً، كما كانت مقتضبة بما يدفع إلى الجنون. كان عمري خمسة عشر عامًا، ومع ذلك لم يكن هناك أي خطة لتقديمي للمجتمع، ناهيك بخزانة الملابس الجديدة التي كان من المفترض أن تأتي مع ذلك. في بعض الأيام يبدو أني لا أفعل شيئًا غير الانتظار، أنتظر أن تنتهي الحرب، وأنتظر أن يعود أخي.

ثم تغير كل هذا بين عشية وضحاها. لم أشهد البدايات، عندما تقدم عمال المصانع إلى القصر الشتوي، مطالبين بالخبز والسلام، كنت في المدرسة، أُجري عمليات الحساب وأقرأ سونيتات شكسبير. وكان أول ما سمعت بالاضطرابات.. عندما اضطُرَّ السائق إلى تغيير طريقه للمنزل وأخبرني أن شارع نيفسكي يعج بالمحتجين. أتى أبي على ذكر الفوضى على العشاء، ولكن كانت تصدر تململات مماثلة لما مضى، غيرَ أنها لم تدم طويلًا، فلم يكن

في الأمر ما يستدعي أن يعتقد المرء أن هذه الاضطرابات ستختلف بأي حال. كان أبي بالكاد اشتراكيًّا، ولكنه تعاطف مع مطالب المتظاهرين. فأي امرأة لا تقلق من أجل إطعام أبنائها؟ حتى عشاءاتنا الوافرة، كمًّا وكيفًا، لم تعد تزيد على صنف واحد، أحيانًا لا شيء غير الحساء والخبز. كثيرًا ما كانت تشكو أمي قائلة: «إن الألمان يحاولون إجبارنا على الاستسلام بسلاح التجويع».

في اليوم التالي، قال أبي إني لن أذهب إلى المدرسة. خرجت آنّا -واحدة من خادماتنا- مبكرًا لتشتري القهوة، وعندما عادت قالت:

- إن حشودًا ما زالت تتجمع حول القصر.

قال أبي:

- من الأفضل ألا نغادر المنزل حتى تهدأ الأمور.

كانت هذه الإرهاصات الأولى للثورة سببًا في تحريري على المستوى الشخصي. ففي غياب المدرسة أو أي التزام مجتمعي، رحتُ أقضي معظم اليوم في غرفتي، أقرأ وأرسم، ولطالما كنت أستمتع بالطبيعة التأملية للرسم، فهذا يجعل الزمنَ يمر على مهل. بين الحين والآخر كنت أسمع طلقات رصاص، حسبتُ حينها أن من يطلقها جنود يستعرضون. وفي الدور الأرضي، راح أبي يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وعلا القلق وجهَ أمي. وكلما سنحت فرصة، خرج أيفان العجوز لاستطلاع ما يحدث، وعندما نزلتُ لأشرب الشاي، كان يقدم تقريره عن الحالة:

- الشوارع مزدحمة بالناس من عمال المصانع والجنود والطلبة، كلٌّ يطالب بإنهاء الحرب.

قالت أمي:

- أليس هذا ما يريده الجميع؟

كانت أمي تهاتف أصدقاءها وقد حبسوا أنفسهم في البيوت مثلنا، ولكن الوضع كان معقدًا لدرجة أن تعسّر حتى الحصول على الشائعات.

قال أبي:

- سأذهب إلى الوزارة غدًا.

مستطردًا:

- لأعرف ما يجري.

ورغم كل ما يحدث، فقد كنا جميعًا لم نزل نفترض أن عودة الأمور إلى طبيعتها ليست إلا مسألة وقت. ولاحقًا في تلك الليلة، سمعت من بعيد طرقةً على بابنا الأمامي، فانسللت من الفراش وارتديت معطف النوم، ثم هرِعتُ إلى مقدمة السلم، تجذبني الأصوات المهتاجة. كان خالي سيرجي واقفًا في البهو الأمامي، وحوله أبي وأمي. أمي توجه سيلًا من الأسئلة لخالي، حتى لامها أبي وطلب منها أن تعطيه الفرصة للحديث.

خلع سيرجي معطفه وناوله لآنّا، فوضعته على كرسي وتناولت قطعة قماش من مئزرها ثم نزلت على ركبتيها لتمسح الطين عن حذاء سيرجي. وعندما فرُغت من عملها، تبِع سيرجي أمي وأبي إلى غرفة الجلوس، وهبطتُ السلم زاحفةً لأسترق السمع. كانت آنّا مثلي قد اعتراها الفضول، فتلكأتْ في الرواق. وضعتُ إصبعي على شفتي ونظرت إليها نظرةً تعني:

- لن أشي بكِ ما لم تشي بي.

تحدث سيرجي بسرعة وحماس، قائلًا:

- إنه أمر رائع. منتهى الإثارة يمكنك أن تشعر بها بوضوح، فالغرباء يعانقون بعضهم بعضًا في الشوارع، والناس يبتسمون كما لو كانوا لم يبتسموا منذ سنين.

فقال أبي:

- لا أرى ما يستدعي الابتسام.. أهي الفوضى؟

- الأمل.

بدا الاعتراض على أمي، كما لو قال شيئًا سخيفًا، فسألته:

- الأمل في ماذا؟

- في إنهاء هذه الحرب اللعينة، على الأقل، فما الذي جلبته لبلادنا غير المزيد من البؤس؟

فرد أبي مُحذِّرًا، ولم يكن عليَّ أن أراه لأتخيل وجهه مقطبًا حاجبيه ساخطًا قد كست خديه حُمرة الغضب:

- يوجد رجال شجعان في الحرب، يقاتلون من أجل بلادنا.

فقال سيرجي:

- نعم، رجال كفاسيلي. حتى فاسيلي قد كفَّ عن التظاهر بأن فيما يفعله أي شيء من النبل.

ساد صمت ثقيل وطويل، ولاحت لي زيارة أخي الأخيرة. لم يكن فاسيلي يتساءل عن جدوى مهمته من قبل، فهو جندي بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ولكن في زيارته تلك كان صريحًا في التعبير عن الأحوال على الجبهة، فالرجال برفقته لم يكونوا سوى فلاحين انخرطوا في الحرب بأحذية مصنوعة من ألحية الشجر، وتقدم زملاؤه من الضباط، يائسين، بطلب المدد مرات ومرات، ولكنه لم يأتِ قط، ولم يحصلوا إلا على جواب واحد: عليكم أن تجردوا جثث رفاقكم المذبوحين مما عليها طلبًا للمؤونة. قالت أمي حينها إن معطفه كان عارًا؛ فقد كان باهتًا استوطنه الطين وتشقق من كل جانب، ولكن فاسيلي رفض أن يُصنَع له واحدٌ جديدٌ، فما كان له أن يعود إلى رجاله بزي جديد وأكثرهم يرتدي الأثمال. وفي الليلة السابقة على سفره أصلحت أمي معطفه بنفسها، ناسجةً حبها في كل غُرزة تصنعها.

قال سيرجي بهدوء:

- لقد مر عامان ونصف ولسنا أقرب إلى النصر قيد أنملة عما كنا في بداية الحرب.

يرى أبي وفاسيلي أن روسيا هي أعظم إمبراطورية على الأرض وجيشها أعظم جيش. كان الجميع يشتكون من الحرب، ولكن لم أكن قد سمعت أي أحد يعترف بأنه من الممكن أن نخسر. قال أبي بنبرة فارس يسلم سيفه:

- سيرجي.. يمكننا أن نتجادل بهذا الأمر لساعات طويلة. تمامًا كما كنا نفعل فيما مضى. ولكن حتى أنت لا يمكنك إلا أن تُقِر أنه لا يمكن إنجاز

أي شيء قبل استعادة النظام. ما الذي يجري الآن لسحب مثيري الرعاع هؤلاء من الشوارع؟

فأجاب سيرجي، وكان من السهل عليَّ أن أتخيل من الطريقة التي تكلم بها أنه كان يبتسم، قائلًا:

- سؤال ممتاز! لقد غادر القيصر ووزراؤه القصرَ، وتوجد دعوات تطالبه بالتنازل عن العرش. وهذا يترك المسؤولية على عاتق الدوما، على ما أظن، ولكن زعماء المجموعات العمالية يريدون أن يكون لنقاباتهم كلمة. والحديث يدور الآن عن جمعية دستورية وانتخابات، ألا ترى؟ أخيرًا سيكون للناس صوت مسموع. تمامًا كما هو الأمر في معشوقتك إنجلترا.

فتنحنح أبي، قائلًا:

- الناس؟ هذه كلمة شديدة الغموض.

- شئنا أم أبينا، فإن الأمور تتغير، وعلى ذكر تغير الأمور قد وضعتُ شريطًا أحمر على الباب الأمامي.

فسألته أمي عن السبب فأجاب:

- إنه رمز الثورة، ومهما كانت ميولكم الخاصة فلا ضرر في إبداء الدعم.

فقال أبي:

- وستطلب مني أن أسير مرتديًا ملابس الفلاحين.

فرد سيرجي:

- ما كان هذا ليخطر لي ولو في أحلامي، ستظل مرتديًا سترتك وربطة عنقك حتى يوم موتك.

وفيما تلا زيارة سيرجي من أيام تعلمنا أن ننتبه لأي طرقة على الباب. أخبر سيرجي أبي أن فِرَقًا من الهاربين من الجيش يجوبون المدينة، رجالًا يحملون أسلحةً، ولكنَّهم لا يحملون ولاءً واضحًا. وإلى أن تستعيد الشرطة زمامَ الأمور.. فمن الحكمة أن يبقى المرء في داره. أمر أبي أيفان العجوز ألا

يسمح لأي غريب بالدخول، ولكن لم يأتِ أحد إلى زيارتنا لأيام، سوى قليل من الخدم من المنازل المجاورة، أتوا لاستطلاع الأخبار. لم يكن لدينا ما ننقله إليهم. وبعد أسبوع سمعنا طرقات عنيفةً على الباب الأمامي.

كنت ألعب مع أبي الكوتشينة بعدما تناولنا العشاء، فطرحنا الأوراق وهُرِعنا إلى الردهة الأمامية. خرج صوت من بين ضجيج الصياح صارخًا:

- افتحوا الباب!

خرجت أمي مسرعةً من غرفة الجلوس وألقاني أبي من بين ذراعيها، وهو يحثني على الذهاب إليها. جاء أيفان العجوز يمشي متثاقلًا ولكن أبي أشار إليه بالابتعاد. وفي حين ضغطت أمي على ظهري وهي تدفعني في اتجاه السلم للدور العلوي، سمعتُ صيحات أصواتٍ عالية لبعض الرجال، وقعقعة أحذية على الأرضية. وعندما وصلت إلى الدور العلوي اتجهت إلى غرفتي، ولكن أمي جرتني إلى غرفة نومها، ومن ثم إلى الحمام المجاور للغرفة، وأمرتني أن أمكث هناك، وأغلقت الباب خلفها. أخذت يداي وقدماي ترتعشان، وكنت واعية لكل نَفَس من أنفاسي اللاهثة. سمعت صرير أدراجٍ وأمي تجوب غرفة النوم، ثم دوَّت الأقدام كالرعد على السلالم. سمعت أبي يتكلم، ثم أمي، ثم انفتح الباب. وقف أبي في مدخل الباب، مبتسمًا ابتسامةً حزينة، ونظر إليَّ نظرةَ من يقول: «أعلم أن الأمر ليس به ما يدعو للضحك، ولكن سايريني». ثم قال لي:

- إنهم يفتشون البيت من أجل السلاح. لقد أخبرتهم أنه ليس لدينا أسلحة، ولكن هؤلاء الجنود يصرون على التأكد من ذلك.

ثم لفَّ ذراعه حول خصري، وضغط بأصابعه على بطني يحاول أن يشجعني، وقال:

- كما ترون يا أصدقائي، لا شيء هنا إلا الحمام، وابنتي ناديا.

راح نصف دستة من الرجال في زي عسكري قذر يدورون في غرفة أبي وهم يقلبون الملاءات ويفتشون أدراج المكتب. رائحتهم بشعة كاعتدائهم؛ ما جعلني أريد أن أغطي وجهي، ولكني كنت أذكى من أن أقوم بمثل هذا الفعل.

وقفت أمي عند الناحية الأخرى من السرير، عاقدةً ذراعيها بشدة على صدرها، كما لو كانت لا تهاب الموقف. اقترب مني جندي عندما رآني أنظر إليه، يبدو أنه قائد المجموعة، أمال وجهه نحوي حتى رأيت ندبةً استطالت من عظْمة خده إلى ذقنه. لم يسبق لي قط أن نظرَ إليَّ أحدٌ بهذا الاحتقار. قلت لنفسي، مذعورةً: «ما ذنبي؟». ضمَّني أبي إليه ضمَّة شديدةً تكفي لتذكرني أني واحدة من آل شولكين، وما يكون لي أن يظهر عليَّ الشعور بالخوف.

سحب أحد الرجال سكينًا وشرع في تقطيع مرتبة السرير، وأخذ الجنود يركلون الملابس صانعين منها أكوامًا، ويمزقون الوسائد، مطلقين سحبًا من الريش، ثم أدركت وأنا أشاهدهم يتقافزون كأطفال مشاكسين أن معظمهم لم يكونوا أكبر مني بكثير. قال أبي بابتسامة متساهلة:

- هل أرضيتم أنفسكم بنظرة على ملابسي الداخلية؟ هل لكم في شراب على شرف رجالنا المحاربين الشجعان، فأنا لعلمكم لديَّ ابن في الجيش، في الفرقة الرابعة/خيالة.

فردَّ الرجل صاحب الندبة ساخرًا:

- هذا جيد له!

ولكن أبي ظل يشير إلى بقية الجنود بيديه يحثهم على تناول الشراب.

- هلموا! إلى غرفة الطعام! لديَّ بعض زجاجات الشمبانيا الرائعة كنت أدخرها لحين حلول مناسبة خاصة. سنشرب نخبًا للثورة، ولنأكل شيئًا أيضًا، ما رأيكم؟

أفلح الوعد بتقديم الطعام في إغراء الجميع بالخروج، حتى صاحب الندبة، وعندما ذهبوا، ألقت أمي بنفسها عليَّ واحتضنتني بشدة، وأخذت تتلو صلوات الشكر. كان في هذا العناق شيء غريب، فقد كان حضن أمي يبدو مليئًا بالنتوءات، ولم أعرف السبب إلا بعد أن تركتني. بابتسامة سريعة من الرضى عن النفس، فتحت أمي ثوبها من أعلى لتريني العقود والخواتم التي خبأتها داخل ثوبها. ظللنا ننتظر في هذه الغرفة المحطمة لساعتين حتى نادانا أبي، لقد نجح بمزيج من السحر والرشوة في أن يقنع الرجال بالرحيل.

- ليسوا إلا أولادًا صغارًا، الجنود الصغار يحتاجون إلى الانضباط، سواء أقرّوا بذلك أم لم يُقروا، وما إن أثبتُّ لهم أنه ليس لديَّ ما أخفيه حتى انصاعوا للنظام.

حتى قائدُهم لانَ في آخر الأمر عندما انتحى به أبي جانبًا ودسَّ له ملء كفه مالًا. أخبرنا أبي أننا لن نواجه المزيد من المتاعب، ولكنه استأجر حراسًا مسلحين على سبيل التحوُّط. وبمرور الوقت عدنا إلى حياتنا العادية، فعادت أمي إلى جولتها الأسبوعية من الزيارات، وفتحت مدرستي أبوابها من جديد في منتصف شهر مارس. وفي المدرسة سمعت بما حدث عندما كنت مخبوءةً في المنزل. لقد أُطلقت النار على رجال الشرطة، وعلى الحراس الإمبراطوريين، وعلى كل من كان يمكن أن ينطبق عليه وصف أنه «رجل من رجال القيصر» فور رؤيته. وأُلقيت جثثهم في الشوارع لتبقى هناك لأيام طويلة. كما قُتل أميرٌ في منزله بعد أن قاومَ التفتيش على يد من أسموا أنفسهم بالثوريين، ولكن لا أحد ممن أعرفهم قُتل أو حتى جُرح. كان العنف مرعبًا، ولكن لم يدُم طويلًا.

ومع ذوبان الثلج وعندما بدأ ضوء الشمس يقتحم ضباب بيتروجراد العنيد، بدا كما لو أن أسوأ ما في الأمر قد مرّ. حتى أبي رضيَ بتنازل القيصر عن عرشه وأقنع نفسه أن الوقت قد حان لبداية جديدة. ولكن في وجود عشرات من المجموعات تتنازع السيطرة على مجريات الأمور، كان مستحيلًا على أي فصيل أن ينجز شيئًا، وسرعان ما تعبتُ من جدالات أبي وخالي في الأمور السياسية. وعندما كان السائق يوصلني إلى المدرسة بسيارتنا المرسيدس، أو في عودتنا، كنا نمر ببعض المباني التي أتلفتها طلقات النيران. وبخلاف ذلك، كانت المدينة تبدو على حالها القديم.

في أواخر شهر مايو، بدأ الخدم يحزمون الحقائب للذهاب إلى الريف. سمعت قصصًا عن بعض المشكلات في الضياع الكبيرة، ووفقًا للنمّامة الأكبر في مدرستي، كان الفلاحون المهتاجون يسيرون عبر الأراضي، حاملين المذاري، يقتلون أسيادهم ويعلقون رؤوسهم على الرماح. ذكرتُ هذه القصة على العشاء، لا لتصديقي لها ولكن لأني أريد أن أطمئن، فرد أبي ساخرًا:

- هذا كلام سخيف، كل ما في الأمر أن الاشتراكيين يذيعون مثل تلك القصص ليخرجونا من بيوتنا بالرعب.

فردت أمي:

- ليست كلها شائعات.

سألها أبي:

- أتقصدين عائلة جوليتسكي؟

والتفت إليَّ:

- لقد نال ما يستحقه، كان الأمير جوليتسكي رجلًا فظًّا مستبِدًّا، يتباهى بجلد خدمه بنفسه. لا يدهشني إطلاقًا أن واحدًا منهم استغلَّ هذه الاضطرابات ليقتله.

فقالت أمي:

- لقد قتله أكثر من واحد، طعنوه في صدره وأحرقوا منزله وهو بداخله.

فردَّ أبي:

- كفاكِ تخويفًا لناديا.

ونظر إلى أمي بسخط جعلها تحمر خجلًا، ثم التفت أبي إليَّ قائلًا:

- بالفعل هناك قليل من الحوادث، ولكن لا فرق هنا أو في موسكو. على الأقل فنحن في الريف بعيدون عن جميع هؤلاء المتطرفين.

ثم قال:

- وصل إليَّ خطاب من يوري أمس، وهو يقول إنه لم يرَ ما يدل على وجود أي مشكلات.

وعند ظهيرة يوم وصولنا إلى الريف، كانت إلينا واقفة عند الباب تحمل طبقًا من خبز الزنجبيل، انقضضت عليه فورًا، في حين كانت أمي تشرف على إفراغ الحقائب. خرج أبي ليتفقّد الضيعة مع يوري، وعندما عاد كنت أنا وأمي نقرأُ في الغرفة الأمامية، كل منا على ناحية من الأريكة. قال أبي:

- كل شيء كما ينبغي أن يكون. لا داعيَ للقلق.

هزت أمي رأسها ببطء، تأدبًا لا موافقةً. كانت تبدو أكثر شحوبًا من المعتاد، ولم تكن قد أتعبت نفسها بتغيير ملابس السفر. لعلها كانت مثلي قد ثقُلت عليها كآبة المنزل وهو شبه خالٍ من الناس. كم كان مختلفًا عن صيف عام 1914 عندما كانت كل غرفة تضج بالضحك والاعترافات الهامسة. تذكَّرتُ الآنسة فيلدز وشعرت بغصة لفقدانها. لم تكتب لي قط ولا أخبرتني لماذا رحلت.

قال أبي:

- لقد سأل يوري بالفعل عن إصلاحات الأرض.

لم أدرِ عما كان يتحدث، ولكنْ فجأةً بدت أمي أكثر اهتمامًا.

- أخبرته أني لا أعرف أكثر مما يعرف هوَ، وأن علينا أن ننتظر إلى أن يجتمع المجلس في الخريف. ولكن ليس عندي شك في أن الأمور ستتغير.

ثم لان صوت أبي متحولًا إلى تلك النبرة التي يتكلم بها عندما تعاني أمي نوبةً من نوبات الصداع، وقال:

- أعتقد أنه سيكون علينا أن نقسِّم العزبة.

ولكن أمي احتجَّت قائلةً:

- ولكننا بالفعل ليس لدينا إلا القليل من الأرض. ليست أرضنا بشيء إلى جوار أراضي أبناء عمك.

ولكن أبي ردَّ بقوله:

- ولكن، مقارنة بسائر الناس، لدينا أكثر بكثير مما نحتاج. لا أدري ماذا سيحدث، ولكن أريدك أن تكوني مستعدة.

فقالت أمي:

- أنت لا تختلف عن سيرجي، هل تعتقد حقًّا أننا لسنا أفضل من الفلاحين؟

فقال أبي:

- لقد تنازل القيصر عن العرش لأن سيرجي كان مُحقًّا، والناس يريدون نهاية للحرب وفرصة ليحيوا حياةً كريمةً، وواجبنا الآن أن نرضخ للواقع بما يحفظ كرامتنا. لِمَ لا أعطي رجلًا طيبًا مثل يوري قطعة أرض لتكون باسمه؟ أليس هذا ثمنًا عادلًا لسنوات من الخدمة؟

أخفضت أمي من نظرتها وقالت:

- طبعًا.. ليس ذلك ما أعني.

عادةً، لم أكن لأقاطع محادثةً بين الكبار، ولكن أمي بدت في غاية الحزن وأبي في غاية الجدية، وكانت بريالكو ملجئي وملاذي تهددها الشكوك نفسها التي كانت تطاردنا في بيتروجراد. لم يكن هذا عدلًا. قلت لهم:

- ألا تقول أمي دومًا: لا حديث في السياسة في أثناء الصيف؟ فلنمثل مسرحية بدلًا من ذلك، يمكننا أن نُخرج ملابس التمثيل من ذلك الصندوق في خزانة الملابس الصفراء في حجرة النوم...

ولكن أمي قاطعتني معتذرةً بقولها:

- لا رغبة لي في ذلك.

فردَّ أبي بقوله:

- آه، يا كاتنكا.

كم كان غريبًا أن أسمع هذا الاسم الطفولي على لسان أبي. لم يكن قد ناداها بهذا الاسم أمامي من قبل. لم ترفع أمي نظرها عن حجرها، ولم يتحرك أبي من مقعده، ولكني ما زلت أتذكر بدقة كيف كانا يبدوان، أتذكر شكلهما بوضوح أكبر مما أتذكر شجاراتهما مهما كان عددها. لقد تمسكت بهذه الصورة واتخذتها دليلًا على أنهما في أعمق أعماقهما كانا يحبان بعضهما بعضًا.

كانت أمي تجتهد لتبدو سعيدةً على العشاء في تلك الليلة ونحن نناقش خططنا لما تبقى من الصيف. سيأتي فاسيلي في إجازة بيونيو، وستكون تلك أول مرة يأتي فيها إلى المنزل منذ سنة تقريبًا. لم تكن أسرتنا دونه تبدو سليمةً قط، بل كانت كمنضدة تقوم على ثلاث أرجل لا أربع. كنت أومن

أن عودة فاسيلي ستخرجنا من حزننا، ولكن حتى تحين عودته فلديَّ بضعة أسابيع أشغل نفسي فيها، غالبًا بمفردي. أمضيت وقتي في القراءة، ولعبت عددًا لا نهائيًّا من أدوار السوليتير، أخذت أتسكع في المطبخ، وكنت أزعج «إلينا» إلى أن تعطيني فتات ما تبقى من العجين أو شرائح التفاح المرشوشة بالقرفة. في أكثر الأيام كنت أتجول في الغابة أو في الحقول بعد الظهيرة. وكان هناك قليل من الحوادث التي رأيتها غريبةً رغم أني لم أفهم أهميتها في ذلك الوقت. فذات مرة وأنا على النهر أزحلق الحجارة على سطح الماء رأيت فتاتين قرويتين تغسلان ثيابهما على النهر. لم تتعجلا إنجاز العمل وإنهائه والابتعاد عن ناظريّ بأسرع ما يمكنهما كما اعتدت، ولم تُظهرا احترامهما لي بالمبالغة في الانحناء، بل حدقتا إليَّ مباشرة، بغير خوف، واقفتين وقفة منتصبةً أرسلت لي رسالةً سرعان ما فهمتها؛ نحن مثلك تمامًا لنا الحق في المكوث في هذا المكان.

وذات ظهيرة أخرى كنت أقطف الزهور البرية، ولاحظت أن الحقول خالية بغرابة، فلا رجال يقتحمون الوحل ولا ثيران مجهدة تمشي بجانبهم. لم أسمع غير أصوات الطيور المغردة. هل كان يوم إجازة دينية قد نسيته؟ فأهل الريف كانوا أكثر تدينًا من والديَّ، فقلت لنفسي لعلهم جميعًا في الكنيسة. لم أفكر في أن أسأل حتى عدت إلى المنزل وأنا أحمل من الزهور ما يكفي لملء ثلاث مزهريات.

وبينما حبس الموقف السياسي -غيرُ المستقر- بعضَ العائلات في بتروجراد، كان معظم أصحاب الضياع المحيطة بضيعتنا يمضون قدُمًا في خططهم الصيفية المعتادة. ولكن لم يكن هناك حفلات ولا نُزَه، فالكل منشغل بحاله. وعندما تسلَّمت أمي خطابًا من آل نيدرهوف، أقرب جيراننا، يعلموننا أنهم على وشك الوصول، لوَّحت لي بالخطاب مبتسمةً بحيويتها المعهودة. ثم قالت:

- أشعر كأننا لم نرَ أحدًا منذ أزمان بعيدة، أليس كذلك؟ فلنُعِدَّ لهم مفاجأة؛ سنذهب إليهم غدًا وسأجعل «إلينا» تصنع حلوى للأطفال.

عندما ذهبنا إليهم في اليوم التالي، أدهشني أن تفتح لنا السيدة نيدرهوف البيت بنفسها.

- إيكاترينا، ناديا، حمدًا لله أنكم هنا.

كانت السيدة نيدرهوف شديدة العصبية في أحسن أحوالها، وكان هذا يظهر واضحًا في صوتها، ولكن في هذا اليوم كانت تبدو ضعيفةً جدًّا. ثم قالت:

- الخدم مُضرِبون.. أتصدقين هذا؟ لقد عبر إلى رؤوسهم كل الهراء المكتوب في المنشورات.

فسألتها أمي:

- أي منشورات؟

- كيف لم تريها ومثيرو المشكلات الفوضويون يوزعونها في كل مكان، طالبين من الفلاحين أن يقاوموا مضطهديهم. يدعوننا مضطهدين!

جلست بنتاها -واحدة في العاشرة والأخرى في الثامنة- في الغرفة الأمامية ترتديان ثياب البحّارة، وقد عقصت كل منهما شعرها على هيئة ذيل الفرس وربطته بشريط أزرق داكن. وسمعتُ صوت أخويهما الصغيرين يعدوان في الحجرة المجاورة، مستغلين عدم انتباه أمهما. كنتُ معتادةً أن تجري البنتان إليَّ وتطلبان مني أن ألعب معهما، لكن اليوم لم يصدر عنهما إلا نظراتُ يعلوها الحزن. تابعت السيدة نيدرهوف حديثها:

- يرفضون جميعًا أن يعملوا، هنا أو في المزرعة، حتى مدبر المنزل الذي كنت أظنه أوفى من كلب عجوز. وها هم يعدون قائمة بمطالبهم، وسوف يقدمونها للسيد نيدرهوف عندما يصل يوم الجمعة. فماذا سأفعل حتى يحدث ذلك؟ هل أُعِدُّ الطعام كله بنفسي؟ وبماذا؟ إنهم يقطفون كل ما في الحديقة ويأخذونه! أحتاج إلى أن أخبر زوجي، ولكن لا يمكنني الوصول إلى المدينة لأرسل إليه برقية؛ فالسائق مضرب أيضًا، وأخشى أن يتهمني زوجي بأني أتصرف بجنون وألّا يفهم إلى أي درجة من البشاعة قد وصلت الأحوال هنا.

فربتت أمي على ذراع السيدة نيدرهوف، وطلبت منها أن تكف عن الحديث، وقالت:

- سأذهب إلى المنزل وأخبر أنتون، يمكنه أن يأتي ويرتب كل شيء.

ردت السيدة نيدرهوف:

- سأكون في منتهى الامتنان لهذا. ألم تحدث أي مشكلات في قصركم؟

هزت أمي رأسها نفيًا، وقالت:

- الأمور كما هو معتاد.

ثم أزاحت السيدة نيدرهوف شعرها عن وجهها إلى الوراء في حركة تشي بالتحدي قائلة:

- أعرف لماذا يفعلون ذلك. نحن عائلة ألمانية، فمن سيقف إلى جانبنا؟

أصدرت أمي همهمة لتبدي اعتراضها على كلامها، ولكن السيدة نيدرهوف هزت رأسها، قائلة:

- مهما فعلنا، فنحن العدو.

كانت الحرب قد صعَّبت الأمور لمثل عائلات نيدرهوف، تلك العائلات التي كانت أسماؤها تفضح أصولها الأجنبية. أعرف أن السيدة نيدرهوف وُلدت في موسكو، فقد كانت حريصة على إخبار الجميع بهذا، ولكنّ والديها كانا قد هاجرا من ألمانيا، وكذلك والدي زوجها. وبالنظر إلى الفظائع التي كنا قد سمعنا عنها منذ أعلنت الحرب، هل كان من العجيب أن يشكك الناس في ولاء عائلة نيدرهوف؟ أتذكر أن السيدة نيدرهوف ذات يوم قالت لأمي إنها تتمنى لو كان ابناها كبيرين بما يكفي ليحاربا فيطهِّرا اسم العائلة من هذه الشكوك.

أخذتُ أبتسم للطفلتين، ولكن بقيَ وجهاهما جامدين كالحجارة. ثم قالت أمي للسيدة:

- لا يمكنكم البقاء هنا، وسط كل ما يجري. لماذا لا تأتون لتمكثوا معنا؟

فردَّت السيدة نيدرهوف:

- كم أنتِ طيبة، هل تعنين هذا حقًّا؟

- بالطبع.. أحضري ما تحتاجين ولنذهب فورًا.

أسرعت السيدةِ نيدرهوف وبناتها في التجهز، وقلت لأمي هامسةً إنه قد لا يمكننا أن نأخذهم جميعًا. فقد جئنا في أصغر عرباتنا المصممة لتَسَع أربعة أفراد فحسب، حيث لم تكن السيارة لتصلح على طرق الريف الموحلة، والآن، وفي وجود كل أفراد أسرة نيدرهوف، أصبحنا سبعة. فقالت أمي:

- يمكن أن يجلس الصغار على حجرنا، فلا يمكن أن نترك أحدًا هنا؛ فهي توشك على الجنون.

في طريقنا إلى المنزل، تذكرت الحقول الخالية من الناس التي كنت قد سرت فيها منذ أيام قليلة. هل أضربَ مزارعونا أيضًا؟ هل يعرف أبي؟ حاولت أن أسأله عندما وصلنا إلى البيت، ولكن أمي والسيدة نيدرهوف استحوذتا على كامل اهتمامه. ثم ذهب أبي بعد لقائهما مباشرةً إلى ناظر ضيعة عائلة نيدرهوف، وطلبت أمي من «إلينا» أن تضاعف العشاء تلك الليلة وأن تعد الغرف للضيوف. عاد أبي في حين كنت أنا وأمي نساعد في إعداد مكان لإقامة الأطفال في الدور العلوي.

عندما نزلنا، اصطحب أبي أمي والسيدة نيدرهوف إلى غرفة الجلوس، فتبعتهما بعدها بقليل وجلست إلى منضدة بجوار النافذة، أكملتُ بغير اهتمام رسمةً كنت قد شرعت فيها ولم أُنهِها. كان جليًّا أني أتيت من أجل استراق السمع، ولكن أبي لم يعترض، لعله رأى أني قد كبرت بما يكفي لأسمع الحقيقة. بدا وجه أبي مستسلمًا وهو يخاطب السيدة نيدرهوف، قائلًا:

- للأسف لم أستطع فعل أي شيء؛ فقد أتى رجل من بتروجراد، ناشط عمالي، وأقنع الجميع أن الضيعة ملك لهم.

فردت السيدة نيدرهوف، متعجبةً:

- ناشط! بل مجرم يشجع الآخرين على السرقة! يجب أن نجده وأن يقبض عليه، وسيضع هذا حدًّا للأمر.

فسألها أبي:

- ومن سيقبض عليه؟ شرطة القيصر؟ في الحقيقة لم يعد هناك رجال شرطة. لا يوجد في بتروجراد أي منهم، وبالتأكيد ليس هنا. وإذا عارض أحدٌ إرادة الناس، فلا معنى لهذا إلا أنه يبحث عن المتاعب.

فسألَته:

- إرادة الناس؟ أي ناس؟

- للأسف لسنا المقصودين، ولقد رتبت الأمور لإرسال السائق ليأتي ببقية أمتعتك غدًا في الصباح، وبعدها يمكنك أن تستقلّي القطار المسائي وتعودي إلى المدينة.

- سأذهب معه، فسائقكِ لن يعرف ما يجب أن يُحزم من الأمتعة...

فقاطعها أبي، قائلًا:

- لا، فلن يكون هذا آمنًا.

رأيت غضب السيدة نيدرهوف وهو يتلاشى. صمتت متألمةً لقليل ثم قامت، وقالت:

- شكرًا.. اسمح لي فقد كان يومًا طويلًا.

نهضت أمي، وسألتها إذا ما كان يوجد ما تساعدها به من شيء، ولكن السيدة نيدرهوف مضت في طريقها. ثم ألقت أمي بنفسها على الأريكة إلى جوار أبي، وسألته بلطف:

- هل كان الأمر بالغ الفظاعة؟

- لقد كانت مطالبهم واضحةً جدًّا، وقد قيل لهم إن الأرض ملكٌ لمن يُصلحها. حاولت أن أخبر الناظر أنه لا يوجد قانون بهذا الشكل، ولكن لكِ أن تتخيلي إلى أي مدى أخذني هذا القول. لم يكن وقحًا، ليس تمامًا، ولكنه لم يبالِ بما قلت، كأني لم أقل شيئًا بالمرة. وعلمت أن ابنه مات على الجبهة وابن أخيه كذلك، وأدى ذلك إلى المعتاد من نظريات المؤامرة الغبية بشأن الجواسيس الألمان. لقد خسرت عائلة نيدرهوف ولاء عُمالها، ولا يوجد ما يمكن فعله لإصلاح هذا الأمر.

أبدت أمي اعتراضها، ولكن في غير سخطها المعتاد.

ناداني أبي فاقتربت من الأريكة بحذر وأنا أتوقع أن يصرفني بعيدًا، ولكنه مد يده إلى يدي وأمسكها وقربني منه، حتى وجدت نفسي أجلس بينه وبين أمي، وقال لي:

- لا أريدكِ أن تقلقي، سنحل الأمور مع عمالنا بهدوء وعدل، ولكن ما دام بقي هؤلاء المهيجون يثيرون المتاعب، فلا أريدكِ أن تخرجي وحدك، خاصة إلى الغابة، فقد لاحظ يوري أن دخانًا يتصاعد منها، ولعلهم نصبوا معسكرًا لهم هناك.

شعرتُ بأمي تتصلب، ولكنها اعتصرت يدي وابتسمت ابتسامة متجهمة. في البداية، شعرت بالاطمئنان لقرب أبي وأمي مني، فها هما يحميانني من المخاطر التي تحدق بنا من كل ناحية. مرت على خاطري تلك الطرق في الغابة التي لم يعد مسموحًا لي برؤيتها ولا التنزه فيها، وتخيلت تلك الساعات المملة التي سأضطر إلى قضائها ظلمًا تحت حماية والديَّ. شعرت بضغط أيديهم على يديَّ وهما يحاولان أن يشدّا من عزمي. شعرتُ بالحرارة المنبعثة من بشرتهم. كان قميصي ملتصقًا على صدري الذي علته قطرات من العرق، وفجأةً شعرت بالغثيان، فسحبت نفسي من بينهما ووقفت، معلنة بأني ذاهبة إلى الفراش. صعدت السلم بخطى ثقيلة وقدماي تشيان بالإحباط الذي لم أتمكن من نسجه بالكلمات. كانت أمي تؤمن بأنه يجب تجاهل نوبات الغضب، فكان أبي هو من طرق بابي بعدها بدقائق قليلة، وسألني إذا ما كنت أريد الحديث. فصحتُ:

- لماذا؟

فرد:

- سينتهي كل شيء على خير، فلا تقلقي.

الكلام نفسه الذي كان يقوله دائمًا منذ أن بدأت الحرب. هل كان حقًّا يؤمن بهذا؟ لم أرد، وبعد صمت ثقيل طويل غادر أبي. غادرت أسرة نيدرهوف ظهر اليوم التالي في مشهد ساد فيه الصراخ والحقائب المكتظة. رافقهم أبي في

القطار العائد إلى بتروجراد، ولم نتوقع أن يعود إلى المنزل قبل المساء. بدا المنزل الهادئ بالأصل أكثر هدوءًا بعد ذهابهم. أخرجت أمي ألوانها المائية ونصبت لوحة الرسم في المدخل الأمامي، وتبعتها إلى هناك بعد قليل من الوقت، واضعةً قطعة كبيرة من القماش على الأرضية وجلست ومعي أقلامي. كنت أنتظر أن تنتقد أمي جلستي أن تقول: «ليس هذا لائقًا بسيدة صغيرة»، واحدة من جملها المفضلة، ولكنها غرقت في إلهاءات الإبداع. شرعتُ في رسم خريطة لأرض خيالية، فإن كنت لا أستطيع أن أتجول في غابتنا فلأخترع واحدة. رسمت خيوطًا على شكل دوامات أخذت تتحول إلى أغصان وجذوع، ثم إلى طرق وجبال وجداول ماء، عالم كامل استحضرته من الحبر. عاد أبي متأخرًا، أخبرنا ونحن نتناول العشاء أن بتروجراد كانت غارقة في ملصقات الثورة، حتى إنه أحضر معه تذكارًا؛ نجمةً حمراء تكسوها كلمة «السلام»، شبكها في سترته.

تنحنحت أمي مبديةً اعتراضها، ولكني وجدت الأمر مضحكًا، من كان ليصدق ذلك، أن يسير الدوق شيلدون في رداء الثوار! قال موجهًا كلامه إلى أمي:

- لقد مررتُ بسيرجي، بدا كمن لم ينَم منذ أيام، والمجلة تبيع ضعف ما كانت تبيعه.

فقالت أمي بجفاف:

- من الجيد أن الثورة نفعت على الأقل واحدًا في هذه الأسرة.

تابع أبي:

- لقد وعد أن يأتي للزيارة عندما يعود فاسيلي.

مسح أبي براحته على خدي، وقال:

- سنحظى بوقت رائع حينها، أليس كذلك؟

أعاد إليَّ صوتُ أبي المبتهج ولمستُه الأملَ. لم يتبقَ إلا أسبوع. ففي وجود فاسيلي ليرافقني سيتسنى لي أن أتجول في الضيعة بحرية، وسيُخرجنا سيرجي بحكاياته المثيرة من أحزاننا. رأيت أمي يشرق وجهها لانتظار

الأمر نفسه، وسرعان ما كان ثلاثتنا يتحدث بشغف عن خططنا المستقبلية، ويتناول كل منا طبقًا ثانيًا من لحم الضأن المطهو على نار هادئة. لم نكن ندري أن حشدًا ما يتقدم ناحية بابنا.

في بتروجراد، طرق الجنود الباب أولًا، ولكن هذه المرة، انفتح الباب الأمامي دون إنذار مرتطمًا بعنف بالحائط المقابل. وثب أبي من مقعده، وهو ما زال يحمل كأس النبيذ. اندفعت جمهرة من الرجال يرتدون ملابس القرويين إلى المنزل بخطى ثقيلة مدوية، وأصوات كعاصفة وشيكة. جرت أمي نحوي وهي تتعثر ولفت ذراعيها حول كتفيّ. تكدست طليعة الحشد في مدخل غرفة الطعام، ثم تدفقوا إلى الداخل. كانوا دستة من الرجال، نظراتهم حادة كالسلاح. أمكنني تمييز بعضهم، رجالٌ من المزرعة، ولكني لا أعرف أسماءهم، لم أجد سببًا قط لأعرف أسماءهم. قال أبي:

- جريجور.

موجها حديثه لأقرب الرجال منه، وتابع:

- ما كل هذا؟

لم يبدُ أبي مختلفًا عما كان يبدو عليه في أحد صالونات بتروجراد وهو يخفف من حدة نزاع بين الأصدقاء. قلت لنفسي، ويدا أمي ترتعشان على صدري: «ستسير الأمور إلى خير».

جريجور صغير الحجم قويُّ البنية، رجل ينظر إليه الآخرون كقائد، فمه يكاد لا يُرى، محجوب تحت لحية سوداء كثة. وكان رده:

- لقد أتينا لنأخذ ما هو ملك لنا.

كنت أسمع أصوات ارتطام ووقع أقدام ثقيلة في الغرفة الأمامية. كان من المستحيل أن نتبين عدد مَن غزوا المنزل. ولمحت طرف تنورة عند المدخل، فقلت لنفسي: «ونساء أيضًا؟». رد أبي على جريجور قائلًا:

- لقد ناقشت كل هذا مع يوري، أين هو؟

فرد جريجور:

- لم يعد يوري مسؤولًا، إذا كانت الأرض أرضنا ففيمَ حاجتنا إلى ناظر؟

- هو عامل، تمامًا كما أنك...

فقاطعه جريجور:

- هو عامل عندك، ليس بأفضل من بقيتنا في شيء.

لم يتغير وجه أبي، ولكن أقلقني صمتُه. نظر إلى أمي نظرة سريعة، وصاح جريجور بغضب:

- أخرجوهم من هنا!

فقام ثلاثة من الرجال بجرّي أنا وأمي إلى الردهة. تكدسنا عند أسفل درابزين السلم، تحمي أمي جسدي بجسدها. وحولنا من كل ناحية راح الغزاة يتبخترون كجيش من النمل الوحشي ملتهمين كل ما يمرون عليه. ثم أقبلت شابة تهبط السلم في أناة، تذكرت وجهها الشاحب العريض، إنها تلك الفلاحة التي رأيتها في الحقول مع فاسيلي منذ ثلاث سنوات. كانت تحمل حزمة من القماش الملفوف. تحمل ملابسي. ومن أحد أطراف الحزمة، تدلت موجة من الحرير الأخضر، وغلا صدري من الغضب. كنتُ قد كبرت على الرداء الذي لبسته في حفل ماريا شولكينا، ولكني ما زلت أحتفظ به في خزانة ملابس المسرح، وكان أجمل فستان عندي. أردت أن أنتزعه من بين يدي هذه الفتاة القذرتين، ولكنّ ذراعي أمي ازدادتا التصاقًا بي لتجبراني على أن أحتفظ بهدوئي. وعندما خرجت المرأة من المنزل، رأيتها ترتدي حذائي الجديد.

من غرفة الطعام، خرج صوت جريجور طاغيًا على كل الضجة، قائلًا:

- أين بنادقكم؟

فقال أبي:

- ليس لديَّ إلا بضعةٌ من بنادق الصيد، في الخزانة إلى جانب المطبخ.

فأسرع أحد الرجال مارًّا بي وبأمي إلى خلفية المنزل، وعاد بعد أقل من دقيقة حاملًا ثلاث بنادق، سلَّم واحدة منها إلى جريجور وواحدةً إلى رجل آخر. سأل جريجور:

- أين البقية؟

- هذا كل ما لديَّ.

- قيل لي إنكم جميعًا أيها الناس تحملون البنادق.. من أجل الحماية.

فقال أبي:

- لم أحتج إلى حماية قط، ليس قبل هذه الليلة.

أخذت أمي تئنّ، وكان هذا عادةً بمنزلة تحذير يسبق انفجارها في البكاء، فتوسلتُ إليها أن تتماسك، فلو انهارت أمي لن يزداد الوضع إلا سوءًا. كان علينا أن نحذوَ حذوَ أبي وأن نظل أقوياء والعاصفة ثائرة من حولنا، فستنقضي في نهاية الأمر. قال أبي:

- هل ذهبتم إلى مخزن النبيذ؟

راح يتقمص دور المضيف الكريم تمامًا كما فعل مع الجنود في بتروجراد، وتابع:

- يوجد نبيذ معتق فاخر، هيّا، تفضلوا.

مر أمامي قطيع من الفلاحين يصيحون ويضربون الأرض بأقدام ثقيلة. وفي كل مكان رأيت مشاهد كانت تبدو مستحيلة؛ فهنا غرباء يعبثون بأوراق أبي، وهناك آثار أقدام موحلة على السجاد الفارسي، رأيت أطفالًا يتسابقون ويضحكون إذ يهش أحدهم على آخر بعكاز أبي. كما شاهدت امرأتين تحملان أكوامًا من أطقم الصيني الخاصة بعائلتنا، ولم يدُر ببالي إلا إفطار اليوم التالي في أي شيء سنتناوله؟ حتى خوف أمي لم يبدُ حقيقيًّا، فبين أنفاسها المجهدة وجسدها المرتعش كانت كممثلة تبالغ في أداء دورها في محاولة للتأثير في جمهور غير مبالٍ. تعالى ضجيج الفلاحين واحتفالهم، وأخذوا يديرون زجاجات النبيذ بينهم ويميلون أعناقها ناحية أفواههم ويضحكون إذا ما سال النبيذ على ذقونهم. وفي أعلى السلم، كان يوجد امرأتان في منتصف العمر ترتديان قبعات أمي وتقف كل واحدة لتُري الأخرى كيف تبدو، كما تفعل البنات حين يُسمح لهن باللهو بثياب أمهاتهن. أما المدخل الأمامي فكان مسرحًا لحركة محمومة، حيث كان الأثاث يُخرَج، في حين كان الوافدون الجدد ممن لم يحظوا بشيء بعدُ يطالبون بنصيبهم. أبي ما زال واقفًا على

رأس المنضدة في غرفة الطعام، أماء إليَّ بأن أتخذ حذري. كان يطمئنني أنه رغم كل شيء لم يكن خائفًا، فرددت الإيماءة بابتسامة. ثم ظهر جريجور أمام أمي متنفسًا بصعوبة، وسألها:

- أين المجوهرات؟

فهزت أمي رأسها، غير قادرة على الكلام.

قد وضعنا أغلى مجوهرات أمي في الكورسيهات وحواشي الثياب الداخلية في اليوم الذي تلا غزوَ منزلنا في بتروجراد، ولكن هذه الأردية الآن مخبأة تحت لوح من ألواح الأرضية في المدينة. شدّ جريجور ذراع أمي بقسوة فندَّت عنها آهةٌ صغيرة.

- لا نُحضر مجوهراتنا معنا إلى الريف.

قلتُ هذا بغير تفكير لأشتت انتباهه لكي يتوقف، فردد جريجور عبارتي مقلدًا لي وساخرًا من نبرتي:

- لا نحضر مجوهراتنا إلى الريف.

وفجأة وجدت أبي يقف بجواري. قال أبي لجريجور:

- هذا صحيح، ولتفتشوا غرفنا إن لم تكونوا قد فعلتم بعد.

تضرعت أمي قائلة:

- أنتون...

فاعتصرتُ يديها وأنا آملُ أن تعي مقصودي:

- من فضلك اهدئي، فأبي يعرف ما ينبغي فعله.

صاح جريجور ودفع أبي بعيدًا، فتعثر في الرجال الواقفين خلفه، الذين كانوا يرتعشون من تأثير النبيذ ومن الغضب والخوف. كان أحدهم يتمايل، وتدافع الآخرون ناحية أبي، وألقته قوة انقضاضتهم على الأرض. غطى أبي وجهه بذراعيه في حين راحت أحذيتهم تطأ جسده في إيقاع من الضربات والنخير يبعث على الغثيان. أجهشت أمي بالبكاء ودفنت وجهها في صدري، ولكني لم أستطع أن أشيح بناظريّ. وانطلقت فورةٌ من الضحك من الغرفة

t.me/yasmeenbook

الأمامية صارفةً انتباه الرجال الذين استداروا ليروا ما يجري. ارتخت ذراعا أبي من الوهن وغطت الدماء وجهه حتى اختفت ملامحه، ولكن صدره لم يزل يتحرك بتردد وألم. لم يزل يتنفس. سيكون بخير. كنت أومن بهذا تمامًا إلى أن رفع جريجور بندقيته وثبتها وأطلق الرصاص على رأس أبي. صرخت أمي ودفعني صوتها إلى التحرك، فجذبت ذراع أمي وهرولت عبر صالة الخدم. لم يكن لديَّ خطة ولا وجهة، ليس إلا خاطر واحد؛ «ابتعدي من هنا». ومن المطبخ سمعت همسًا ينادي:

- هنا!

فأمسكت بأمي، كدُمية بالية، واندفعت تجاه الصوت. أشارت لنا "إلينا" بأن نتبعها. التقطت عيناي صورًا غير واضحة للمطبخ وقد أوشك على الدمار، فأبواب الخزانات محطمة والأدراج أُفرِغت وخزانة الطعام خاوية. كانت عظام الدجاج وبذور التفاح وفتات الطعام متناثرةً على الأرض كما لو أن من التهمها، أيًّا كان، يريد أن يدنس كل بقعة. قادتنا "إلينا" إلى الباب الخلفي، ثم عبرنا حديقة الخضراوات واتجهنا صوب باب خشبي في محاذاة باب مخزن الخضراوات الأرضي. كانت أمي تغمغم بغير وضوح، ولكني لم أحاول أن أتبين ما تقول. رفعت "إلينا" الباب، وكل ما استطعت أن أراه هو قمة سلم خشبي ضيق، كأنه مدخل مقبرة. دفعتني "إلينا" إلى الأمام قائلة:

- سأعود إليكما متى استطعت.

لم يكن لدينا وقت لإحضار مصباح أو شمعة. عندما دخلنا أغلقت "إلينا" الباب خلفنا، فأصبح الظلام دامسًا، وأخذت قدماي ترتعشان وأنا أتحسس طريقي للأسفل في حين مددت ذراعي خلفي لأساعد أمي في المواصلة. ولم أعرف أني وصلت إلى القاع إلا عندما اصطدمت قدماي بالطين. واصلت طريقي وأنا أحاول تحديد الاتجاهات ولكن كلما استدرت اصطدمت ساقاي ببراميل تخزين الطعام، وأخيرًا ارتميت على الأرض منهكةً ويائسةً. تهاوت أمي بجواري، وتمتمت قائلة:

- ماذا سنصنع؟

فقلت في نفسي:

- ماذا سنصنع؟ كان الله في عوني!

وكدت أن أصفعها. لم أكن إلا فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، فأنّى لي أن أجيب عن سؤال كهذا؟ لقد كانت هي الراشدة، والمفترض أن تكون هي من يعتني بي. ولكن غضبي كان كعود ثقاب ما كاد أن يشتعل حتى انطفأ. لطالما كانت أمي امرأة رقيقة، لا تعرف إلا الجمال والبهجة. كنت أنا من أدرك غريزيًّا أنه علينا الهرب. ثم لاحت صورة أبي أمامي للحظة، فرأيت الطلقة والدماء. تخدر عقلي كما تخدر جسدي، فقواه قد استُنفدَت في إبعادي عن المنزل. لقد رأيت الأمر برمته أمامي، ومع ذلك لا يبدو حقيقيًّا، بل مجرد صورة أخرى مستحيلة تُضاف إلى أخواتها. ثم رددت على أمي قائلةً:

- ستأتي "إلينا" بالمساعدة.

كان من الأيسر في الظلام أن أتظاهر بثقةٍ ليس لديَّ منها شيء، فتابعت حديثي:

- كل ما يجب علينا فعله الآن هو أن ننتظر حتى تعود.

يبدو أننا قبعنا هناك ساعات طويلة رغم أن الزمن لم يكن يعني شيئًا في مثل ذلك المكان. استلقينا لبعض الوقت على الأرض تحتضن كل منا صاحبتها كما تفعل صغار القطط. لا أعرف إذا ما كانت أمي قد نامت أم لا، ولكني يقينًا لم أنَم. رحتُ أفكر في أبي وفيما يحدث في بريالكو، أفكر في ذلك وأنا غير قادرة على أن أوقف سيل الذكريات المرعب لكل حدث. عندما رفعت "إلينا" الباب أخيرًا.. كانت السماء تتحول إلى الحُمرة، آذنةً بدخول الفجر. صعدت أنا وأمي إلى الخارج واتجهنا إلى ساحة المطبخ الصامتة. رأيت ثوب أمي المتسخ وشعرها المنكوش فكدت أن أبكي. قالت إلينا:

- أنتم الآن آمنون مؤقتًا.

ثم واصلت كلامها قائلة:

- لقد نام مثيرو الشغب الآن من إرهاق البارحة، ولكن عليكم أن تذهبوا حالًا. سيقلُّكم يوري إلى المحطة. هناك قطار سيغادر خلال ساعة.

t.me/yasmeenbook

- ولكننا نحتاج إلى أن نحضر أشياءنا...

فقاطعت "إلينا" الكلام بهزة سريعة برأسها وتعبيراتها تفصح بجلاء عما لم تكن مستعدةً لقوله بصراحة، وقالت:

- ليس لديكم شيء، لقد ذهب كل شيء.

فقالت أمي وهي تبكي:

- والدوق شيلدون، لا يمكن أن أتركه.

فقالت "إلينا":

- سيعتني به يوري، أعدكِ بهذا.

كما لو كان أبي في حاجة إلى من يعينه في ارتداء ملابسه أو تلميع حذائه. تذكرت جسد أبي، وحيدًا في الردهة، وغلبني الشعور بالقهر.

اتجهت بنا "إلينا" إلى غرفتها، قبالة المطبخ، ثم أحضرت طست ماء لنغتسل، وحثتنا على تناول الخبز رغم أنه لم تكن أيٌّ منا تشعر بالجوع، ثم أخرجت من أسفل فراشها الصندوق الذي تحتفظ فيه بحسابات المنزل وأعطت أمي محفظة المال التي كانت تخفيها هناك. سمعنا أصوات خيل تقترب من الإسطبل، وتفقدت "إلينا" الطريق قبل أن تقودنا إلى الخارج. كان يوري في انتظارنا، وقد لاح وجهه من شدة التعب، دفعت أمي بحفنة من المال في يد "إلينا"، قائلة:

- ندين لكما بحياتنا، نشكر الله على وجودكِ أنت ويوري، لا يمكنني أن أصدق ما فعله الآخرون من عمالنا.

وارتعش صوتها وهي تقول:

- لا أصدق أنهم يكرهوننا إلى هذا الحد.

فقالت إلينا:

- لطالما كان جريجور مزعجًا، أما الآخرون فقد خُدِعوا، ولقّنهم هذا الرجل الأكاذيب.

فقالت أمي:

- أيُّ رجل؟

- رجل جاء هنا من قبل، لقد ظل ينثر الأكاذيب في كل مكان، وقلب رؤوس الجميع بكاذب الوعود.

- لست أفهم، من الرجل الذي كان هنا من قبل؟

- صديق أخيكِ.. هذا الذي يُدعى أليك.

كانت وجوه ضيوفنا الكثيرة قد تلاشت مع الزمن متحولة إلى كتل غير واضحة المعالم، ولكنني تذكرت أليك بوضوح. أليك، هذا الذي كان دائمًا يستمع، دائمًا يراقب. في ذلك الصيف، كان حول أمي أصدقاء جذابون كثر، ولكنها بدت دومًا وكأنها تبحث عن أليك. تابعت إلينا:

- لقد ظل يزور كل الضياع في هذه المنطقة ويطلب من الناس أن يقودوا الثورة بأنفسهم قائلًا لهم إن أملاك جميع النبلاء يجب أن تُصادَر. لم أسمع بذلك إلا الليلة الماضية، من زوجة جريجور، وإلا لكنت حذرتكم.

علت وجه أمي أمارات الرعب، وسألتها:

- أكان أليك هنا؟

فهزت "إلينا" رأسها بالنفي، وقالت:

- لقد غادر قبل أن تبدأ المشكلات، فهذا النوع من الناس لا يعترف أبدًا بمسؤوليته عن المصائب.

فقدت أمي رباطة جأشها، المنهارة أصلًا، بمجرد أن دخلنا إلى العربة. جلست إلى جواري وقد انهارت تمامًا، فلم تستطع حتى أن تبكي، وأصبحت المشاهد التي حيرتني وأنا في الثانية عشرة من عمري أكثر وضوحًا الآن وأنا في الخامسة عشرة. لقد كانت أمي تتغازل مع أليك علانية. وكانت شبه مخبولة به، ولقد استمتع باهتمامها بل وشجعه، وفي أثناء كل هذا كان يسخر من لعبنا ومن نزهنا ومن عشائنا ذي الأصناف الخمسة. لقد رحَّبنا بأليك في عائلتنا، وها هو يرد الجميل بالدم. تدفقت الكراهية في جسدي كريح صيف حارقة.

t.me/yasmeenbook

رحل أبي، ورحلت بريالكو، ولكني كنت منهكةً ومفطورة القلب للدرجة التي منعت غضبي من أن يتجذر. ومن أجل أمي، كان لزامًا عليَّ أن أتحمل كل ما سيعِنُّ من مسؤوليات بائسة. فقد كانت هناك برقيات في حاجة لأن تُرسَل، وجنازة يجب أن يُرتب لها. فستان الحفلات الحريري الأخضر كان علامةً لانتقالي من الطفولة إلى الشباب، ولكن الرحلة إلى خارج بريالكو كانت هي ما نقلني عنوةً إلى مرحلة الرشد، فبعد رحيل أبي وفي غياب فاسيلي في القتال، لم يعد من أحد ليعتني بأمي سواي، فلتخرجي للدنيا بوجه شجاع، أنتِ من آل شولكين. كان في استطاعتي أن أتخيل أبي وهو ينهرني ويحثني على أن تصرف بعَدّي واحدة من آل شولكين، وهكذا بدأ الفصل الثاني من عملية تحولي.

لندن
1938

إلى: مدير جهاز المخابرات السرية

أكدت مصادري في فرنسا الشكوك التي ناقشناها الأسبوع الماضي بشأن "ماري دوفال". وبعد أن قرر خبير الأوراق لدينا أن جواز السفر قد يكون مزورًا بروسيا، استعلمت بمعارفي في جهاز الأمن الفرنسي، وأكد اثنان منهما أن "ماري دوفال" اسم مستعار تستخدمه عميلة سوفيتية، يرمز إليها بـ "السيدة الحمراء". وكانت متورطة في عملية قتل سيئة السمعة (انظر الوثائق الملحقة)، وتعتبر بالغة الخطر. ولا حاجة لذكر أن هذه المعلومات يجب أن تظل سرِّية، ويمكن تخيل الضجة التي يمكن أن تحدث إذا ما عُلِم أن هذه السيدة كان في مقدورها السفر إلى إنجلترا دون أن يكتشفها أحد. أقترح إحراق الجثة ودفنها بأسرع ما يمكن، ولا شك في أنك تعرف من يمكنه تدبير مثل هذه الأمور في سرية تامة.

- روجر

t.me/yasmeenbook

بتروجراد
1917

يمكن أن تُمحى عائلة من الوجود بغتةً، في حريق أو فيضان، أما عائلتنا فقد جاءت نهايتها على شكل سلسلة من الإذلالات والخسائر، بينها وقت كافٍ للتكيف، وللاعتقاد بأن الأسوأ قد ولّى، إلى أن تحل كارثة أخرى. تعلمت أن أُحصِّن نفسي ضد الأمل، فاكتسبت مزيدًا من القوة مع كل ضربة، انتزعتِ المصائبُ نعومتي وبراءتي فلم تترك وراءها إلا الرغبة البدائية في الحياة. كان حالي كحال بلدي، تحطمتُ وولدت من جديد على يد الثورة.

في صيف عام 1917، كنت أحسب أن موت أبي أسوأ ما قد يحدث لي. ولكن في السنين التي أعقبت ذلك اقتُحِمت الكنائس ونُهِب ما فيها وقُتِل القساوسة، فعلمت كم كنا محظوظين أن حظينا بجنازة لائقة وأن تسنى لنا الحداد. أخذ يوري و"إلينا" جسد أبي إلى المدينة، في تابوت صنعه يوري من شجرة قطعها في بريالكو. عرضت أمي عليهما مكانًا معنا في بلجراد، ولكن "إلينا" رفضت بلطف، قائلة:

- لسنا ممن يحبون العيش في المدينة، حيث يكثر الناس ويندر الهواء المنعش، وإن فعلنا فمن يعتني بالمنزل؟

كانت تؤمن حقًّا أننا سنعود يومًا ما. أخذ الفلاحون يعقدون «تجمعات مزارعين»، أيًّا كان ما يعنيه ذلك، ولكن "إلينا" قالت إنه لم يكن هناك مزيد من المشكلات، وإنه لم يعترض أحد على بقائها هي ويوري في مسكنهم. وتواصلت الأنشطة المعتادة، كانت الزراعة المبكرة قد بدأت، والدجاج يضع من البيض ما لم يضعه من قبل. لم يمضِ إلا أسبوع على قتل أبي، ويبدو أن الحياة استمرت بلا تغيير على الإطلاق. ومن معرفتي بـ "إلينا"، وكم كانت

تُقدِّر المنزل، يمكنني أن أخمن أنها هي من مسحت دماء أبي، مع أني لم أشأ أن أسألها، فلا بد أن الأمر كان شاقًّا بما يكفي.

استطاع فاسيلي أن يُعجِّل إجازته ليحضر جنازة أبي، وكان السند لأمي في الأيام التالية. موت فاسيلي هو ما هيأت له أمي نفسها منذ بداية الحرب، ومرت أوقات لم تكن تصدق أن ابنها ما زال حيًّا وزوجها هو من مات، فتقول: «من يصدق هذا؟» بصوت حزين يتبعه هزة من رأسها. بذل فاسيلي ما في وسعه ليقوم بدوره كربٍّ للأسرة. كان قد حصل على ترقية وزيٍّ جديد، وحين راح يستقبل الضيوف في العزاء بدا حقًّا ضابطًا روسيًّا شديد العزم. قصَّر شعره للغاية، ويقول إن الجميع يفعلون ذلك للقضاء على القمل، ووجهه صار أكثر نحافة، إلا أنه ظل لافتًا للنظر بدرجة كبيرة. أفسح فاسيلي وقتًا ليتحدث مع الجميع متماسكًا رابط الجأش. لا يمكن أن يلحظ علامات الإرهاق عليه إلا شخص مثلي يعرفه كما يعرف نفسه، من انطفاء عينيه متى خلا بنفسه، أو من نبرة الحزن في صوته عندما يتكلم عن أبي، يداه متشققتان قد تغير لونهما في دليل ساطع على صعوبة الحياة العسكرية، وعادةً ما يبقيهما مضمومتين خلف ظهره أو غائصتين في جيبه.

لم تكن أمي قد أخبرته إلا نزرًا يسيرًا عما حدث في بريالكو، وأخبرها ألا تزعج نفسها بالكلام عن هذا الأمر، ولكني أردتُ أن يعرف الحقيقة على أمل أن يغفر لي نجاتي في حين لم ينجُ أبي. في ليلة الجنازة، بعد أن أودعتُ أمي فراشها، نزلت إلى الطابق الأرضي ورأيت فاسيلي يجلس بجوار المدفأة في الردهة الأمامية، على الكرسي ذاته ذي الذراعين، الذي كان أبي يجلس عليه دومًا. وبدا بأكمام قميصه المشمرة وأرجله الممددة كأخي الذي أذكره من سنوات مضت، ذلك الأخ الذي تتغلب ثقته بنفسه على كل الصعاب. وقفتُ في المدخل وسألت نفسي إذا ما كان يريد أن يختلي بنفسه.

- لقد حسبتُ أنك نمتِ، هل أمي بخير؟

هززت كتفيَّ. أعطاها الطبيب شيئًا ليعينها على النوم وأقنعَتها آنّا أن تأخذه، ورفضت الذهاب إلى الفراش حتى جلست آنّا على كرسي بجوار الباب، تحرسه.

t.me/yasmeenbook

قلت له:

- إنها تخشى أن تبقى وحدها.. بعد تلك الليلة.

فأمال فاسيلي رأسه مشيرًا إليَّ أن أدنو منه، ثم قال:

- بإمكانكِ إخباري، إن شئتِ.

سرتُ صوب المدفأة وقعدت على السجادة عند قدميه ثانيةً ساقيَّ تحت تنورتي، تمامًا كما كنت أجلس مع أبي، وقلت:

- أطلقوا النار عليه أمام أعيننا، شاهدته بعيني وهو يموت.

وبمجرد أن انطلقت تلك الكلمات، انسالت البقية تترى، فأخبرت فاسيلي كيف بدا الأمر ومنزلنا يُقتحَم، كيف كان الحال وأنا أشاهد تدنيس مكان أحبَّه كلانا. لقد كانت هناك فتاة مرت من أمامي وهي تحمل حفنة من ملابسي، بلا أي شعور بالخجل. «تلك الفتاة التي كنتَ تضاجعها»، هكذا قلت لنفسي، وما كنتُ لأذكر هذا له أبدًا. وتابعت:

- إني لا أعرف حتى اسمها ولكني أعرفها، بجسدها الضخم وبوجه من تلك الأوجه التي كأن العبوس لا يفارقها أبدًا.

لم يُبدِ فاسيلي لكلامي هذا أي اهتمام زائد، ولكنه طالما أتقنَ كتمان الأسرار. كم مرةً قابل فيها تلك الفتاة؟ لم أرَ أي علامات إغراء بينهما، ناهيك بالحب، ولكن أي خيار كان لديها؟ فقال فاسيلي:

- لا تخبري أمي، ولكن هؤلاء الاشتراكيين والبلاشفة يثيرون القلاقل في الجيش أيضًا، يشكلون لجانًا ويخبرون الجنود أنه يجب عليهم ألّا يُحيّوا قادتهم. هل من المفترض أن نعقد اجتماعًا ونُصوِّت قبل كل هجوم؟ هذا جنون. حتى إن بعض الضباط قتلهم جنودٌ تحت إمرتهم. لم يحدث هذا في وحدتي ولكن سمعنا قصصًا عنه. يقولون: «الحرب يجب أن تتوقف بسرعة، إلى متى يمكن أن تمتد؟».

ثم حاول فاسيلي أن يضحك، وقال:

- كما لو كنت أستطيع أن أجيب سؤالًا كهذا! لقد حققنا بعض النجاحات، ولو سألتِني منذ أشهر قليلة، لقلت لك إن الأمور تبدو أفضل مما كانت

عليه لمدة طويلة قبلها، ولكن في وجود كل هذه الاضطرابات السياسية، من يدري؟ من المستحيل إدارة جيش دون نظام وانضباط.

كان الجيش الروسي القوي مفخرةَ بلادنا. ألم يكن قويًّا بدرجة كافية لمقاومة شرذمة من مثيري الرعاع؟ ثم قال فاسيلي:

- إني أعتمد عليكِ في رعاية أمنا، لا يمكنني الاعتماد على الخال سيرجي في هذا الأمر، فهو كما تعرفين.

فقلت:

- إنه يفعل كل ما يستطيع، فالمجلة تأخذ منه وقتًا كثيرًا...

فقاطعني قائلًا:

- هذا ما أعني، لطالما أولى العمل أهمية أكبر من العائلة، وأنتِ الموجودة هنا مع أمنا كل يوم، فاملئي عليها وقتها واحرصي على ألا تطيل التفكير، واعملي على أن يزورها بعض من أصدقائها الفنانين.

لم يكن منزلنا قد استضاف أي صالونات أو حفلات لقراءة الشعر لسنوات طويلة، ولكني أومأتُ بالموافقة على أي حال. وتابع فاسيلي:

- أعرف أنه ليس من العدل أن أطلب منكِ هذا في مثل عمرك هذا، فما كان يجب أن ينشغل بالك بغير الفساتين والفتيان.

سأخطو إلى السادسة عشرة خلال أشهر قليلة، وهذا هو الصيف الذي كان يفترض أن أخطط فيه لحفل تقديمي، وكانت خسارة حفل أهون من خسران أبي، ومع ذلك فما زال له مرارته، والمرارات الصغيرة أصل المرارة الكبرى. فقلت:

- سنكون بخير حال.

سيعود فاسيلي إلى الصفوف الأمامية قريبًا، ولا أريد أن أزيد من مخاوفه. ثم قال فاسيلي:

- يقول الجميع إن بتروجراد أكثر أمانًا الآن، قولي هذا لأمنا.

لاحظتُ أن فاسيلي لم يؤكد صحة هذا الأمر، وتابع:

t.me/yasmeenbook

- أخبرتني "إلينا" كم كنتِ شجاعة في بريالكو، أنا فخور بِكِ.

كنتُ قد تمرّستُ على رفض المجاملات بإظهار التواضع، ولكن لم أستطع إلا أن أتورد خجلًا من الشعور بالفخر، فما كان فاسيلي ممن يوزع الثناء بغير حساب.

أمضينا ما تبقى من زيارة أخي في هدوء، نتقبل زيارات التعازي، منكفئين على أنفسنا في أغلب الأوقات، وعندما غادر فاسيلي، غاص المنزل في صمت كئيب، رحتُ أنا وأمي ننتقل من غرفة لأخرى كالأشباح من غير أن ننبس بكلمة. مرَّ عيد ميلادي في سبتمبر كأي يوم آخر؛ مدرسة وعشاء هادئ ونوم قبل التاسعة. ورغم أن قلةً من أصحابي بالمدرسة نظم لهم آباؤهم حفلات تقديم صغيرة فإن أمي لم تعرض إقامة حفلة مثلها لي، ولم أطلب منها أن تفعل، فهذه التجمعات وما تقتضيه من تصنعٍ للبهجة والاستغراق في الذكريات حنينًا إلى الماضي.. أكثرُ إحباطًا من عدمها.

خارج منزلنا كانت الحكومة المؤقتة، تمامًا كما يبدو اسمها، سدًّا مؤقتًا للفراغ، عاجزةً عن زرع الولاء بالناس أو الإيحاء لهم بالثقة. ساد القانون واستتبَّ الأمن في أغلب أنحاء بتروجراد، ولكن ظلت هناك أعمال شغب يقوم بها بعض الجنود الساخطون أو عمال المصانع من وقت إلى آخر؛ ما كان يُثقِل على أعصابنا. لم يبدُ الأمر مستقرًا بصفة نهائية، فعشنا نكتم أنفاسنا. وعندما استغل البلاشفة الموقفَ السياسي المضطربَ للاستيلاء على السلطة في أكتوبر، بدا الأمر كأنه مجرد انحرافة أخرى في سلسلة الأحداث المثيرة، لا نهايةً حاسمةً، فالبلاد بالفعل في حالة من الفوضى، مقسّمةٌ وعصيةٌ على السيطرة. وكما أخبرني سيرجي، مكررًا الحكمة التقليدية، لم تكن إلا مسألةَ وقتٍ حتى يطيح شخص آخر بـ «لينين» ورفاقه من الحكم.

سألتُ ساخرةً:

- أليك بلشفي، أليس كذلك؟

صُدِمت أمي، كان سيرجي لا يزال على علاقة بأليك، معتقدًا أن صديقه غير ملوم على موت أبي.

- لا بد أنه سعيد.

فهز سيرجي كتفيه، قائلًا:

- إن التبشير بالثورة شيء وإدارة دولة شيء آخر، من يدري إلى متى يستطيع البلاشفة الصمود؟

سرعان ما أدركنا أن الطغاة لا يُزاحون بسهولة. وخلال أيام قليلة ملأت إعلاناتُ لينين طرقاتِ المدينة، صارخةً بأن من يعيشون من كَدِّ الآخرين إن هم إلا طفيليات لا مكان لها في الدولة الشيوعية الجديدة. ظننتُ أنها الشعارات العادية التي تُصاحب الصراعات الطبقية، ولكن لم يمضِ طويلُ وقتٍ حتى أدركنا أنها لم تكن مجرد دعاوى سياسية. كان سيرجي قد قضى شهورًا في تنظيم دفاتر ضيعة أبي، والآن يخبرنا مصدومًا أنه لا توجد ضيعة. لم نتمكن من سحب المال من المصرف لأن الحكومة صادرت كل حساباتنا. وبعد أسابيع قليلة، قُربَ نهاية السنة، تسلمنا إخطارًا بأن منزلنا يُحوَّل إلى سكن للممرضات اللائي سيعملن في العيادات الجديدة بالمدينة. كل ممتلكاتنا الآن تُعد ملكًا للدولة.

تساءلتْ أمي مرعوبةً:

- كل شيء؟

أما أنا فما كان مني إلا أن هززت كتفيَّ. وفي اليوم التالي، شاهدنا ثروة عائلتي، التي جمعتْها على مدار السنين، وهي تُسلب منا، فاللوحات وقِطع الشمعدان والكريستال والبطاطين وُضِعت جميعًا في أكوام وحُملَت إلى خارج المنزل. وكذلك تيجان أمي وقبعة أبي المصنوعة من الفراء، ومعها عساكر فاسيلي والدُمى التي أحضرها لي سيرجي من باريس. قالوا لي ولأمي إنه يمكن لكلٍّ منا أن تحزم حقيبةً صغيرةً من المقتنيات الشخصية، ولكن الرجل الغليظ المسؤول لم يفسر المقصود بذلك، وكنا مرعوبين فلم نسأل. أخذتُ أكدِّس ما استطعت في حقيبتي التي عادةً ما كنتُ أستخدمها لكتبي المدرسية، فوضعت بها فستانين وبعض الأردية، وفرشةً، وأقلام الرسم، كانت كراسة الرسم أكبرَ من أن توضع في الحقيبة، وعندما اجتهدت لأحشرها فيها

t.me/yasmeenbook

جذبها الرجل من يدي، وتصفحها سريعًا ثم مزقها دون مبالاة، وأخذ ينظر إليَّ والقصاصاتُ تتساقط حول أحذيتنا كأنه يتحداني أن أبكي، فحدقت إليه ولم أبكِ.

أقنعت أمي ألّا تحزم إلّا أكثر ملابس المنزل عمليةً، تلك المصنوعة من أثقل الأقمشة وأكثرها تحملًا، فأطاعت تعليماتي ببلادة، وقد أنهك البؤس قواها. ضحك الحارس عندما فتحت أمي درجًا مليئًا عن آخره بثياب النوم وحمالات الصدر الكريمية المزينة بأشرطة الدانتيل، وانسحقت أمي خجلًا، فأخرجتُ أنا ما تحتاج إليه ولففتُ الأغراض، فكيف لرجل غريب أن يحدق إلى أخص أغراض أمي، كما أقنعتُ أمي أن تستبدل بحذائها الحريري حذاءً عالي الرقبة، ثم أشار الحارس صوب السلالم، قائلًا:

- فلتنطلقوا.

إلى أين؟ لم يكن الحارس يعرف، أو لم يكن يبالي، فلم نعد مشكلته. أخذتُ أنا وأمي نراوح مكاننا على بسطة السلم ونحن نشاهد بيتنا يُفرّغ مما فيه. وبعكس تلك الليلة الرهيبة في بريالكو، لم يكن هناك أي عنف أو انتقام، وإنما عمليةُ نهبٍ مُتقَنة، فالرجال يدخلون ويخرجون في تشكيلات منظمة، كلٌّ يعرف مكانه، إلا نحن.

سألتني أمي:

- ماذا سنفعل؟

كما لو كنت أنا من خطط لهذه الفجيعة. لم يصلنا إشعار المصادرة إلا قبل يوم واحد، ولم تكن إحدانا لتتصور أن نُطرد بهذه السرعة. أخذتُ أبحث في ذهني عن أسماءَ مَن قد نحل عليهم. بالطبع سيرحب سيرجي بنا، ولكنه يعيش في غرفة واحدة أعلى مكتبه، وعائلة بنت عمي ماريا، وهم آل شولكين الوحيدون في بتروجراد، كانوا قد ارتحلوا جنوبًا إلى منتجع يالتا على البحر الأسود حيث كان آل شولكين المقيمون بموسكو يخططون للحاق بهم. كان لأمي أصدقاؤها وكان لي أصدقاءٌ أيضًا، ولكن بيوتهم على الأرجح تضيع منهم

كما ضاع منا بيتنا. أخذ اضطرابي يعلو وأنا أدركُ أن كل من أعرف ليس عند البلاشفة إلا مرادفًا للطفيليات.

كنا في بداية مساء من أيام يناير، والجو قارص البرودة والظلام قد حلَّ بالفعل. شجعتني خاطرة أننا حرفيًّا سنُلقى في الطريق بغير مال ولا طعام على أن أدنوَ من الرجل المسؤول، قائلة:

- معذرة يا سيدي!

فاستدار لي الرجل وقد قطب جبينه، فأدركت خطئي على الفور، مستدركةً:

- أيها الرفيق.

فأومأ إيماءةً يسيرة، سامحًا لي بأن أتم كلامي. ليس رجلًا قاسيًا وإنما رجل شارد الذهن أرهقه العمل. فقلت:

- من فضلك اسمح لنا أن نمكث هنا يومًا أو يومين، وسنغادر فورَ أن نجد مكانًا نسكن فيه.

فقال الرجل:

- لا يسمح بالسكن إلا للعمال.

- إذن سنعمل.

فحدق إليَّ يختبر صدقي وحدقت إليه لأثبت أني لم أكن فتاة مدللةً كما يظن. فأمرني قائلًا:

- انتظري في المطبخ مع الآخرين.

اكتشفت أنا وأمي أن هؤلاء الـ «آخرين» لم يكونوا إلا من تبقى من خدمنا: الطباخة أولجا، وأيفان العجوز ورئيس الخدم. كنا قد فقدنا الخدم واحدًا تلوَ الآخر خلال أواخر فصل الصيف وفصل الخريف مع تداعي النظام القديم، ولكن لم أكن أتوقع قط أن يُهجِّرونا جميعًا. أعدَّت أولجا الشاي، وأقنعتْ أمي أيفان العجوزَ أن يجلس معنا، قائلة:

- لا داعيَ للرسميات الآن.

t.me/yasmeenbook

يكفي أن هذين الاثنين ظلّا على ولائهما، هكذا ظننت أولًا، ثمّ قلت لنفسي: «قد يكون كل ما في الأمر أنهما قد وصلا إلى مرحلة من العمر لا تغري فيها الوعود بالتغيير». شربنا في أكواب الخدم البسيطة، فكل أطقم أمي من الخزف كانت قد عُبِّئت وصودرت. لم نعرف مصيرنا إلا في وقت متأخر من المساء حين قيل لنا إنه يمكننا البقاء في إحدى غرف الخدم في الدور العلوي مقابلَ تنظيف المنزل وإعداده لوصول الممرضات. وفور أن يصبح المنزل سكنًا لهن، سوف تمكث أولجا وأيفان العجوز للمساعدة في إدارة المسكن، وعليَّ أنا وأمي أن نعتني بأنفسنا.

لم تنبس أمي بكلمة ونحن نجر أقدامنا متجهين للأعلى صوبَ ما كان يومًا ما غرفةَ آنّا. هناك سريران بإطار حديدي عليهما بطاطين رقيقة، وكان الجو شديد البرودة، فأبقيتُ عليَّ معطفي وأنا أفرغ الحقائب. لم تملأ مقتنياتنا إلا نصف الخزانة الصغيرة. جلست أمي تشاهد محاولتي الصغيرة لأبدو مشغولة.

نادت أمي:

- ناديا.

بصوت يخفت كما لو لم يكن لديها القدرة على إصدار صوت آخر، كانت تبدو كريشة في مهب الريح. كان عليَّ أن أصير درعًا لها، أن أحميها من تلك القوى التي تهدد بالقضاء عليها. فقلت لها:

- سأجد لنا مكانًا لنعيش فيه، أعدك.

فخفضت أمي رأسها يسيرًا كأنما تريد أن تومئ به. تابعتُ قولي:

- في الوقت الحالي، فلنعملْ بجدية ونحافظْ على هدوئنا، فيجب ألّا نعطيهم أي ذريعة لأن يرتابوا بنا.

في الصباح التالي، بذلت أمي قصارى جهدها. غطت رأسها بمنديل، كزوجةٍ قروية، وراحت تملأ الماء دلوًا دلوًا من صنبور المطبخ. وظلت تمارس عملها بتركيز عالٍ ووجه مكتئب رغم أنه لا شك أن قلبها قد تفطَّر وهي تنظف الأرضيات نفسها التي كانت في يوم من الأيام تتهادى عليها في فساتينَ من

الحرير. في البداية، كنا نحرك المسّاحات بصعوبة، وتبتل أطراف أثوابنا سريعًا، ولكن بعد مرور ساعات قليلة توصلنا إلى طريقة للعمل، أن نمسح خطًّا عريضًا مستقيمًا عبر أحد أطراف الغرفة ثم نكمل العمل عائدين في مسار موازٍ تحته، وأن ننظر إلى خطوط الماء لا إلى الحوائط الفارغة.

عند منتصف النهار، هزت أولجا كتفيها عندما سألتُها ماذا سنأكل، وقالت:

- لقد نفدَ الطعام كلُّه، حصلتُ أنا وأيفان على بطاقات طعام، لنأكل في المقصف.

بحثت عن الرجل الذي سمح لنا بالبقاء ودنوت منه متذللة كعبد يتوسل إلى القيصر، قائلة:

- أيها الرفيق، لم نحصل أنا وأمي على بطاقات طعام.

- بطاقات الطعام للعمال.

فاعترضتُ قائلة:

- أنا وأمي نعمل، لقد رأيتنا ونحن ننظف الأرض، طوال الصباح.

- لا توجد بطاقات لـ «الناس السابقين».

كانت تلك أول مرة أسمع فيها هذا المصطلح الذي سرعان ما أصبح مرادفًا لحياتي. لم تكن الدولة الشيوعية الجديدة تريد فقط أن تنتزع من عائلتي ومثيلاتها كلَّ امتيازاتهم وثرواتهم.. لا، بل كانت تريد أن يختفوا تمامًا، فبمجرد أن تُدعى «شخصًا سابقًا» كما حدث لكل من كان يحمل اسمًا نبيلًا.. تصبح شبحًا يسير على قدمين، ولكني لم أكن أعرف ذلك حتى تلك اللحظة، فسألت الرفيق:

- وكيف يُفترض أن نأكل؟

- تلك ليست مشكلتي!

مشيحًا بيديه إلى أعلى في حركة تقليدية لموظف حكومي لا حيلة له. غلب الخوف جوعي، فعدت أدراجي بعد أن اعتذرت إليه بخجل. وفي آخر النهار، عندما تحولت أصوات معدتي إلى انقباضات من الألم الشديد، سمعتُ

t.me/yasmeenbook

سيرجي ينادي اسمي من الردهة الأمامية، حيث كنت أنظف الفوضى التي خلفها عشراتُ الرجال ممن أخلوا منزلنا مما فيه. همستُ:

- إلى المطبخ.

ساحبةً خالي نحوه قبل أن يلحظه الرفيق. كانت أمي جاثيةً على ركبتيها في خزانة رئيس الخدم تنظف الأرفف الفارغة التي طالما كانت مكدسةً بأطباق تقديم الطعام، فوثبَتْ معتدلةً لتحتضن سيرجي، ولم أكد ألحظ علامات الصدمة على وجهه حتى ألصقت رأسه بكتفها.

- حمدًا لله على مجيئك. أسمعت بما حدث؟

فأومأ برأسه، وقال:

- إن الأمر ذاته يحدث في كل أنحاء المدينة.

تجمَّعنا في زاوية وراح سيرجي يخبرنا عن العائلات الأخرى التي طُرِدت من منزلها، وذكر أسماء كثيرة. جميع أفراد عائلة شولكين الذين تجمعوا في منتجعات البحر الأسود كانوا يريدون مغادرة البلاد. قالت أمي:

- هذه أخبار طيبة للأمير شولكين؛ فلديه منازلُ في إيطاليا وفرنسا، أما نحن فليس لدينا شيء على الإطلاق.

فتمتمتُ:

- ليس تمامًا.

مشيرة في حذر إلى خصري.

كنت أنا وأمي ما نزال نحتفظ بالمجوهرات مخبأةً في كورسيهاتنا، لنستخدمها كما قالت أمي عند الطوارئ. ألم يكن هذا هو بالضبط ما نحن فيه؟ قالت أمي:

- لا يمكنني المغادرة من دون فاسيلي، كيف سيعثر علينا؟

لم نتسلَّم أي خطابات من الجبهة منذ أشهر، بل ولم نكن نعرف إن كان أخي ما زال حيًّا أم لا. قالت أمي إنه لا بد أن يكون حيًّا، لأنه إن لم يكن كذلك لأُخطِرنا بموته ببرقية. لم أكن متأكدة مثلها، بسبب الفوضى التي ضربت

الجيش الروسي، ولكن حاولت ألا أفكر في الأمر، وكان تصور وفاة فاسيلي بمنزلة خيانة. قال سيرجي:

- حتى إن استطعنا تحمُّل أُجرة القطار أو المركب، فلن نكون في أوروبا أقل فقرًا مما نحن عليه هنا، فلا داعي لأن نتعجل الأمور. البلاشفة جادّون على الأقل بشأن الخروج من الحرب؛ ما يعني أن فاسيلي سيعود قريبًا، وحينها يمكننا أن نقرر ماذا سنفعل.

سألت أمي بصوت مرتعش عادة ما كان يشير إلى اقتراب انفجارها في البكاء:

- كيف يُفترض بنا أن نأكل؟

بدا سيرجي متعجبًا لحرماننا بطاقات الطعام، فقد حصل على بطاقة بالأمس، عندما أتى إلى مكتبه في المجلة مندوبٌ من مصلحة الثقافة الجديدة ليخبرهم بأن المجلة قد أُمِّمت. قال سيرجي:

- أعرف بعض الناس في الحكومة الجديدة.

خمَّنتُ أنه أليك، ولكني لم أُرِد أن أذكر اسمه أمام أمي. تابع سيرجي:

- الأحوال غير مستقرة بالمرة، حتى إني لا أدري من الذي يجب عليَّ أن أتقرب إليه الآن، ولكن أعدكم أن أرتب كل شيء، وأن أجد لكم مكانًا تعيشون فيه، أو.. يمكنكم أن تعيشوا معي، وفي الوقت الحالي سأشارككم حصصي من الطعام.

- وأنا أيضًا.

التفتُّ فرأيت أولجا، تلك المرأة التي كانت جزءًا من هذا المطبخ، تمامًا كما كان الموقد والحوض. منذ أن كنتُ فتاة صغيرة وهي تحب أن تطعمني. ما كنت لأدخل الغرفة دون أن تقدم لي وجبة سريعةً أو تُصر على أن أتناول قضمةً مما تطهو. أما الآن، والخزانة خاوية، فهذا كل ما كان يمكنها أن تقدمه. لمحة حب، من شخص لطالما عددتُ خدماته لي أمرًا مفروغًا منه، لم أجد ما أعبر لها به عن شكري، ولكنْ عرفتُ أنها فهمت ما أريد من الطريقة التي مدت بها يدها إليَّ ومن ضغطة يدها على يدي.

t.me/yasmeenbook

كل صباح كنت أتساءل: أيكون هذا آخر يومٍ يُسمح لنا فيه بالبقاء في المنزل، ولكن ما إن تنتهي أعمال التنظيف حتى يصل العمال وقد أحضروا أثاثًا جديدًا، فظللتُ أنا وأمي مشغولتين في تهيئة السكن. ثم انتقلت الممرضات إلى سكنهن، وأُعطينا قائمة لا تنتهي بالمهام التي كانت تتغير باستمرار. ففي وجود نصف دستة من النساء في كل غرفة يتشاركن ثلاثة أسِرّة، يوجد دومًا ما يحتاج إلى التنظيف. كنت أنا وأمي نستحم في غرفتنا بدلو من الماء البارد. وعندما لا نقوم بالمسح أو بالتلميع، نتوجه إلى المطبخ لنساعد أولجا في تجهيز الإفطار أو العشاء لخمسين امرأة، في نوبات متعاقبة طوال اليوم. رسميًّا لم يكن مسموحًا لي أنا وأمي أن نأكل من هذه الوجبات، ولكن أولجا كانت تجد وسيلةً لتدسّ لنا بعض الطعام، كأن تُخفِي رغيفًا من الخبز في كومة من المناشف، أو بعضَ البطاطس المحمرةِ أسفلَ دلوٍ من دلاء التنظيف. كما كانت تحرص على أن أنظف أنا وأمي الأواني كلَّ مساءٍ حتى يمكننا أن نأكل أيًّا كان مما نستطيع أن نكشطه من قيعانها. لم يكن هناك من الطعام قط ما يكفي لإشعاري بالشبع، وهذا هو السبب في أني أتذكر سنة 1918 كأولى سنوات الجوع، ولكن كان الطعام كافيًا لإبقائنا على قيد الحياة.

ظل سيرجي يقول إنه سيجد لنا شيئًا أفضل، ولكن في نهاية الأمر أدركنا جميعًا أنه لم يكن هناك ما هو أفضل من ذلك، فمقارنةً بأصدقاء أمي القدامى، كنا محظوظين حقًّا، فلدينا غرفة تخصنا وأنابيب مياه داخلية. وبمرور الوقت، ودون أن ندري، تكيفتُ أنا وأمي مع الوضع. احمرَّت يداي واخشوشنت وأصبحت ذراعاي أكثر سمكًا، عضلات لا لحمًا. ويوما بعد يوم، صار بمقدوري أن أحمل دلوين ممتلئين دون أن تنسكب قطرة من الماء. وصوت أمي، الذي كان يجلجل في أنحاء المنزل، ها هو يغدو ألين وأكثر أناةً، ولا يُسمَع إلا عند الضرورة، كـ: «ناوليني الصابونة»، أو «سأتولى أنا أمر الملاءات». كانت تقضم طعامها برقة وكان عودها في ذبول مستمر، إلا أنها كانت تصر على أنها بخير، كلما سألتها. قبل ذلك كانت تحدث ضجةً لأقل شيء يزعجها، ولكن عندما واجهَتِ المعاناةَ الحقيقية، استحضرتْ من القوة ما لم أكن أعرف أنها تملكها.

عندما عقد البلاشفةُ اتفاقية السلام مع الألمان، وافين بوعدهم بإنهاء الحرب، ابتهجت أمي، حتى إنها قالت:

- يمكنني الآن أن أُقبِّل لينين نفسه.

ولمحتُ حينها أثرًا من تألقها القديم، مخبوءًا تحت القشرة الكئيبة من امرأة تغسل الثياب. سيعود فاسيلي قريبًا وسيمكننا أن نضع تلك الحياة الحزينة عديمة القيمة وراء ظهورنا. لطالما كنت أريد زيارة باريس وكنت أتخيلها في حالة أبدية من الشفق، يضيئها وهج مصابيح الطرقات وبرج إيفل. سيعتني فاسيلي بأمي، وسيساعدنا أبناءُ عمومتنا من آل شولكين في الاستقرار، ولن يبقى عبءُ مستقبل عائلتي مُلقًى على كتفيَّ المنهكتين. ثم تسلمنا من فاسيلي خطابًا، لم يكن إلا خربشاتٍ كُتِبت على عَجَل. لن يعود أخي إلى بتروجراد، فهو يؤدي واجبه ويقاتل من أجل بلاده. ولم يكن بالخطاب مزيد من المعلومات ولا عنوان. بكت أمي ببؤس شديد، أقلقني عليها أكثر، فلم يكن يشبه أداءها المسرحي المتصنع القديم، وأخذتُ أنهي أعمال الظهيرة على عجل حتى أستطيع أنا وأمي أن نتسلل للخارج ونرى سيرجي قبل أن يتعين علينا البدء في تجهيز العشاء. ورغم أن مجلة سيرجي قد أصبحت مطبوعةً شيوعية رسميةً، فإن المكتب لم يتغير كثيرًا؛ فالغرفة الأمامية، المكتظة بالمكاتب وبكتاب مشعثين، ما زالت تفوح منها رائحة الحبر الحديث والقهوة البائتة. وعلى منضدة طويلة في خلفية الغرفة، انكب سيرجي ومجموعة من المحررين على نموذج ورقي. ولم يلحظ دخولَنا إلا رجلان يرتديان زي الجيش الأحمر متكئان على أحد الحوائط يدخنان السجائر. لوحتُ لسيرجي متجاهلةً الجنود. كانا يُثيران حنقي. وعندما سمع سيرجي أننا تسلمنا خطابًا من فاسيلي، تمتم قائلًا:

- إلى الأعلى.

لم أكن قد زرت ما يسميه سيرجي شقته من قبل، ولكن من مناكفات أمي له كنت أفترض أنها صغيرة، ليس بها ما يدعو للانبهار. كان خالي يفخر ببساطة ذوقه. ورغم ذلك، أدهشتني بساطة الغرفة، فلم يكن بها إلا سرير وكرسي خشبي متجاورين بالقرب من النافذة الوحيدة بالغرفة، ومنضدة لها

t.me/yasmeenbook

حوض وغلاية شاي محشورة في إحدى الزوايا. لا أثاث بها إلا هذا، وإنما رزم من الكتب مرصوصة في وضع عمودي، وموقد صغير من الحديد. الأرضية الخشبية العارية تَصِرُّ وأنا أمشي عليها، وعليها خدوش تعرف منها أن الأثاث نُقِل على عجلة. فأدركت أنها لم تكن دومًا خاوية هكذا. تمامًا كما كان الحال في منزلنا، انتُزِع كل ما له قيمة فيها. تصفح سيرجي الخطاب، ثم ثنّاه بإحكام، وقال:

- يبدو أن فاسيلي قد ذهب مع كيرينسكي.

أعرف هذا الاسم، بالطبع! فالجنرال كيرينسكي قائدُ الجيش الإمبراطوري بأسره، ولكنَّ تلك القوةَ القتالية الضاربة لم يعد لها وجود، ومعظمُ الجنود الذين قادهم كيرينسكي يومًا من الأيام قد ذابوا الآن في الجيش الأحمر الشيوعي. وها هو سيرجي يخبر أمي بما لم نكن لنقرأه في جريدة رسمية أبدًا، فالقوات كانت تتجمع تحت قيادة كيرينسكي، فيما أسموه بـ «جيش المتطوعين»، جيش موالٍ لروسيا، لا للشيوعية، وهو عاقدُ العزم على إخراج البلاشفة. سألته أمي:

- هل تظن أن بمقدورهم ذلك؟

وكانت تبدو أكثر أملًا مما كانت عليه لشهور. ردَّ سيرجي قائلًا:

- لو حصلوا على ما يكفي من الدعم الخارجي (الأجنبي). لقد استثمر البريطانيون والفرنسيون الملايين في روسيا قبل الحرب، ولن يستردوا تلك الأموال ما دام بقي لينين في الحكم. ويمكنني أن أقول إن هذا يعطيهم سببًا جيدًا لدعم كيرينسكي.

فقالت أمي:

- هل لديك أي فكرة عن مكان فاسيلي الآن؟ لعلنا نتمكن من زيارته، ربما...

فقاطعها سيرجي بقوله:

- لا يمكن أن نفعل شيئًا لفاسيلي، فموقفنا سيئ بما فيه الكفاية.

ثم سار إلى حوض الغسيل وألقى بالخطاب داخله، وأخرج علبة الثقاب من جيبه، فاعترضت أمي قائلة:

- ماذا تفعل؟

ولكن سيرجي تجاهلها وأشعل عودًا من الثقاب ووضعه تحت الخطاب مطلقًا خيطًا من اللهب. وعندما علا صوت أمي بالاعتراض واندفعت ناحيته أوقفها قائلًا:

- لا يمكنك الاحتفاظ بما قد يثير الريبة فيكِ. ولو كتب فاسيلي لك مرة ثانية، يجب عليكِ أن تفعلي الشيء نفسه، وأن تحرقي الخطاب فورًا.

فردَّت أمي:

- بل سأخفيه، فلستَ أُمًّا، ولا يمكنك أن تفهم ما أعني. إنَّ مجرَّد لمسةٍ لورقةٍ مسَّتها يدُه لكافٍ لأن يشعرَني كما لو كنت معه.

فقال:

- من الآن فصاعدًا، أنت رفيقة مخلصة.

لم يسبق لي أن سمعت سيرجي يتحدث بهذه الصرامة. وواصل:

- يمكن أن يفتشوا غرفتكِ في أي وقت، ولعلهم يفتشونها الآن بالفعل دون أن تدري.

فقلت لنفسي: «لن يستغرق هذا منهم إذن طويلَ وقتٍ، فلم يتبقَّ لدينا شيء يُذكر». واصل سيرجي كلامه قائلًا:

- لقد بذلتُ قصارى جهدي لعمل صداقات في الحكومة الجديدة، فيا حبذا لو لم يعرفوا أن لي ابنَ أختٍ يقاتل ضد الجيش الأحمر.

فقالت أمي بسخرية:

- أصدقاء؟ الأصدقاء نفسهم الذين سيجلبون لنا بطاقات الطعام؟ ومكانًا لنسكن فيه؟

ثم أخذت نفسًا سريعًا وهي تتألم، ولكن سيرجي لم يحاول أن يهدئ من روعها، وقال:

- يوجد المئات من الأشخاص يتدفقون إلى المدينة كل يوم، شباب فلاحون (فلاحون شباب) آتون من الحقول مباشرةً، ولا يوجد ما يكفيهم جميعًا من الشقق، ولقد سمعت بعائلات من عشرة أفراد يعيشون في غرفة واحدة. أتعرفين لماذا سُمِحَ لكِ بالبقاء في منزلكِ؟ أتحسبين أن ذلك لأنكِ عاملة جيدة؟ لا، ولكن لأنني تذللتُ إلى مُفوِّض سكن العمال الجديد، وأقنعته أنه سيكون من الأنسب أن تعتني أختي وابنتُها بالسكن، لأنهما تعرفان كل شيء عن المبنى وتريدان أن ترياهُ ينال من العناية أفضلَها، فهذه الوظيفةُ التي ترينها غيرَ لائقة بك نعمةٌ، فلا تكفري بها.

لكلٍّ منا لحظةٌ ينقلب فيها العالم الذي يعرفه رأسًا على عقب، مزلزلًا ما يؤمن بأنه حقائق لا ريب فيها، ليجبرنا على مواجهة افتراضاتنا تحت ضوء جديد، ضوء شديد الوضوح، قاسٍ. كنت أحسب أن سيرجي نجا من الثورة، إلى حدٍّ ما غير مخدوش. لم يخطر ببالي قط أنه راح يسير كبهلوان على حبل غير مأمون، متزلفًا إلى الحكومة الجديدة من جهة، ومحاولًا أن يحمي عائلته المنبوذة من جهةٍ أخرى. أمي مخطئة؛ قد لا يكون لسيرجي ابنٌ من صلبه، ولكنه يعي جيدًا ما هو الحب. قالت أمي بحسرة:

- إن تملُّقَك عصابات البلاشفة لمقزز.

فرد قائلًا:

- ليسوا كلهم بعصابات، فأليك مثلًا...

ولكن وجه أمي تغيَّر كما لو كان مجرد ذكر هذا الاسم يثير غثيانها، فقاطعته قائلةً:

- لقد كنت تجده بالغ السحر، أليس كذلك؟ في ذلك الصيف في بريالكو؟

بدا كما لو أن الهواء يتصلب من حولنا ليجبرنا على الوقوف في سكون. حدق سيرجي وأمي إلى بعضهما بعضًا، وانقلب وجهاهما مرايا تعكس صورًا من الخطر، محدثةً شقوقًا في الهواء المتصلب بينهما. فقال سيرجي:

- إن أليك نادم حقًّا على ما جرى لكم، ولقد حاولت أن أخبركِ بهذا مرارًا وتكرارًا. لقد تحدث بالفعل إلى بعض العمال في بريالكو، ولكنّ حديثه

لم يخرج عن تشكيل تجمع للمزارعين، وهو يقسم أنه لم يدعُ قط إلى العنف.

فردت أمي بسرعة:

- لا أصدقه، فهو في نظري قاتل.

- إنه واحد من البلاشفة، بل أحدُ المهمين فيهم، فلتطرحي مشاعركِ جانبًا.

فسألته أمي بحزن:

- أليس لديك أي مشاعرَ بالندم؟ بعد كل تلك المقالات التي نشرتها لسنوات طويلة، عن إصلاح روسيا؟ هذا هو ما جلبته علينا أحلامك الاشتراكية، الآن يُنظَر إلينا في بلادنا على أننا خونة، الآن نحن محاصرون كالحيوانات.

كان البلاشفةُ قد استولوا على كل المواني ونقاط العبور الحدودية بعد أن فر أقاربنا من آل شولكين، ولم يعد يُسمح لـ «الناس السابقين» بالمغادرة، وحتى في ضيعتنا الحقيرة، الخالية من الطعام، يروننا خطرًا يجب ألّا يظل حرًّا طليقًا. قالت أمي:

- لم يعد لدينا شيء، وعليَّ أن أتنكر لابني، أهذا ما كنت تريده؟

- بالطبع لا، وإن قلبي لينفطر وأنا أرى مُعاناتك، ولكن عليكِ ألا تيأسي؛ فأنا حقًّا أؤمن أن هذه المساعي ستفضي بنا إلى وضع أفضل، وضعٍ يكون فيه الجميع، رجالًا ونساءً، على قدم المساواة.

فهمهمت أمي قائلة:

- لا يوجد وضع كهذا.

ولكني لم أستطع إلا أن أتساءل، في نفسي: ولمَ لا؟ لقد نشأتُ وأنا أسمع خالي يتحدث عن الحرية والعدل، مثاليات تروق كثيرًا لفتاة صغيرة، والآن وقد خبَتْ صدمةُ إذلال عائلتي، فلستُ ممتعضةً بشأن كل ما أُجبِرت على القيام به من أعمال، أصبحتُ أذهب إلى عملي شاعرةً بأنه واجبي، وأعود إلى الفراش كل ليلة مرهقةً، ولكن راضية. خطرت لي كل تلك الساعات التي قضيتها في قراءة الروايات الفرنسية وفي تعلم رقصة الفالس، في حين كانت

t.me/yasmeenbook

البنات الأخريات ينظفن مرحاضي، ويصلحن ملابسي الداخلية. ومع كل مرآة أُلمِّعها، وكل أرضية أمسحها، كنت كأني أُسوِّي ديوني القديمة. وبغض النظر عما كلفتني به الثورة، فأنا أريد أن أومن أن لمعاناتي هدفًا، أن أومن أنها مرحلة ضرورية في ميلاد روسيا الجديدة. وقبل كل شيء، كنت أريد أن أومن بسيرجي. لذلك، عندما جاءت سنة 1918، أخذت أنظر إلى المستقبل بحذر. كنت قد أُعدِدت للعمل، لا بل كنت أريد أن أعمل، وشعرتُ أنه لا بد أن يكون لي مكانٌ في الدولة الشيوعية، مكانٌ يمكن فيه استغلال تعليمي ومثابرتي فيما هو خير من مسح المراحيض. وعندما خفَّت شدة البرد ولم نعد في حاجة إلى شظايا الفحم التي كانت أولجا تدسها لنا، عادت أمي لشيء من نفسها القديمة، حتى إنها كانت تدندن سونيتات شكسبير، وهي تكنس، أو وهي ساهرة لإصلاح حواشي ثوبي تُشذِّب رثاثته، وتقول بابتسامة ساخرة:

- علينا أن نحافظ على قيمنا.

أشحت بنظري بعيدًا عن النبلاء السابقين الذين راحوا يساومون في أسواق الشوارع العشوائية عارضين ثرواتهم في مقابل الطعام. قلت لنفسي: ما زالت مجوهراتنا معنا، لسنا بالغي البؤس بعدُ. بدت المدينة التي سِرْت في شوارعها كصورة من المكان الذي كبُرت فيه: فالمباني في أماكنها الصحيحة، تقطعها شبكة من الجسور والقنوات. ولكنَّ شيئًا بالصورة لم يكن صحيحًا، فكثير ممن أعرفهم قد رحلوا، ولم يتركوا ما يدل على أنهم كانوا هنا يومًا ما، إلا بيوتًا خاوية، وكل الدكاكين مغلقة، ونوافذُ العرض بها إما خالية، وإما يغطيها الغبار. الشوارع تمتد في صمت متوقع يبعث على الحزن، في انتظار عربات وسيارات لا تأتي أبدًا. وحتى في ضوء النهار، خيمت على بتروجراد أشباح ماضيها.

عندما عاد الشتاء، أصيبت أمي بسعال جاف، كان هذا في الوقت الذي بدأت فيه مراقبة حصص الفحم في السكن رقابةً لصيقة، فلم تعد أولجا قادرةً على منحنا حتى تلك الكميات الهزيلة التي كانت تمنحها لنا في الشتاء السابق، وكنت أنا وأمي نرقد جنبًا إلى جنب على السرير نفسه، ونرتجف بردًا، حتى لو فرَدْنا معاطفَنا فوق البطاطين. وكلما زادت الخشونة في نَفَس أمي

ازددتُ حرصًا على تدفئتها. ورحت أُقيِّم ما تبقى لنا من مقتنيات قليلة، وأسأل نفسي: هل تساوي هذه حياةَ أمي؟ ولم أكن في حاجة إلى إجابة. في ديسمبر، قصدت إحدى الأسواق السوداء على قدمي وقايضتُ فستانًا بما يكفينا من الفحم لقضاء شهر يناير. وعندما نفدَتْ تلك الكمية، قطَّعتُ خِزانة الملابس في غرفتنا وأحرقت قطع الخشب، فما الحاجةُ إلى خزانة للثياب ولا يوجد منها إلا النزر اليسير؟ وبادلتُ مشط أمي، وفرشة شعرها ذات اليد الفضية، وكانت هدية زفاف من أمها، بفخذ خنزير وكيس من الخضراوات، صنعتْ لنا منه أولجا طعامًا لذيذًا كدت أبكي سعادةً وأنا آكله. لقد جعل مرض أمي من كل يوم حياةً مكثفة؛ لا بد أن تتحسن. هذا كل ما يهم.

وأخيرًا خفّت الكحة، إلا أن أمي لم تعد لسابق عافيتها قط، فقد استنزف المرض مخزونها الأخير من ماء الحياة. ورغم أنها لم تكن إلا في أوائل العقد الرابع من عمرها فإنها أصبحت تتحرك كامرأة عجوز، لاهثةً وهي تصعد السلم أو متحدبةً وهي تغسل الثياب. كنت أعمل بدلًا منها ما استطعت، ولكن في نهاية الأمر أخذتني منها رئيسة الممرضات، وكانت امرأة نشيطةً تتجول في السكن كالدجاجة الأم في الحظيرة عيناها على الكتاكيت الضالة. قالت باقتضاب:

- لا تقوم والدتك بنصيبها من العمل.

إنها مريضة، لكن صحتها تتحسن، أعدك بهذا.

سيأتي عمال نظافة جدد غدًا، ويجب أن تخرجا بحلول الصباح.

- لا، من فضلكِ، لا بد أنه يوجد خطأ ما، دعيني أتحدث إلى خالي، فإن لديه أصدقاء في الحزب.

- لقد اتُّخِذ القرار بالفعل.

ثم نظرت إليَّ نظرةً لها كثير من المعاني، إلا أن الرحمة لم تكن أحد معانيها، وقالت:

- لا يسعكما البقاء.

t.me/yasmeenbook

حينئذٍ فقط فهمت ما كانت ترمي إليه حقًّا، لا يهم إذا ما كنتُ عاملةً جيدةً أم لا، كما لا يهم من هم أصدقاء سيرجي. فلقد قرر شخص ما، في مكان أعلى، أنه يجب على نساء شولكين أن يذهبن. وسيُنفَّذ هذا الأمر. أخذ الشعور بالظلم يجتاحني في موجات حارقة، ولكني التزمت الصمت؛ فأنا أدرك أنه ليس لكبيرة الممرضات من السلطة ما يكفي لإنقاذ وظيفتي أكثر مما هو لديَّ، فالبقاءُ على قيد الحياة مرهون بطاعة النظام، لي ولها، بالقدر ذاته. لا يوجد مكان نذهب إليه أنا وأمي إلا مكان واحد. غادرنا منزلنا للمرة الأخيرة صباحَ اليوم التالي، ولم يخفف من إحساسنا بالحزن، بعضَ الشيء، إلا مزيد من الطعام دسته لنا أولجا. كانت الشمس تختلس النظر من وراء كآبة شهر أبريل، وقد أضاءت أشعتها كومةً غريبةً في وسط الشارع، عندما اقتربتُ منها، رأيت أنها لم تكن إلا حصانًا نافقًا، قد برزت أضلاعه من لحمه الهزيل.

أخذتْ ذكرياتي عن الشارع، الذي كان في يوم من الأيام يعج بالحركة، تتصارع مع واقعه الجديد المؤلم. لم تزل هناك مسارات، إلا أنها لم تُستخدم لأكثر من عام، كما كان الحال مع محل الجزارة الذي كانت أولجا تأتي منه بطلبات الأسبوع، غير أن نوافذه مغطاةٌ بألواح خشبية، ومدخله سُدَّ بأكوام من القمامة المتعفنة، وبعد حين شعرت بالغثيان بسبب الرائحة فحثثت أمي على الإسراع إلى منزل سيرجي، الذي استقبلنا بالأحضان التي حلت محل ما لم يستطع أحدنا أن يقوله، أو بالأحرى ما لم يرد أحد منا أن يقوله. ورغم أننا لم نسِر أكثر من عشر دقائق.. فقد بدا التعب واضحًا على أمي، فأصر سيرجي أن تجلس وهو يُعِدُّ الشاي، ثم وضع الغلاية على الموقد، وأخذ يروح ويجيء متحدثًا في أي شيء، فسيرجي لم يكن قط من محبي الصمت. قال:

- سيكون علينا أن نتشارك الكوب، فليس عندي إلا واحد، ولكن يوجد الكثير لنتحدث بشأنه.

كان الشاي ثقيلًا وساخنًا، وشعرت وأنا أشربه بأن الحياة دبَّت فيَّ من جديد كأنه إكسير سحري.

- الحمد لله على حصص طعامك. كانت أولجا تضطر إلى إعادة استخدام أوراق الشاي مرارًا وتكرارًا، كنا ندعوه شايًا ولكنه لم يكن إلا ماءً دافئًا.

ناولتُ الكوب لأمي فاحتست رشفاتٍ قليلةً، ثم ناولته لسيرجي، وقالت بحزن:

- انظر إلى حالنا، ثلاثةٌ يتشاركون كوبًا واحدًا، وغرفة واحدة.. كيف وصل بنا الحال إلى هذا؟

فقال سيرجي:

- سنتدبر الأمر، لتأخذي السرير أنتِ وناديا، وسأنام أنا على الأرض، لا جديد في هذا، فقد كنتُ أفعل ذلك أيام الدراسة.

كانت أمي تحب مضايقة سيرجي بخصوص ما كانت تسميه «سنوات الفجور»، عندما كان يتنقل بين جامعات أوروبا الكبرى عاقدًا ما لا يُعد من الصداقات دون إنجاز ما يذكر من العمل، ولكنها لم تبتلع الطُّعْم هذه المرة لتسايرَه، ظلت تنظر أرضًا، متهدلة الكتفين. نظر إليَّ سيرجي بأعين متوسلة، يسألني الدعم، فقلت فرحةً:

- على الأقل لدينا ما نحمد الله عليه، فليس علينا أن ننظف تلك الحمامات مرة أخرى.

ندَّت عن أمي ابتسامة خفيفة، معترفةً بمجهودي، ومحاولةً أن تُجارينا قدر ما تستطيع. قلت لسيرجي:

- لا يمكن أن تصدق كم صنعت هذه الممرضات من فوضى، دائمًا ما كنت أحسب أن النساء أكثر نظافة وترتيبًا من الرجال، ولكن اتضح أن هذا غير صحيح.

وأخذت أَصِف اشتباكات كبيرة الممرضات مع أيفان العجوز والنزاعات بين الممرضات القادمات من بتروجراد والممرضات اللائي نشأن في الريف. وبعد أن غلا المزيد من الماء وصببنا المزيد من الشاي، رتَّبنا قطع الأثاث القليلة ترتيبًا مريحًا في زاوية الغرفة، بحيث يمكن لسيرجي أن يجلس في كرسيِّه وأنا وأمي على الفراش، متقابلين. تحدثتْ أمي عن أول مرة زارت فيها منزلنا القديم، عندما كان أبي يغازلها. في البداية خشيتُ أن يسحبها ذلك الحنين إلى الحزن مرة أخرى، ولكن في تلك الظهيرة، والشمس تنير

t.me/yasmeenbook

وجهها الذي ظل على جماله رغم كل شيء، بدا أن الحديث عن الماضي يُجدد حيويتها. قصَّت علينا قصةً لم أسمع بها من قبلُ عن حفلة في بدايات شبابها، حين وعدت ثلاثة شبان بالرقصة نفسها، متسببةً في تهديدات ميلودرامية بعقد مبارزة لحسم الأمر. رأيت لمحات من روح أمي الحقيقية في عينيها وصوتها، في دليل على أنها لم تنهزم تمامًا، وحينها شعرت بأهمية ما يجب عليَّ أن أفعله لأبقيَ تلك الجذوة مشتعلة.

رغم مجهودات سيرجي.. لم تكن هناك وظائفُ متاحةٌ لمن يحمل اسما كاسمي وجذورًا كجذوري، فعملت الشيء الوحيد الذي قد يجعل مني ذاتَ جدوى؛ انتظرتُ في طابور الخبز؛ لم يكن لدينا قط ما يكفي من الخبز، حتى بالنسبة إلى من يحملون بطاقات الطعام، وبعد أن عاد سيرجي إلى البيت خاويَ اليدين، أكثر من مرة، عرضتُ أن أحل محله. في اليوم الأول، انطلقت عند شروق الشمس، فما كان إلا أن وجدتُ المئات قد اصطفوا بالفعل، وأعينهم الباهتة تكاد لا تلحظ وجودي. بعد ذلك، رحتُ أستيقظ قبل الشروق وأقف ساعاتٍ طويلة في الريح أو تحت المطر. ورغم أني أرى الوجوه نفسها يومًا بعد يوم، فإننا نادرًا ما يتحدث أحدنا إلى صاحبه. كنا كتلةً مجهولة غيرَ قابلة للتمييز، لا يجمعنا غيرُ شيء واحد؛ حاجتُنا إلى الخبز. راح سيرجي يُهرِّب ما تطوله يداه من المقصف الذي كان يتناول فيه الغداء والعشاء، فمرةً سمكةً مجففةً، وأخرى حفنةً من الكاشا يصرُّها في منديل، ولكن كنت أنا وأمي نقتات بصفة أساسية على تلك الأرغفة الخشنة الجافة النفيسة.

مرةً أخذتُ قضمة فأحسستُ بطعنة حادة مؤلمة، فمددت يدي إلى فمي وأخرجت منه شظية انغرزت في خدي من الداخل، أخذ سيرجي الخبز من يديَّ ورفعه أمام وجهه ينظر إليه، ثم قال:

- لا غرابة في أنه بهذا السوء، فهم يرققونه على نشارة الخشب.

فتعلمت يومئذٍ أن أدقق في كل قطعة قبل أن آكلها. كانت أمي دائمًا ما تقول إنها ليست جائعةً، وإني يجب أن أتناول نصيبها، ولكني كنت أجبرها أن تأكل معي، قضمة بقضمة.

وعندما أقبل الخريف في سنة 1919، لم تكن قد وصلت إلينا أي أخبار عن فاسيلي لأكثر من سنة. كنا نعرف أن الجيش الأحمر يحارب ما يُطلَق عليه «البِيض»، على جبهات عديدة بعيدًا عن بتروجراد، ولكن لم يكن لدينا من سبيل لمعرفة من الذي يحقق الانتصارات بالفعل. ثم كان أن أتى سيرجي ذات مساء وهو يثب السلالم وثبًا، وما إن رأيت أماراتِ التوتر باديةً عليه حتى عرفت أنه على وشك الإلقاء بأخبار سيئة. قال:

- البيض ينسحبون وفاسيلي وقع في الأسر.

كنت على أتم اليقين أن سيرجي سيخبرنا أن فاسيلي قد مات، فلم أستطع إلا أن أحدق إليه صامتةً مرتبكةً، وورائي كانت أمي تبكي. تابع سيرجي:

- حسب ما قيل لي، فهو ومجموعة من ضباط القيصر السابقين محتجزون في حصن بيتر وبول.

فشهقت أمي قائلة:

- أهو في السجن؟

فرد سيرجي:

- إنهم يَعدّونه خائنًا يا كاتنكا. نحن محظوظون أنهم لم يطلقوا عليه النار.

إذن ففاسيلي على قيد الحياة، وهنا في بلجراد. كان هذا أحسن خبر من وقت طويل، فقلت له:

- هل نستطيع أن نراه؟

فتنهد سيرجي قائلًا:

- أرجو ذلك، وأنا أسعى في الأمر.

كانت أمي تبكي، والدموع تنحدر على خديها متقاطرة على صدرها، فمِلت نحوها واحتضنتها. الآن، وقد عرفت أنها قد ترى سيرجي، فستهتم بنفسها. لم أعد أشعر بأني وحيدة كما كنت.

t.me/yasmeenbook

استخلصنا المجوهرات من الكورسيهات وأعطيناها لسيرجي ليستعملها في الرِّشا. لم يكن لأحجار الياقوت والزمرد قيمةٌ كبيرةٌ عند المساومة من أجل الطعام في السوق السوداء، إلا أنها لم تزَل مطلوبةً بين مسؤولي الحزب ممن كان لديهم زوجات أو عشيقات يسعون لإبهارهن. وبعد عدة أسابيع من التفاوض والمداهنة، وسهرات الشرب، سُمِح لنا بزيارة السجين شولكين.

قابلَنا قائد السجن عند المدخل الأمامي الذي لم يكن إلا سياجًا وحشيًّا من الحجارة الكئيبة، وراح، وهو يهز حلقة المفاتيح بحماس وتفاخر، يقودنا إلى أسفل عبر سلسلةٍ من الدهاليز الكئيبة، في موكب صُمِّم لإثارة الخوف. كانت أمي تسير متأبطةً ذراعَ سيرجي وهي تبدو أكثر عزمًا مما رأيتها عليه من سنوات. وأخيرًا وجَّهنا القائد إلى حجرة انتظار صغيرة بها مقاعد ملتصقة بالحائط. جلستُ أنا وسيرجي، ولكن أمي أخذت تذرع المكان وأصابعها ترتعش ولا تهدأ. قال القائد:

- انتظروا هنا.

تمالكت أمي نفسها خلال دقائق الصمت الطويل التي تلت قوله، ولكن هذه القوة انهارت عندما أُحضر فاسيلي أخيرًا. جاء أخي -الذي كانت مِشيته تبخترًا لا سيرًا يجر قدميه جرًّا في غير اتزان كرجل طاعن في السن، وزيه العسكري القيِّم يتدلى خِرَقًا باليةً حول جسده النحيل، وقد جعل رأسُه الحليق وجهَه المنهك يبدو أكثر هزالًا مما هو عليه بالفعل، كانت يداه ترتعشان وهو يمدهما إلى أمي، التي انهارت بين ذراعيه وهي تنتحب. رأيت أسنانه وهو يجتهد لإطباق فمه ليبقى صامتًا كي لا يثقل كاهلها بآلامه. أخذ سيرجي أيضًا يبكي، ولكن بصمت، وبعد أن استدار ليمسح عنه دموعه عاد وقد أبقى يده على عينيه، وكأنه يأبى أن يواجه الحال الذي صار إليه ابن أخته.

نظر إليَّ فاسيلي من بين أحضان أمي وأطلق تنهيدة، ثم قبَّل خديَّ بشفاه متشققه، خدشت بشرتي، فاحتضنتُه بشدة. شعرت بملمس كل ضلع في ظهره، وتمتمتُ:

- كم تسرني رؤيتك!

فرد:

- إن سعادتي برؤيتك أضعاف سعادتكِ يا أختي الجميلة.

فضحكتُ، كما كنت أفعل دومًا عندما يناغشني فاسيلي. فلا شك أني لم أكن جميلة، فقد كنت هزيلةً متسخة، شعري كالليف خشونة، وبشرتي متشققة. ثم أدركت أن فاسيلي لم يكن يمزح، فقد كانت عيناه مغرورقتين بالدموع كما لو كنت أجمل فتاة يراها منذ زمن، وجعلني هذا أرغب في البكاء مثله، ولكن أي نفع في هذا لأخي الكسير، فضربته ضربة خفيفة على كتفه وسألته أن يدخر أكاذيبه لمن يصدقها، وكان هذا كافيًا لانتزاع ابتسامة منه ولصرف انتباه أمي عن البكاء، كان كافيًا لإنقاذنا جميعًا من الانهيار.

قبَّل سيرجي فاسيلي وحثه على الجلوس، وراح فاسيلي يجز على أسنانه وهو يثني ركبتيه وكل حركة تعذِّبه. هل أصيب في المعركة؟ أم عذبه حراسه؟ جلست أمي بجانبه وأخذت تمرر يدها على كمه ثم على كتفه، في محاولة مستمرة لتطمئنَّ أن ابنها ما زال حيًّا.

تخيلتُ أن يكون لَمُّ الشمل العائلي هذا مجموعةً من الأصوات النشاز، كلٌّ يتبارى لمشاركة قصصه، ولكن السنوات التي انفصلنا فيها عن بعضنا بعضًا احتوت من الفظائع ما يحسُن معه الصمت عنها، فهدأت المحادثة سريعًا. قال فاسيلي إنهم يعاملونه جيدًا، ما أجلاها من كذبة! وطمأنته أنَّ لدينا طعامًا وافرًا! حثَّ سيرجي فاسيلي على إخبارنا عن المعارك التي حارب فيها، ولكن أخي -الذي أراد منذ صغره أن يكون جنديًّا- رفض أن يتحدث عن الحرب، وقال:

- لا فائدة من الكلام.. لقد خسرنا.

وكان واضحًا أن كل المواضيع تنتهي بالصمت المحبط نفسه. فقلت:

- لقد حالف خالي سيرجي الحظَّ منذ أيام قليلة، فجاءنا ببعض أسماك الرنجة المجففة؛ ما ذكرني باليوم الذي حاول أبي فيه أن يعلمك الصيد.

كانت هذه إحدى حكايات عائلتنا الشهيرة، حكاية يرويها كلٌّ واحدٍ منا رويًا مختلفًا، من منظوره الخاص. فعند فاسيلي هي قصة رمزية عن الآباء

t.me/yasmeenbook

والأبناء، فيها أنَّ أبي مقتنعٌ أنه على صواب، رغم قلة خبرته، وفاسيلي يحرجه بأن يصطاد سمكةً أكبر من سمكته. وبالنسبة إلى أمي، فالقصة مثالٌ لغباء الرجال وعنادهم، إذ يتفاخرون بالوليمة التي سيحضرونها على العشاء، ثم بعد ساعاتٍ ثلاث، لا يعودون إلا بسمكتي شبّوط تافهتين. أما أنا فأذكر أني كنت أحوم بالقرب من ضفة النهر مدركةً أنه عليَّ ألّا أشتت تركيز أبي، ولكن يمنعني فضولي من الابتعاد. كانت واحدةً من عشرات الذكريات التي أحتفظ بها لبريالكو، وقد راحت كلُّ الأحداثِ تذوب في بعضها بعضًا لتتحول إلى كلٍّ واحدٍ مُعمَّمِ التفاصيل، فيه ضوء الشمس يرقص على صفحة الماء، وكومة من أوراق شجر تتهشم تحت قدميّ.

ثم قال سيرجي:

- هل تتذكرون لفائفَ السمك التي كانت "إلينا" تصنعها؟ كنت كلما زرتكم توسلتُ إليها أن تصنعها.

فأضاف فاسيلي:

- وكعكةَ العسل، ما زالت تراودني بشأنها الأحلام.

ثم رُحنا نعدِّد أصناف الطعام التي كانت تعدها "إلينا" في نزهات بريالكو، والتي كنا نترك أغلبها ولم نأكل منها إلا القليل، وأخذَنا ذلك إلى مناقشة مثيرة لأبرز ضيوف أمي ورعاياها غريبي الأطوار، وتحدثنا عن كل الناس الذين كنا نعرفهم حينها بمن فيهم جيراننا الذين كان فاسيلي دائمًا ما يحاول أن يحظى بإعجاب ابنتهم الكبرى. فسأل:

- أما زلتِ ترينهم؟

فهززت رأسي نفيًا، وقلت:

- لقد رحلوا عندما استولوا على منزلهم، بعد منزلنا بمدة قصيرة، كانوا ككثير غيرهم قد اختفوا بكل بساطة، فقال فاسيلي:

- حسنًا، لم يكن لديها أي اهتمام بي على أي حال. كانت امرأة ناضجة ولم أكن إلا فتى في السابعة عشرة، طفلًا في الحقيقة.

تظاهر فاسيلي بأن الأمر لا يهمه، ولكن لطالما كان يستخدم النِّكات ليخفي مشاعره. هل حقًّا وقع في حبها؟ هل أراد أن يُثبِتَ أنه جندي جيد من أجلها؟ لو أن الأمر كذلك، فإن غيابها مأساةٌ جديدة سيعانيها. كنت قد أصبحت أكثر اعتيادًا على المدينة الخاوية، حتى إني لم أستطع تبين كيف بدا الأمر لفاسيلي وأنا أخبره أن الجميع قد رحلوا عنها. لم يمضِ أكثر من عشر دقائق إلا وأتى قائد السجن، وسط حارسين. تشبَّثتْ أمي بذراع فاسيلي، في حين اعترض سيرجي قائلًا:

- إننا وُعِدنا بأن نحظى معه بوقت أطول.

ولكن الرجال تجاهلوه. وأمسك أضخمُ الحارسين كتفَ فاسيلي بقبضة قوية، غارسًا إبهامه في كتفه، فتأوه ألمًا. دفع به الحارس إلى يدي زميله الذي قام بدوره بجر جسد أخي المترنح بعيدًا. لم يمنحونا فرصة للوداع ولا لعناق أخير، لم يكن حاضرًا إلا ولولة أمي، ومحاولات يائسة من سيرجي لتعزيتها، وأما أنا فأخرستني الصدمة. وقف قائد السجن في المدخل مبديًا نفاد صبره، وأخيرًا تمكن سيرجي من جعل أمي تتحرك، فوضعتُ ذراعي في ذراعها ومضينا خلف سيرجي وقائد السجن بخطى ثقيلة مجهدة، وأخذت أبذل كل جهدي لتسكينها، ماسحةً الدموعَ عن عينيها، بطرف كُمّي، فقد قايضنا مناديلَنا بأشياء أخرى منذ زمن بعيد. وإن كان السجن موحشًا عندما قدمنا، فها هو الآن قد أصبح أشد وحشةً ونحن في طريقنا للخروج. مررتُ بأحلك الأيام لأني كنت أومن أن معاناتي مؤقتةٌ وأن فاسيلي سيعود يومًا ما ويتولى المسؤولية، وقد تداعى هذا الإيمان الآن مع تداعي قوة أخي، وبدلًا من تسليم المسؤولية له، صار لزامًا عليَّ أن أتحمل مسؤوليته هو أيضًا، ثم تضرعت أمي إلى سيرجي قائلة:

- متى سيمكننا أن نراه ثانيةً؟

كان سيرجي يبدو مرهقًا، تمامًا مثلي، وسألته أمي:

- عما كنت تتحدث مع هذا الحارس البغيض؟

- كنت أسأله إذا ما كان سيُحال إلى المحاكمة.

t.me/yasmeenbook

فارتعبت أمي وحدقتُ إلى سيرجي. كان آخر ما نريده هو أن تضربَ أمي نوبةٌ من الغضب على أعتاب السجن. فواصل سيرجي:

- لم يُقرَّر شيء بعد، ولكن الحارس قال إن بإمكاننا أن نرسل له طعامًا.

كما لو كان لدينا ما ندخره، هكذا حدثتني نفسي بمرارة. ثم خطر لي وجه فاسيلي وقد غار خداه، لقد كان أقرب إلى الموت جوعًا منا، فقلت:

- سنرسل له الطعام، لا ريب.

بدا سيرجي متشككًا، ولكن أمي نظرت إليَّ بامتنان وببسمة تفطر القلب. سأتولى عبء هذا الأمر من أجلها كما هو من أجل فاسيلي، فقلتُ:

- سأقايض معطفي.

فهز سيرجي رأسه، قائلًا:

- هراء!

ولكني تجاهلته ومضيت قائلةً:

- يمكنني أن ألفَّ نفسي في بطانية عندما أخرج من المنزل، سيعطيني هذا من الدفء ما يمنحني إياه المعطف، والمعاطف دائمًا ما تجلب ثمنًا جيدًا، يمكنني أن أحصل على بطاطس وبعض الخضراوات، بل.. ربما ودجاجةً أيضًا.

مالت أمي لتستند إليَّ، كم صارت هزيلةً! لا أشعر بأي وزن لها، قالت:

- خذي معطفي؛ فأنتِ من يخرج طيلة اليوم وينتظر في طوابير الخبز تلك، أما أنا فلا حاجة إليَّ به.

كان معطف أمي غاليًا جدًّا، معطفٌ من ذلك الزمن الذي اعتاد فيه أبي الشكوى من فواتير الخياطة، مصنوعًا من الصوف الأزرق السميك المزركش بالفراء خِصِّيصَى ليغازل قدَّها البديع. بتنورةٍ تصدر حفيفًا أنيقًا حول كعبي حذائها وهي تسير فيه. كان آخر ما تبقى من ماضي أناقتها. قالت:

- من أجل فاسيلي.

فأومأتُ برأسي موافقةً. سأرتدي الأثمال إن نفع هذا أخي.

سمعت، فيما تلا ذلك بسنوات، أن بتروجراد فقدت نصف سكانها بحلول سنة 1920، ومن تبقى منّا أصبح يأكل من خشاش الأرض، فجردنا المدينةَ من كل ما يمكن أكله. أصبح الطعام كنزنا الأكبر. لم أعد أجزع عندما أرى جثث الحيوانات في الشارع، رغم أنه كان من النادر أن ترى جثةً بأكملها، فقد كانت الخيل والكلاب يُنزع عنها اللحمُ أولًا بأول. وفي تلك الأشهر الأولى البائسة اعتمد بقاؤنا على قيد الحياة على من أسميناهم التجار المتنقلين، هؤلاء الذين يقايضون في الزوايا المظلمة. اشترى لنا معطفُ أمي عدةَ أسابيعَ من الطعام وما يكفي لإرسال بعض الطعام إلى فاسيلي، ولكن لم يعد لديَّ شيء ذو قيمة لأقايض به، فرحتُ أغسل الثياب أو أصلح الملابس مقابلَ كيسٍ من أسماك الرنجة، أو حتى قليلٍ منها، وعُرض عليَّ ما هو أقلُ من ذلك شهيةً، ولكنني كنت أرفضه فورًا، ولكن في كل مرة كنت أسأل نفسي ما الحد الذي سأقبل عنده بأي شيء يُعرَض عليَّ؟

وعندما أصبح الجو أكثر دفئًا، بدأت أسير حافيةً لأحمي حذائي البالي من المزيد من الشقوق، وانضممتُ إلى بقية الناجين، الجربى، ننقب الأُصصَ والجرارَ في حدائق كانت يومًا ما بيوتًا رائعة؛ بحثًا عما يمكن أكله من أعشاب، وعندما نفرغ منها أقطف الحشائش، وأقضم ما بها من أوراق. كنت أُجدُّ البحث عن أكواز الصنوبر، فنطحنها لنصنع منها شايًا مُرًّا، بل وصل بي الأمر إلى أن أقترح الذهاب إلى بريالكو، فقد غلب اشتياقي للطعام الطازج ذكرياتِ قتل أبي، ولكنَّ سيرجي شرح لي لِما لا يمكننا الذهاب إلى هناك، فقد كاد ألّا يكون هناك قطاراتٌ تنتقل بين بتروجراد وموسكو، ناهيك بخطوط الأفرع الصغيرة، وحتى إن استطعنا أن نجد سبيلًا للوصول إلى ضيعتنا القديمة فيجب ألّا نخاطرَ بالذهاب بغير جوازات سفر، فهو أمر لا تهاون فيه مع «الناس السابقين».

فيما مضى كانت أمي ستحتج على مثل هذا الظلم احتجاجًا غاضبًا، ولكنَّ الحرمانَ قد أوهنها، وهي الآن تقضي معظم وقتها على فراش سيرجي، بين القراءة والرقاد، ونادرًا ما تخرج، وتقول:

- ماذا يوجد لأراه إن خرجت؟

لم يزل سيرجي يتحدث بتفاؤل عن قدوم أيام أفضل، ولكنه لم يفُته حظه من المعاناة أيضًا، فمجلته تغيَّر اسمها فصار «الأصوات الجديدة»، في نوع من التوبيخ للأصوات القديمة كسيرجي. كما نُحِّيَ من وظيفته محررًا من أجل عيون شاعرٍ مرتقب، شاعر شيوعيٍ شاب. نعم أبقوا عليه بوصفه مُساهِمًا، ولكنه لم يعد رجلًا ذا نفوذ. أما ذوو النفوذ حقًّا، وكل البلاشفة، فقد انتقلوا إلى موسكو، العاصمة الجديدة للجمهورية السوفيتية الروسية. كما أن سيرجي لم يعرف أنّ فاسيلي أُرسِل إلى معسكر من معسكرات العمل إلا بعد شهور عديدة، عندما أرسل أخي خطابًا قصيرًا خاليًا من أي مشاعر، خطابًا لا شك أنه لم يُرسل إلا بعد تمحيص شديد. كنت أرسل لفاسيلي طرودًا صغيرة من الطعام متى تيسر لي ذلك، ولكن لم يكن لديَّ طريقة أعرف بها هل تصل إليه أم لا.

حين أقبل الصيف، لم يجلب معه لياليَ الأرق والعرق فحسب، بل وحشودَ القمل أيضًا، ومهما نظفتُ ملابسي أو مشّطتْ أمي شعري كنا لا نكف عن الهرش والتألم، صنفٌ جديد من العذاب، لمزيد من البؤس. وفي نوبة من الإحباط، هبطتُ إلى المكاتب في المجلة وأخذت مقصًا وبدأت أقص شعري، ولم أتوقف إلا وشعري عند حلمتي أذني، وحينها شعرت بخفة غير معتادة أسفل رقبتي، إلا أنها راقت لي. أجهشت أمي بالبكاء حين رأتني، وقالت:

- ماذا فعلتِ؟ أصبحتِ تبدين كالصبيان.

فقال سيرجي:

- الشعر القصير أحدث صيحات الموضة في فرنسا هذه الأيام، على ما أسمع.

وأومأ إليَّ إيماءة رضا، قائلًا:

- أنتِ الآن على أحدث صيحة.

كنت أعتقد أنه يقول ذلك فقط ليريحني، فلا يمكن أن يُعجَب أحد بامرأة قصيرة الشعر إلى هذا الحد.

لم يمرَّ وقت طويل بعد هذا إلا وقد دهمني الفتور وبدأت أشعر بالسخونة. أدركتْ أمي أني أعاني الحمى عندما لم يفلح حتى الخبز في إغرائي بالنهوض من فراشي. أصرَّتْ على رعايتي، حتى وإن كانت هي نفسُها تبدو مريضة، ولم ينتهِ اليومُ إلا وهي ممددةٌ على الفراش إلى جانبي، تنبعث الحرارة من جسدها هي أيضًا. وفي الصباح التالي، لم يكد سيرجي يحضر لنا الماء العذب حتى خارت قواه وانهار على البطانية التي كان يفترشها بدلًا من السرير. وها نحن جميعًا في حال بين اليقظة والنوم، مرهقين نكاد نهذي، تُعذِّب جلودنا أشواك تسري عبر أذرعنا وصدورنا. ظللنا أيامًا نقتات على بقايا كيس من الكاشا والماء الذي نجحتُ في إحضاره بشق النفس من دورة المياه بالمجلة من الدور السفلي. كان إبريق الماء يهتز بين يديَّ الواهنتين، ولم يُعنِّي على الإمساك به جيدًا إلا إدراكي أننا لن نستطيع أن نشتري غيره.

وأخيرًا، استيقظت ذات صباحٍ لأجدَني أحسن وعيًا بما حولي، وأصبح بإمكاني أن أرفع رأسي دون الشعور بالغثيان أو أن ذراعيّ عليهما أثقال غليظة. رأيت سيرجي واقفًا بجوار النافذة يرتجل شِعره، وقد أضاءت خديه الشاحبين بشائر ضوء النهار. سمع سيرجي صوت حفيف الملاءة فالتفت وسألني:

- أتشعرين بتحسن؟

فأومأت برأسي أن نعم، فقال:

- وأنا أيضًا.

ثم أخرج بطاقة الطعام، وقال:

- لعل الوقتَ مناسب لرغيف من الخبز، هل أنتِ جائعة؟

أدهشني حقًّا أني كنت جائعة بالفعل. قال سيرجي:

- يوجد ماء جيد في الحوض، سأعود بسرعة.

لم تزل أمي نائمةً، وضعت راحة يدي على جبينها، فوجدته ساخنًا، ولكن يبدو أن الحمى قد خفّت. بعد أن ذهب سيرجي، قمت من الفراش بهدوء وخلعت القميص والثياب الداخلية التي كنت أنام بها. لم يكن لدينا صابون، ولكنَّ

t.me/yasmeenbook

غسل جلدي غسلًا خفيفًا بالماء النظيف بدا كميلاد جديد. نشرت الملابس وارتديت فستاني. كان شعوري غريبًا أن ألبس الفستان بلا شيء تحته.

رحت أنظر في أكوام كتب سيرجي وأنا أحاول أن أبقى هادئة ما استطعت لئلا أوقظ أمي من نومها. معظم الكتب كانت رواياتٍ إنجليزيةً أو فرنسيةً، لا فائدة منها في السوق السوداء، فقد تتسبب في وصمك بالخيانة الطبقية. فتحتُ كتابًا لم أقرأه من قبل، «جين أير». وكان على الغلاف الأمامي لوحةٌ لم ينقش عليها إلا «فيلدز». فشعرت بنغزة ألم وأنا أتذكر مربيتي التي تجنبت أسئلتي وهي تحزم حقائبها. هل ترَكتْ هذا الكتاب خلفها سهوًا؟ أم كان هدية لسيرجي الطيب؟ قرأت الصفحات الأولى على عجل، ثم وجدتُ نفسي منغمسةً في القصة، فيما عانته جين من مصائب وخيبات أمل بدت كمرآة لمعاناتي. شرعتُ في القراءة وظهري مستند إلى الحائط وساقاي ممدودتان، ثم انكفأتُ على وجهي، وعندما بدأت ذراعاي ترتجفان من طول المُكث على هذا الوضع، انتقلت إلى الكرسي، جوارَ النافذة. وهناك بدأت أشعر بالقلق؛ فأنفاس أمي بطيئة ضعيفة، يكاد صدرها ألّا يتحرك، جلست على حافة الفراش ونظرت من قريبٍ إلى وجهها المحمرّ، وفمِها وقد ارتخى. هل كانت نائمة فحسب؟ أم ازدادت مرضًا؟ هززتُ ذراعها برفق، ففتحتْ عينيها قليلًا وحدقت إليَّ بذبول. سألتها:

- كيف حالك؟

فغمغت كما لو أنها تقول: «الشيطان»، ثم أبعدتني عنها. سألتها:

- هل تشعرين بالعطش؟

فنظرت إليَّ غاضبةً كما لو كنتُ غريبًا غير مرغوب فيه. ثم استدارت وأغلقت عينيها، متمتمة بحنق ولكن بكلام لم أتبينه. عندما عاد سيرجي بعد ذهابه بقليل، كنت أتململ من القلق. لم يكن خالي نفسُه بصحة جيدة، فعيناه تحوطهما ظلال غائرة، ولكنه رأى أيضًا أن حال أمي تزداد سوءًا. قلت وقد أخذ مني القلق كل مأخذ:

- لا بد أن نجد طبيبًا.

فقال:

- ليس لديها أوراق سليمة.

أحسب أن حرمان الناس السابقين الرعايةَ الطبيةَ كان سبيل لينين لإبادتنا بأسرع ما يمكن. ثم لاحت لي فكرة، فهرولت خارجةً من الغرفة، وهبطت السلم طالبةً من سيرجي أن يعتني بأمي. الطريق إلى منزلنا القديم محفور في ذاكرتي حتى إني يمكنني أن أذهب إليه مغمضةَ العينين. ولقد كدت أتمنى لو أني حقًّا ذهبت مغمضة حتى لا أرى ما آلت إليه مدينتي من سوء، تلكَ التي كانت ذات يوم مدينةً عظيمة. بدا المنزل كما هو، على الأقل من الخارج. طرقت الباب، وشعرت بشيء من الراحة عندما فتحت لي أولجا. كانت أولجا دائمًا معتدلة المزاج بما يبعث على الارتياح، فأدركتُ على الفور من ارتياعها لمرآي إلى أي حد هويتُ. ثم تذكرت شعري المجزوز وفستاني الذي بدا فضفاضًا على جسدي الذابل، وأيضًا أني بغير ثياب داخلية. عقدتُ يديَّ على صدري لأخفي ثدييَّ، وقلت لها:

- أمي مريضة وأحتاج إلى رؤية كبيرة الممرضات.

فقالت:

- إنها في المستشفى.

رأيت شفتَي أولجا ترتعشان، ولكن لم يكن لديَّ وقت لأشعر بالشفقة عليها، فلن يكون لهذا من أثرٍ إلا تعطيلي، فقلت:

- أين؟

- بنك الصرافة الفرنسي القديم، هل حالتها خطِرة؟

ازداد الغضب في نفسي، فرددت:

- نعم.. حالتها خطِرة، وستموت إن لم أحصل على المساعدة.

فأطرقت أولجا رأسها في فزع جليٍّ، وقالت:

- سأدعو لها.

t.me/yasmeenbook

فقلت لنفسي، في ثورة مكتومة: وفيمَ سيجدي هذا؟ ثم تذكرت كل تلك المرات التي كانت أولجا تخفي فتات الطعام لنأكله أنا وأمي. إن التقيّات من النساء كحال أولجا يؤمِنّ حقًّا بقوة الدعاء، ثم أليسَ واجبًا عليَّ أن أحصل على المساعدة من كل ما تطاله يداي؟ ليكن الدعاءُ إذن. صافحتها بحرارة وشكرتها معبرة عن امتناني.

كانت واجهة البنك الفخمة مخطّطة بأعمدة حجرية سميكة، في تصميم يقصد به إعلان السلطة والقوة، وها هي القلعة المالية العظيمة قد صارت نصبًا تذكاريًّا للمعاناة الإنسانية، فأصبحت الردهة الفخمة ذات السقف العالي غرفةَ انتظار مكتظة، والأرضية التي كانت ذات يوم من المرمر البراق تغطيها الآن زُمر من النساء والأطفال في ثياب بالية، ونوافذ الصرافين صارت محلًا تقف فيه الممرضات، يقف أمام كل واحدة منهنّ طابور بطول عشرات من الأشخاص، وصرخاتُ الأطفال والأصوات الغاضبة تدوِّي في الفضاء الفسيح. تمركز جندي يعلِّق بندقيةً على ظهره في المدخل. قال:

- الأوراق!

فقلت:

- أحتاج إلى رؤية الممرضة فاسيتسكي.

- لماذا؟

كان يبدو عليه الضجر، وأنه يريد أن يتخلص مني أكثرَ مما يريد أن يساعد. وقعت عيناي على البثور القرمزية على خديه وتذكرت أبي وهو يقول إن الجنود الشباب في حاجة شديدة إلى الانضباط، فبذلتُ قصارى جهدي في تقليد أمي وهي تعطي الأوامر للخدم، لأقول باقتضاب سريع:

- أعلِمْها أنَّ ناديا أنتونوفا شولكينا تريد مقابلتها.

تفحصني الجندي وهو يوازن اختياراته، وبخلاف أولجا لم يبدُ أن رثاثتي تزعجه، فلا ريب أنه رأى ما هو أسوأ، فقال:

- انتظري هنا.

ثم سار عبر ممر داخلي ببطء بغيض. أخذتِ الدقائقُ تمر ببطء وإحباطي يزداد. وأخيرًا، وعندما كان رأسي قد بدأ يضطرب من الضجة المتواصلة، رأيت الممرضة فاسيتسكي تسير ناحيتي بطريقتها الفظة المعتادة. كان صوتها حازمًا ولكنَّ عينيها متورمتان من الإرهاق، وقالت:

- الرفيق شولكينا.. ماذا تريدين؟

فقلت:

- أمي تعاني الحمى منذ أيام.

ثم رفعتُ كمي وأريتها النتوءات الحمراء الباهتةَ المنتشرة على ذراعي من الداخل، قائلةً لها:

- وهي أيضًا تعاني طفحًا كهذا.

تفحصت الممرضة فاسيتسكي جلدي بشفاه مزمومة، ثم قالت:

- التيفوس.

- ماذا أصنع؟ هل يوجد دواء يمكنني أن أعطيه لها؟

فهزت رأسها وقالت:

- إن نصف ممرضاتي قد متن بالتيفوس أو بالكوليرا، وكلما كان العمر متقدمًا كانت وطأة المرض أشد، لا سبيل للعلاج منه، وحتى إن كانت توجد طريقة فقد نفدت الإمدادات، ولا نستطيع أن نُجري أي جراحات لأنه لم يعد لدينا إبر ولا ضمادات.

ثم نظرتْ إليَّ تلك النظرةَ الجافة التي كانت تستخدمها مع الممرضات لحفظ النظام، وقالت:

- أفضل نصيحة أقدمها لكِ الآن هي أن تغادري المكان هنا، قبل أن تصابي بمرض آخر.

فقلت:

- لا بد أنه يوجد ما يمكنني أن أساعدها به.

كانت الممرضة فاسيتسكي شيوعيةً حتى النخاع، فلم توصِ بالدعاء لأمي، ولم تقل شيئًا، فكان هذا في حد ذاته جوابًا كافيًا. إن أمي تحتضر وليس بمقدوري فعل أي شيء حيال ذلك.

استغرق الأمرُ يومين. جلستُ مع أمي ورقدت إلى جانبها، كنت أغسل وجهها وأمشط شعرها، رحتُ أقرأ واحدًا من كتب سيرجي الشعرية بصوت مسموع، كما كانت هي تقرأ لي الحكايات الخيالية في صغري، وعندما كانت ترتعش أو تهمهم هاذيةً، أُمسك يدها وأقول لها إني أحبها. وحلّتِ النهايةُ في سكينة. سكَنَتْ سكونًا أعمقَ من النوم، ثم كفّت عن التنفس. قلت لنفسي: عليكِ أن تمتنّي لأن معاناتها قد انتهت، رغم أني لم أكن قادرة على الشعور بأي شيء. نزلت لأخبر سيرجي، وخرجت مني الكلمات ببرود غير طبيعي:

- أمي ماتَت.

احتضنني سيرجي وراح يبكي، ولم أقدر إلا على الإصغاء والإيماء ببلادة، كل ذلك بصلابةِ وهشاشةِ دميةٍ من خزف. لفَّ سيرجي جسد أمي ببطانيتها، ورشا القائم على أمر المقبرة بحذائها وجوربها ليتسنى دفنها إلى جانب أبي. كرَّم سيرجي أمي بحديثه عن أخته الكبرى التي كانت تُذهل سانت بطرسبرج بأسرها. الحقيقةُ أن تلك المرأة التي تحدَّث عنها قد ماتت منذ سنوات، والحقيقةُ الأشدُّ ألمًا أنه كان من الأسهل الوقوع في حب تلك الإنسانة التي صارت إليها، الأفضل والأكثر هدوءًا. ازددنا تقاربًا أنا وأمي خلال تلك السنوات الثلاث التي أعقبت وفاة أبي، وكان اعتنائي بها هو محور حياتي، فما العمل الآن؟ مَن أنا في غيابها؟

ليس سيرجي بالشخص الذي يَقرُّ في مكان واحد في الأحوال العادية. بعد دفن أمي، انتقل من الأسى إلى الكتابة. ورغم أن مقالاته بـ «الأصوات الجديدة» تتناقص يومًا بعد يوم، فهو دومًا يتنقل من مكان إلى آخر، محاولًا أن يبقى على اتصال مع حفنة من الأصدقاء الذين لم يزل على اتصال بهم في المدينة. كنت أحتمل الغرفة عندما يكون بها، إذ لا يكف عن الحديث رغم ندرةِ ردودي. ولكني أقضي معظم الأيام وحدي، أحاول أن أمارس القراءة أو الخياطة، والصمت ينخر في عظامي. ذلك الجزء من روحي الذي لم يزل

قادرًا على الشعور بالأمل، مات مع أمي. لا يوجد ما أطمح إليه، لا شيء إلا ألم التحسر على ما مضى. صرت مجرد أنفاس تتردد في حاضر أبدي كئيب.

بحلول نهاية 1920، كنت في التاسعة عشرة، ولم أكن إلا أطلال إنسان. لم يكن لديَّ أصدقاء، ولا صلات بالعالم الأكبر. كل متع النساء المعتادة لمن هم في مثل عمري من غرام وعروض زواج، كلها، بعيدة تمامًا عن متناول يديَّ، فلا يمكن حتى تخيلها. وبعد أيام قليلة من أول عاصفة شتوية، رأيت امرأة عجوزًا ترقد فوق كومة من الثلج، وسألت نفسي لِمَ هي بهذا الغباء حتى ترقد في مثل هذا الموضع؟ ثم اقتربت لأرى نظرتها الحائرة وبشرتها المتجمدة. قدماها الحافيتان المليئتان بالتجاعيد قد برزتا من تحت طرف فستانها، وسألت نفسي هل سُرق حذاؤها قبل موتها أم بعده؟ ابتعدتُ مسرعة وقلت لنفسي ليست مشكلتي، ولاحظت افتقاري إلى الشفقة كما لو كنت أنظر إلى نفسي من بعيد، وكان في هذا دليل آخر على أني قد تغيرت كثيرًا. في الأسبوع التالي، خرَّ أمامي على الأرض رجل عجوز تقوس ظهره، سقط كما لو كانت رغبته في الحياة اختفت بين خطوة وأخرى. فاستدرت من حوله مباشرةً وقلبي متجمد كنهر نيفا. وذات مرة مررت على لفَّة قد تكون طفلًا ميتًا، فأشحت برأسي بعيدًا. لم أشأ حتى أن أعرف.

سيرجي هو من أخرجني من تلك الظلمات، عندما بدأت تنذر بأنها قد تصبح سجنًا لي للأبد. ذات مساء ونحن نرتشف حساء الشعير، قطرةً قطرةً ليدوم قدرَ ما نستطيع، راح يصف آخر إساءات محرر «الأصوات الجديدة» الجديد، الذي كان سيرجي يؤمن أنه أبعد ما يمكن عن الثقافة. قال:

- يريد أن يضع رسوماتٍ في كل المقالات، لا على الغلاف فقط فحسب، والهدف الأساسي للمجلات الأدبية هو الكلمة، ألا تتفقين معي؟

أومأت بالموافقة، سعيدة بأن يُسهب في الكلام، فالأمر أهون كثيرًا عندما لا أضطر إلى الكلام، فواصل قائلًا:

- إنه يختزل كل المقالات ويملأ نصف مساحتها بالصور، كما لو كانت كتبًا للأطفال.

t.me/yasmeenbook

ثم توقف سيرجي فجأة وأشار إليَّ بملعقته، قائلًا:

- إنهم يبحثون عن فنانينَ جُدد، رفاقٍ شباب مخلصين، لخلق رؤى عن المستقبل، بنص كلماته هو لا كلماتي يجب عليكِ أن تتقدمي للعمل.

كنت لم أزل أحتفظ بعلبة ألواني، أحد المقتنيات القليلة التي تبقت لي من حياتي الماضية، بين الحين والحين كنت أخرج الأقلام وأجريها بين أصابعي، فنعومتها تمنحني شيئًا من الطمأنينة، ولكني لم أستخدمها من زمن سحيق، ولا أعرف هل ما زال بمقدوري إنتاج أي شيء ذي قيمة أم لا. فقلت:

- لستُ عضوًا في الحزب، فهل تعتقد أنهم سيقبلون بي؟

- على الأقل ما زلتِ صغيرة.

ثم نهض وعيناه في عينيَّ، وسرت بيننا شرارات من الأمل.

- سأذهب إلى الدور السفلي لأحضر لكِ شيئًا.. سأعود على الفور.

لم يكن لدينا إلا مصباح واحد عادة ما يستعمله سيرجي للقراءة. في تلك الليلة، وضعه وسط المنضدة بجوار رزمة من الأوراق أخذها من المكتب. مرّرتُ أصابعي على الفضاء الأبيض الناعم، على تلك المساحة الفارغة المخيفة، والتقطتُ القلم الأسود، ثم الأخضر. كانت المحاولات الأولى صعبةً ولا سلاسة فيها، ولكن، ودون مقدماتٍ، رأيت كل شيء: الأحرف الخارجية لورقة شجرة، فرسمت خطًّا متجهًا للأسفل، وبعض الخطوط المتجهة للخارج، فأصبح أمامي ما يبدو أنه شجرة، ثم بدأت يدي في التحرك تلقائيًّا، تتلقى أفكاري، وراحت تملأ الفراغ بالدوامات والظلال. لم تكن الصورة التي أرسمها لبتروجراد ولا حتى لبريالكو، بل كانت مكانًا موحشًا قُدِّر عليه الفناء. أضفت بعض اللون البني وبعض الرمادي لإبراز العمق والمنظور، وخرج إلى الحياة ذلك العالم الجامح الذي خلقته، ومعه خرجتُ للحياة.

أحضر سيرجي مسودات لأخبار يجري العمل عليها حاليًّا بالمجلة، وحثني على الاستمرار بالعمل. رفض المحرر أول مجموعة من الصور رسمتُها، كما رفض الثانية. وعند محاولتي الثالثة عرفت مراده: صورًا قوية جريئة تصوغها خيوط قوية جريئة، فرسمت امرأةً لها ساقان سميكتان كجذع شجرة، وكانت

ذراعاها القويتان ترفعان علمًا أحمر عليه نجمة حمراء، ورسمتُ بضربات قوية فلاحين وعمال مصانع بالغي الطول يقفون في شموخ. وهذه المرة، أومأ المحرر رأسه بالقبول وهو يتصفح المجموعة، وقال:

- هذا هو المراد.. بالضبط، فلتكن هذه الصورة صورةً للغلاف.

مكاتب «الأصوات الجديدة» كانت مليئة بالمؤمنين بالشيوعية المخلصين، ولكن لم يبدُ أنَّ أيًّا منهم يكترث بماضيَّ الأرستقراطي. كانوا من كل أرجاء روسيا، أبناءً وبناتٍ لفلاحين وأساتذة جامعات، يجمعهم إيمانهم بالبدايات الجديدة. وشيئًا فشيئًا بدأ حماسهم يغريني بالخروج من عزلتي، رغم أن دخولي في أي محادثة بسيطة ولو لدقائق معدودة كان يستنفد قواي. بدأتُ أقضي المزيد من الوقت هناك، وكان الكُتّاب الذين يريدون أن يقرؤوا مسوداتهم الأولى بصوت عالٍ يقرؤنها عليَّ. وكم أدهشني أن يغازلني أحد منضدي الحروف الشباب، رغم أني تحفظت للغاية في مبادلته المغازلة. وأخذ المحرر يدفع أجري بصفة غير رسمية على هيئة طرود من الطعام، معيدًا الحياة من جديد لجسدي، وأيضًا لثقتي بنفسي، حتى إني شعرت بالسعادة في بعض اللحظات، ولكم كان مدهشًا أن أعرف أن مثل هذا الشعور لم يزل ممكنًا.

كانت روسيا تمر بمرحلة صعبة من ميلاد جديد، وكان حالي حالها. بدأت سنة 1921 ببرد وكآبة لم تأتِ من قبل، ولكنّ الأيام بدأت تصير أقل بؤسًا. ففي مواجهة المجاعة التي ضربت عموم البلاد، راحت الحكومة تخفف من سياسة التحصيل الإجباري، وسُمِح للفلاحين ببيع بعض غلالهم، وأعادت بعض المحال والمقاهي فتح أبوابها. وفي أواخر الصيف، بدأ الطعام يصل من الأمريكيين. كان بعض كُتّاب «الأصوات الجديدة» يغمغمون بأن هذا الطعام المسمى بالعمل الخيري لم يكن إلا مكيدةً للتسلل إلى البلاد وإسقاط الحكومة، ولكن هذا لم يمنعهم من أخذ حصتهم. لم يكن لديَّ عن الأمريكيين إلا أفكارٌ نمطيةٌ غامضة، هم صاخبون وغير مهذبين، ولكن مهما تكن عيوبهم، فلقد صنعوا لنا ما لم يصنعه لينين، وعندما تشاركنا أنا وسيرجي قطعةً من الشوكولاتة تحصَّل عليها من أحد معارفه الغامضين، كدت أبكي فرحًا.

t.me/yasmeenbook

رأيت في بعض الأحيان فتياتٍ يرتدين قبعاتٍ وأحذيةً لم تبلَ من كثرة الاستعمال، وقلت لعلّي أحصل على ثيابٍ جديدة في يوم من الأيام. أرتدي الفستانين نفسهما من سنوات بعيدة، ورغم أني قصصت بوصات قليلة من عند الأطراف لأجعلهما أكثر حداثةً، فلا يوجد حقًّا ما يمكن عمله لإصلاحهما. كان حذائي متشققًا فأضطر إلى حشوه بالجرائد لأحمي قدميّ من لسعات البرد.

استئناف التجارة ولو بشكل غير منتظم يعني أنه الآن يمكن أن أتقاضى أجري مالًا لقاء العمل بوصفي مُساهمة في الأصوات الجديدة، قضيت ساعات طويلة في تحديد ما سأشتريه بكل روبل، ودائمًا ما كان ذلك طعامًا، فتخيُّلُ كل طعم لم يكد يختلف لذةً عن الأكل ذاته. وفي يوم من أيام سبتمبر، رأيت مُزارعًا يبيع منتجات آخر الصيف على عربة في الشارع، فذهبتُ إليه، وأخرجت عملةً من جيبي وسألته:

- كم كرزةً تشتري هذه؟

فقال:

- يمكنك أن تأخذيها كلها.

ثم صنع قرطاسًا من ورق ووضعها به لأستطيع حملها، وقال:

- نحن في نهاية الموسم، لن تدوم طويلًا على أي حال.

أعطاني الكرز، ومعه باقة من الزهور البرية، قائلًا:

- يشتري الجنود هذه الزهور أحيانًا، ولكن لم يشترِها أحد اليوم.

ضحكت حتى كدت أقهقه، فمن كان ليتخيل أن يكون أول رجل يهديني وردًا، في مثل ضِعف عمري وقد فقد نصف أسنانه؟ ورغم أني قررت أن أجعل من الكرز مفاجأةً لسيرجي، فإن هذا لم يمنعني من تجربة عينة وأنا في الطريق. كان مذاقها الحمضي قويًّا منعشًا، فأخذت أمص النواة مصًّا لأطيل استمتاعي بها. كنت على بُعد خطوات من مكتب «الأصوات الجديدة» عندما نادى صوت قائلًا:

- الرفيقة شولكينا؟

كان رجلًا يقف مقابل الواجهة الحجرية واضعًا يديه في جيبيه. رجلًا طويلًا حاد الملامح، يرتدي نظارة مستديرة أنزلها إلى منتصف أنفه. ورغم أني لم أرَ أليك سيميلكوف منذ سبع سنوات فإني تذكرته على الفور. وعلى الفور أيضًا تلاشى شعوري بالسعادة وراحة البال. قال أليك:

- أتيت لأرى خالكِ، ولكنه خرج لبعض الوقت. إنه يوم جميل جدًّا، لذا ارتأيت أن أنتظره بالخارج.

كان تقريبًا في عمر سيرجي، بين منتصف وأواخر الثلاثينيات، ولم تؤثر به تلك الشيخوخة المبكرة التي يجلبها الجوع المميت. لم يزل شعره وشاربه محتفظين بلونهما الأسمر الداكن، ووقفته مستقيمة واثقة، وقد جعلته بِزَّته الرمادية الجديدة وحذاؤه الملمع يبدو كزائر من عالم آخر أكثر تحضرًا. تفحصتْ عيناه جسدي، بالطريقة نفسها التي اعتاد الباعة الجائلون أن يتفحصوا بها ما كنت أحضره لهم من أغراض أقايضها، بنظرة تقول: «ما الذي تساويه هذه؟».

مد يده إليَّ، بأصابعَ طويلةٍ وأظفارٍ لا تشوبها شائبة، ولكني قبضت يديّ على لفافاتي بمزيد من الإحكام دون أن يلحظ. ثم قال:

- أنا أليكساندر سيميلكوف، ربما لا تذكرينني؟

أنّى لي أن أنساه؟ ها هو الرجل المسؤول عن موت أبي، يتحدث إليَّ كصديق قديم. وددت لو أواصل طريقي وأتجاهله تمامًا، ولكني كنت أعرف أنه يجب عليَّ ألا أضايقه. فقلت:

- صديق خالي سيرجي؟

- لقد مكثتُ في منزل عائلتك الصيفي ذات مرة. ولكنك تغيرتِ كثيرًا عن ذاك الحين، فأنتِ الآن قد نضجتِ تمامًا.

وابتسم ابتسامة من تروقه هذه التغيرات.

- إلا أنك لم تتغير بالمرة.

- إنه للطف منكِ أن تقولي هذا، كيف حال أمك؟

- ماتت السنة الماضية بالتيفوس.

t.me/yasmeenbook

- لكم يؤسفني سماع هذا، فقد كانت امرأةً فاتنة.

دفعني تعبيره وما فيه من اعتداد بنفسه إلى استفزازه، فقلت:

- ساءت أحوال أمي كثيرًا بعد موت أبي.

لم يتغير وجه أليك، كأننا نتحدث عن شخص غريب، وقال:

- إنها لخسارة كبيرة لعائلتك.

فواصلت كلامي:

- لقد أطلقوا عليه النهار أمام عيني، شاهدته يموت.

وللحظة كنا نقف على شفا جرف هاوٍ، وكان التوتر بيننا على أشد ما يكون. هل تماديت أكثر مما ينبغي؟ ثم تحدث أليك ببطء بالفرنسية، قائلًا:

- يلزمنا أن نتصرف بفظاعة لئلا يضطر الناس إلى التصرف على هذا النحو.

ثم انتقل إلى الروسية قائلًا:

- اقتباسٌ من دانتون، في أثناء الثورة الفرنسية؛ إن اللهفة للحرية تدفع الدهماء إلى العنف، ويجب على الدولة أن تصرف تلك الدوافع في مصارفها لتمنع إراقة الدماء.

لطالما كان متحدثًا فصيحًا، سريعًا في إبراز حججه؛ إحدى صفاته التي كانت أمي تولع بها. وتابع حديثه قائلًا:

- لم أخطط أو أشجع على الهجوم على أبيكِ، فإني لا أحمل ضغينةً لعائلتك، ولقد بذلت كل جهدي لأساعدكم عندما كان هذا في مقدوري، فأخوكِ فاسيلي مثلًا...

فتردد في صدري ألم عصبي ألفته، وقلت:

- هل هو بخير؟

فأشار بالإيجاب، ثم واصل قائلًا:

- عندما استسلم فوجُ فاسيلي، أعدموا معظم الضباط، وكنت أنا من رأى اسمه في القائمة وأوصيتُ بأن يُعاد تأهيله بدلًا من إعدامه، وكان هذا

هو القرار الصائب. وهو الآن عاملٌ صالح في المعسكر، وقد جئت إلى هنا اليوم، لأخبر سيرجي أنه قد وُوفِق على إعادة تكليف فاسيلي.

- ما معنى هذا؟

- الجيش الأحمر جيش قوي، إلا أنه غير منضبط، ونحن محاطون بأعداءٍ يرفضون الاعتراف بالدولة السوفيتية الجديدة، أعداء كألمانيا وإنجلترا يمكن أن يدفعوا بقواتهم إلينا في أي لحظة، ولا يمكننا أن نرد غزوًا خارجيًّا بفلاحين لا يكادون يحسنون تصويب بندقية، ناهيك بالمشي في تشكيل عسكري، فاتُّخِذ قرار على أعلى المستويات للعفو عن ضباط سابقين معينين في الجيش الإمبراطوري، من الصغار نسبيًّا حتى لا يكونوا قد نخرهم الفساد، وعُرِض على فاسيلي مهمة وقبلها.

لأني دائمًا ما أعددتُ نفسي لتوقع السيئ، استغرقَ الأمر مني بعض الوقت لأفهم أن هذه أخبار جيدة، فالآن لن يغادر فاسيلي السجن فحسب، بل سيكون ضابطًا من جديد، وهذا هو كل ما أراده دومًا. فقلت:

- شكرًا لك.

وكانت الكلمات غير كافية للتعبير عن شعوري بالارتياح، وأخذتْ ريبتي بأليك تتحول شيئًا فشيئًا إلى امتنان حذر، ثم قلت:

- أتحب أن نصعد وأصنع لك كوبًا من الشاي، فأنا أحتاج إلى أن أضع هذه الأشياء بالداخل، وأنا على يقين أن سيرجي سيعود قريبًا.

كان حضور أليك الطاغي أكبر مما تتحمله غرفة سيرجي الضيقة، ولكني بذلت قصارى جهدي لأتصرف على طبيعتي. كانت آخر رسوماتي مبعثرة على المنضدة، انحنى أليك لينظر من كثب، وقال:

- هذه رسومات رائعة، هل أنتِ من رسمها؟

وعندما أومأتُ بنعم، تمتم تمتمةَ المُقدِّر لها، قائلًا:

- أعرف بعض الأشخاص في مفوضية الثقافة، وهم في بحث دائم عن فنانين ليصنعوا لهم الملصقات ومثل هذه الأشياء، يمكنني أن أذكركِ عندهم.

لم يكن لديَّ فكرة عما إذا كان هذا عرضًا حقيقيًّا أم أنها طريقة أليك في التباهي، فقلت:

- سيكون هذا لطفًا بالغًا منك.

بدأتُ في صب الماء في الغلاية، فأشاح أليك بيده ليوقفني، وقال:

- أشعر بالجوع، ومن يدري إلى متى سيغيب سيرجي. لمَ لا نذهب لتناول الغداء، لا بد أنه يوجد مقصف قريبًا.

- نعم، يوجد واحد عند زاوية الشارع، ولكني لا أملك بطاقة طعام.

- سأتدبر هذا الأمر.

لو قيل لي، قبل ذلك بيوم واحد، إني سأقضي بعض الوقت مع أليك من دون كلّ الناس برغبتي، لما كنت لأصدق هذا. ورغم ذلك، فإني لم أقبل عرضَه فحسب، بلْ وجدتُ نفسي أتُوقُ للذهاب، فمعرفتي بما صنع من أجل فاسيلي خففت من كرهي له، وسلوكه بما فيه من استبداد يروقني بشكل غريب. وبعد سنوات طويلة من قيامي بخدمة نفسي بنفسي، فإنَّ اصطحابي لتناول الغداء رفاهية لي. في المقصف، انتحى أليك بالمدير جانبًا، وأراه بطاقةً، كان لها مفعول السحر، فقطع المدير الطابور من أجلنا وأوقفنا في أوله، ولم يكتفِ بهذا، بل انتظر معنا حتى يطمئن إلى أننا حصلنا على حصص كبيرة، ثم قادنا إلى خلوة في آخر الغرفة، بها منضدة وكراسي أربعة، وقال:

- للخاصة من الزوّار!

قالها وانبتهتُ إلى أنه تقريبًا قد أحنى ظهره، أعتقد أنه كان خادمًا في ماضي أيامه. فرد أليك باقتضاب منهيًا الحديث:

- شكرًا أيها الرفيق.

جلستُ وغمَستُ ملعقة في وعاء الحساء، ما أثقلَهُ! ما أكثفَه! هذا لحمٌ قطّعتهُ يدٌ تُكْرِم، ويوجد نقانق أيضًا، وبطاطسُ وعيشُ غراب. لم أتناول شيئًا بهذا الغنى منذ سنوات.

قال أليك:

- انتقلتُ إلى موسكو سنة 1918، لكمْ أحزنني أن أعودَ لأجدَ المدينة بتلك الحال.

- لقد كانت أسوأ قبل ذلك، فعلى الأقل الآن لسنا على وشك الموت جوعًا.

كان مقصدي بكل بساطة هو أن أعبِّرَ عن الواقع، ولكني ندمت على هذا القول فورًا، فالشكوى من الثورة قد تكون سببًا في الإبلاغ عنك بوصفك عدوًّا طبقيًّا. لم يبدُ على أليك الانزعاج، ولكنْ مِنَ الآمَنِ أن أدعه هو يتكلم، فسألته:

- هل تحب العيش في موسكو؟

- جدًّا، فهي مسرحُ كل حدثٍ ذي شأن، كل الشباب الطموح وِجهتُهُ موسكو هذه الأيام، لا بتروجراد، وبالمناسبة، كم عمرك الآن؟

- تسعة عشر عامًا.

- صغيرةٌ جدًّا، لا بد أني أبدو في عينيكِ كجَدٍّ لكِ.

- على الإطلاق.

فابتسم شاعرًا بالإطراء، وزال الشعور بالغربة عن عينيه الزرقاوين. لم يكن سهلًا عليَّ أن أدرك أن أليك يُعَدُّ وسيمًا في أعين هذا النوع من النساء اللائي ينجذبن إلى الرجال الغامضين، نساءٍ كأمي. ثم سأل مرتجلًا:

- ألديكِ حبيب؟

فهززت رأسي نفيًا، وقلت:

- إني أعيش حياة في منتهى الهدوء.

- يا للخسارة، في مثل عمركِ، كنت أسهر مع أصدقائي حتى آخر الليل، نصخبُ ونعبُّ الخمر.

«*في مثل عمري لم تكن قد فقدتَ معظمَ عائلتك*». فقلت:

- لقد ترك كل أصدقائي البلاد، وليس لديَّ مَن أصخب معه.

- حسنًا، لا يمكن إنكار أن الأمور قد تغيرت، وأنَّ تلك الأشياء التي كنت قادرًا على فعلها، في ذاك الزمن، لا تمر الآن دون مساءلة، وحق لها، ولكن ما زال في موسكو مجال للمتعة لمن يعرف الأشخاص المناسبين.

ذهبتُ إلى حفلٍ من مدة قصيرة، كانوا يستمعون إلى أسطوانات مهربةٍ من فرنسا عليها موسيقى الجاز.

- لا أعرف ما هذا.

- موسيقى الزنوج الأمريكية.

هل كان يحاول إبهاري؟ أمْ... أمْ أن يخدعني، لأقر أني أنا أيضًا أريد أن أكسر بعض القواعد باستماعي إلى الموسيقى الرأسمالية المنحطة؟ ثم تابع حديثه:

- بلغني أن معظم عائلة شولكين سافروا للخارج، فلماذا لم تسافري؟

هنا أدركت؛ ليست هذه الوجبةُ بأكملها إلا اختبارًا، اختبارٌ لا يمكن الرسوب فيه، ولا يمكنُني لاجتيازه أن أستسهل الكذب، فأليك أذكى من هذا. عليَّ أن أعطيَهُ النسخةَ المناسبةَ للحقيقة، فقلت:

- نحن روسيون، ولاؤنا لبلادنا، وهذا هو الوطن الذي ننتمي إليه.

- حسنًا، ولكن هل ولاؤكِ للثورة؟ عليكِ أن تفهمي أن كل من له مثل خلفيتك الاجتماعية سيظلُّ محلًّا للظنون. يقول بعض الناس إن شخصًا نبيلَ الدماءِ لا يكون شيوعيًّا حقيقيًّا، أبدًا.

«*بعضُ الناس؟ أم أليك نفسُه؟*» فقلت:

- لقد نشأ خالي سيرجي في عائلة ثرية، وهو شيوعي حقيقي، أليس كذلك؟

- سيرجي حالة مختلفة، فهو يبشر بالثورة حتى من قبل أن تولدي.

- لقد نظَّفتُ دوراتِ المياه وخيَّطتُ الثياب حتى نزفتْ أصابعي، دون شكوى. لقد عرفت ما يجلبه من الشعور بالرضا عملُ يوم كامل، وأريد أن أساهم، مثلي مثلُ أي شخص آخر. ألم أكتسب بعدُ الحقَّ في أن أُدعى «رفيق»؟

راح صوتي يعلو، ورحتُ أتحدث بسرعة، ولكن لا أقول إلا حقًّا، وأخذتني حماسة الاعتراف. لقد كنتُ -صدقًا- أومن بأفضل وعود الثورة: الناس

سواسية، وأنه يجب علينا جميعًا أن نعمل لئلا نعيش على كد الآخرين، وفوق كل هذا، كنت أريد أن أثبت جدارتي لنفسي.

تناول أليك رشفةً من القهوة وتركني أنتظره إلى أن قال:

- ولكن قد يُزجُّ بكِ إلى السجن بسبب اسمكِ من غير تهمة أخرى.

رغم الخدر الذي راح يتسلل في جلدي، لم تفارقْ عيناه عينيَّ. أعرف بالغريزة أن أليك يتحيّنُ إشارةً من ضعف، فأخذتُ بمحض إرادتي قضمةً من خبز جاف، رحت أمضغها على مهل، رغم أنها كانت تصر صريرًا مزعجًا. ابتسم أليك ابتسامةً ماكرة. قلت:

- ما ظننتُ يومًا أنَّ على الأبناء أن يحملوا أوزار آبائهم، فإذا قلنا إن الرجال والنساء على قدم سواء، أفلا يستوجب ألّا يُقدَّر المرء إلا بعمله، لا بعائلته؟

- وأنتِ مثالٌ حيٌّ على أن النبلاء السابقين يمكن أن يُصاغَ منهم شيوعيون صالحون.

زال التوتر عن عضلاتي، فارتخت، لقد زال الخطر. سألني:

- هل تحبين عملك في المجلة؟

- أكثرَ مما أحب تنظيف الحمامات، ولكني مستعدة لأن أعودَ إلى تنظيفها لو احتاج الأمر إليَّ.

- هذا هدرٌ إذنْ لمواهبك، لو أن فنانة مثلك في موسكو لترامت الفرص تحت أقدامها.

أخذ أليك، وأنا أكشط ما تبقى من الحساء، يتحدث عن مديرية الثقافة، ويذكر أسماءً فأهزُّ رأسي أشجعه على الاستطراد في الحديث وإن لم أعرف أي اسم منها. أتيتُ على كوب من الشاي وهو يصف أسفاره، ثم أنهيتُ كوبًا آخر وهو يخبرني بما رآه عقب الثورة مباشرةً، من مجاعةٍ وإعداماتٍ جماعية، من انهيار كامل للمجتمع، كان أليك يرى كل هذا فاجعًا، ولكنْ حتميًّا كذلك. كان يراه نظامًا بائدًا في سكرات موته. ما يهم حقًّا هو أن النظام قد استُعيد. حان الوقت لِلمُضي نحو المستقبل بلا التفات إلى مثل تلك الأمور. لديه ما

t.me/yasmeenbook

يدعو إلى الطمأنينة في يقينه هذا، في إيمانه بأن الخير قد انتصر على الشر. كانت بقايا كوبي الأخير قد بردت عندما نهض أليك عن المنضدة قائلًا:

- إن علينا أن نذهب لنرى سيرجي.

أشار بذراعه وحثني على السير وضغط بكفه على ظهري وأنا أمر. لم تكن إلا لمسةً عابرة، ولكن أثرها سرى من ثوبي إلى جسدي. ها هو الرجل الذي حرَّض على قتل أبي يرسل إشارة واضحة. هل عليَّ أن أتجاهله؟ أم أبتسم في وجه من أنقذ حياة أخي، وأشجعه على إبداء مزيد من الاهتمام بي؟ لا أرى خيارًا لديَّ.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

لندن
1938

إلى: مدير جهاز المخابرات السرية.

أوصي بإجراء مزيد من الدراسة لوثائق السيدة الحمراء، أوافق أن موتها يستدعي مزيدًا من التحقيق؛ فالسيدة التي كانت تسافر إلى بريطانيا تحت اسم ماري دوفال ليست عميلةً سوفيتية معروفةً فحسب، بل وأيضًا زوجة لعضو بارز في الحزب الشيوعي أليك سيميلكوف (كارثةٌ بذاتِه، انظر الملف المرفق). وإنه لمن بالغ الأهمية أن نعرف لمَ هي هنا، فلا بد أن هذا الأمر بعلم ستالين وآخرين. شكلتُ فريقًا صغيرًا لنرى ما يمكننا أن نكتشفه بشأن تحركاتها في بريطانيا. أطلُبُ أن يظل هذا التحقيق طي السرية، حتى داخل جهاز المخابرات السرية نفسه. علينا أن نتخذ كل احتياط ضروري لئلا يخرج هذا الأمر إلى العلن. سأبقيك على علم بتقدم التحقيقات.

- روجر

موسكو
1922

لقد كان الزواج هو ما جعل مني جاسوسة، حتى قبل مهمتي الأولى بوقت طويل. فمن أول أيام زواجي وأنا أكتم الأسرار، أصنع شخصيةً جديدة، وأخفي حقيقةَ نفسي عن زوجي، وأحسبه يفعل مثلما أفعل.

صُدِم سيرجي عندما أخبرته أن أليك قد عرض عليَّ الزواج به، بعد ثلاثة أيام فقط من غدائنا بالمقصف، فقال معترضًا:

- تكادين لا تعرفين عنه شيئًا.

- ولكنك تعرف، فهو صديقك، أليس كذلك؟

- وفيمَ كل هذه العجلة؟ عليكِ أن تتمهلي في الأمر.

- ما دمتُ سأتزوج يومًا ما، فما المانع من الزواج بأليك؟ وبعدَ كل ما فعله من أجل فاسيلي...

فقاطعني بقوله:

- إذن هو بدافع الامتنان؟ الواجب؟

نعم ربما كان السبب أني كنت أخشى أن يوجِّه أليك غضبه إلى فاسيلي إن رفضتُ عرضه، لكن ليس غضبه الداعي الأوحد لقبولي.

قلت لسيرجي:

- أحبك، وسأفتقدك بشدة، ولكني في حاجة إلى بداية جديدة، وأليك بإمكانه أن يحصل لي على وظيفة جيدة، كما سألتقي بكثير من الأشخاص المهمين، ولن تظل خساراتي ماثلةً في مخيلتي.

كان سيرجي فزِعًا وهو يصغي إلى حجتي، فهو رجل يعشق الإيحاءات الكبيرة، وقد خاب أمله إذ لم يجد في حجتي كلمة توحي بحبٍّ، أو عاطفة. لكن... كيف لي أن أصف مشاعري حيالَ أليك وأنا نفسي لا أفهمها؟ نعم، يبدو مخيفًا، ومتغطرسًا، ولكنَّ ثقتَه بنفسه تروق لي على نحو لم أتوقعه، كما أن طموحه يغذي معه طموحي.

- أنتِ كأبيك تمامًا، يا ناديا!

طيلة حياتي كان الناس يُشبِّهونني بأمي، فهذا يقول أختان، وذاك أنّ لدينا الموهبة نفسها. فأهاج قوله مشاعري، فليس له من معنًى إلا أنّ بعضًا من أبي يسكنني. ثم تابع كلامه:

- فأنتِ تفعلين ما يجب فعله، لا تشتكين ولا يلوي أحد ذراعك، بل تشرعين فيه على الفور، وهذا هو كل ما يحتاج إليه أليك في الزوجة. أتمنى لكما أبلغ السعادة.

أدركتُ من ابتسامته المتوترة أن لديه مخاوفَه. لم نُقِم حفل زفاف. ككل البلاشفة كان أليك ملحدًا، وعلى أي حال فالكنائس مغلقة، نُهبت كنوزها نهبًا. قمت أنا وأليك بملء استمارة في مكتب التسجيل، وصرنا زوجين بقوة طابع بريد رسمي. رتّب سيرجي حفلًا صغيرًا في مكتب «الأصوات الجديدة» وحضر فاسيلي.

رؤية أخي في زي الجيش الأحمر الكئيب صدمتني أول الأمر، لكنه كان بحال جيدة، وعليه أمارات الصحة. احتضنتُه بشدة وطمأنني امتلاء صدره على صحته. كانت تلك أول مرة نلتقي فيها منذ أن زرته في السجن حين كانت أمي ما تزال بيننا. سألته:

- كيف حالك؟

وعشرات الأسئلة تمور بذهني، وسألته:

- هل ستستقر في بتروجراد؟

- لا، سأبقى هنا اليوم فقط. رتب الرفيق سيميلكوف بعض الاجتماعات هنا ليتيح لي عذرًا للمجيء.

t.me/yasmeenbook

- كم كان هذا كرمًا منه!

وبصمت أقررنا بالجميل الأكبر الذي ندين به لأليك، لقد أنقذ حياة فاسيلي. كان السجن قد أبلى كياسة أخي في التحدث إلى النساء، إذ راح يتحدث بعدِّه جنديًّا صلدًا ونحن نتناول حياة كل منا، كان صريحًا ومباشرًا. فيما مضى كان ليسخر مازحًا من زواجي برجل في ضعف عمري تقريبًا، ولكن على النقيض من سيرجي، لم يبدُ أن فاسيلي يرى قراري غريبًا أو مفاجئًا، لعله نظر إليه نظرة عسكرية؛ أني وببساطة أؤدي واجبي. قلت له:

- أرجو أن تستقرَّ قريبًا.. ربما في موسكو؟

فها وقد وضعت الحرب أوزارها، يخضع الجيش الأحمر لعملية إعادة تنظيم شبه فوضوية! وقد مُنِح أخي بالفعل أربعة أفواج مختلفة ليقودها. هز فاسيلي رأسه نفيًا، وقال:

- لديَّ أوامر بالذهاب إلى طشقند.

كانت لديَّ فكرة بسيطة عن مكانها، ولكني كنت أعرف أنها بعيدة جدًّا. وعندما رأى فاسيلي خيبة الأمل بادية عليَّ، ابتسم لي ليطمأنني قائلًا:

- أنا من طلب هذا التكليف، فهم ينشئون أكاديميةً عسكرية هناك، وتعجبني فكرة أن أدرِّب صغار الجنود، أعتقد أني سأكون جيدًا في هذا الأمر، ثم إن...

وخفض من صوته متابعًا:

- ثم إنه لا يوجد ما يعنيني في صراعات السلطة، وأُفضِّل أن أكون في مكان أكثر أمانًا.

لم أكن لألومه على هذا. ثم انتقل من الحديث معي إلى بقية مَن بالغرفة جاهرًا:

- لقد أحضرت من الفودكا ما يكفي ليسكرنا جميعًا. الزجاجة الأولى من أجل الرفيق سيميلكوف وزوجته، ناديا!

ثم تواصلت الأنخاب، ومع كل نخب كنت أعبُّ جرعةً من الفودكا. لم أكن أعرف كيف سأجتاز ليلة الزفاف لو لم يكن الحال هكذا، فليس بيني وبينه إلا

قبلة عفيفة. راح سيرجي يتبعني كظلي وكأنه يأبى أن يتنازل عن دوره حاميًا لي. أخذ يسخر من أليك ويلاطفه قائلًا إنه سيحتاج إلى عكازه ليجري خلف أولاده، ولكن النكات كانت مصطنعة، وكذلك كانت ضحكات أليك. راح زوجي الجديد يرتشف شرابه، ونادرًا ما يعيد ملأ كأسه، كأنه مراقب لما يجري أكثر من كونه رجلًا في ليلة زفافه. وعلى العكس، لم يتوقف سيرجي عن الشراب ولا الحديث، كلما مضى جزء من الليل ازداد حِسُّه إرهافًا. وقرب منتصف الليل، وضع ذراعه حول كتفي وأمال رأسه تجاه رأسي. تفوح منه رائحة الحبر والعرق، ومن ورائهما رائحة طيبة، لا أجد وصفًا لها إلا «رائحة البيت». ثم همس، وشفتاه تلامسان شعري:

- كوني على حذر.

فسألته:

- مِن أليك؟

وأنا أنظر عبر الحجرة، حيث توسّط أليك حشدًا من المعجبين، بدا كمعلم يلقي محاضرة على الطلبة، بدا شخصًا غريبًا عني.

- لن يؤذي جسدك.

قالها على عَجَل، وكان ثقله يخرجني عن توازني، وتابع:

- أليك يدافع عن حقوق النساء دائمًا، ويؤمن أن الزوجات والأزواج يجب أن يكونوا متساوين، ولكني أقصد احذري على قلبك، يا فتاتي الغالية؛ فهو من ذلك الصنف الذي قد يكسره.

لا، ليس إن لم أحبه. تجلى هذا الخاطر في ذهني بوضوح حتى لكأني قلته بصوت عالٍ. واصل سيرجي كلامه:

- أنا أدعو أليك صديقًا، ولكني لا أعرفه حقيقةً، لا أحد يعرفه حقيقةً، يمكنه أن يكون بالغ البرودة، أن يحجب الجميع عن الولوج إلى أعماقه.

فقلت لنفسي: إنه يمكنني أنا أيضًا أن أكون باردة.. وهذا أهون.

- كنت أتمنى لكِ مَن هو أفضل منه، كنتُ أود أن تحظي بقصة حب رائعة، مع رجل يهيم بكِ.

t.me/yasmeenbook

- لستُ في حاجة إلى قصة حب رائعة، سأكون على ما يُرام.

زفرَ سيرجي ومسح عينيه.

- لعل هذا أفضل لكِ، فسيوفر عليكِ الشعور بالألم.

وبحذر سألته:

- هل جرحك شخص ما من قبلُ؟

لقد كبرت وأنا أنظر إلى خالي أنه رجل مستهتر، ولكن على حد علمي فهو لم يدخل في أي علاقة غرامية منذ بداية الثورة. هل يوجد ما لا أعرفه؟ أشاح سيرجي بوجهه وقدماه تترنحان وقال:

- أنا آخر من يجب عليه أن يتحدث عن الحب. تعالَي نتناول كأسًا أخرى.

بدا كما لو أن بابًا قد انفتح قليلًا ثم انغلق في وجهي بسرعة، فلم أتمكن من إلقاء نظرة على ما وراءه. لقد كان سيرجي على وشك أن يخبرني بأمر شخصيٍّ، ولكنه منع نفسه في اللحظة الأخيرة. لعله كان أشبه بأليك أكثر مما يظن. وفي النهاية، كانت مخاوفي بشأن الزفاف بغير داعٍ. استعار أليك شقة من أحد أصدقائه لنخلو إلى أنفسنا، وراح يضحك من خطواتي المتعثرة المترنحة وأنا أصعد خلفه إلى الدور الثالث من المبنى، وبعفوية أبوية عملية قال لي:

- إني في حاجة إلى النوم.

ثم راح يقلب الشراشف وأنا أخلع ملابسي إلا من قميص نوم. أحكم أليك الفراش من حولي، وقال:

- تصبحين على خير.

لامستْ شفتاه جبيني برقة؛ كانت قبلة فاترةً لا حرارة فيها. أغلقت عينيَّ وسمعته يروح ويجيء في الحجرة. سكن جسدي وأنا أنتظر باستسلام ما سيحدث، على أي نحو كان. هبطتْ مرتبة السرير قليلًا، عندما استلقى عليها إلى جانبي، ووضع ذراعه العُليا على ذراعي، ولم يحاول أن يلمسني بعدها، ثم سمعت نفسه يستطيل، وعلمت من الصوت أنه راح في النوم.

في اليوم التالي، أخذتُ أنا وأليك القطار إلى موسكو، وإلى حياتنا الجديدة معًا. قضينا ليالينا الأولى في فندق بالقرب من محطة القطار، وفي كل يوم كانت تصل إلى غرفتنا زجاجة من الفودكا أو النبيذ، ومعها بطاقة تهنئة. كان بعض الخمر فرنسيًّا، يكاد يستحيل التحصل عليه؛ ففرنسا من الدول التي لم تعترف رسميًّا بالاتحاد السوفييتي الجديد، وتهريب هذا النبيذ لا بد أنه يتكلف كثيرًا من المال. يبدو أن زوجي أكثر أهميةً مما أظن. وعلى عكس بتروجراد، التي تسكنها ظلال مجد غابر، فإن موسكو تنصب عينيها على المستقبل فحسب.

نعم، بها آثار من ضريبة الثورة؛ واجهات محالّ متداعية وكنائس خاوية.. إلا أن هذا الدمار أخفته المدينة الجديدة وهي تُشيَّد على أطلال القديمة. في كل مكان سرتُ به، كنتُ أرى ما يدل على النشاط والفورة، من مصانع جديدة وسدود وآثار، وأيضًا من ملصقات لمحاضرات ومسرحيات. وعلى النقيض من مسقط رأسي، كان كثير من الناس يلبسون السترات والفساتين التقليدية. ما كان دومًا في عينيّ «ثياب الفلاحين». راحت موسكو تعيد بناء نفسها كيوتوبيا شيوعية، ولكن على نحو روسي خالص. وسرعان ما تأكّدَتْ منزلةُ أليك الكبيرة من السكن الذي خُصِّص لنا. فخلال أسبوع واحد من وصولنا، انتقلنا إلى شقة في مبنى محجوز لمسؤولي الحزب. تتشارك أسرٌ كبيرةٌ غرفة واحدة، أما نحن فحظينا بشقة بها غرفة جلوس وغرفة نوم، لنا وحدنا، ولم نشارك المطبخ والحمام إلا مع شقتين فقط.

أكد لي أليك أني لست مضطرة إلى إعداد الطعام، اتساقًا مع ما يؤمن به عن المساواة بين الرجل والمرأة، وقال إنه بإمكاننا أن نأكل في المقاصف. وحتى واجباتي الزوجية الأكثر حميمية اتضح أنها لا تشكل عبئًا كما كنت أخشى؛ فأليك يخبرني بما أصنع، وأنا أنصاع للأمر. لم يكن يحب إهدار الوقت، لا في الفراش ولا في أي شيء آخر. وكان على الدرجة نفسها من الوضوح في موضوع الأطفال. لا شك أني سأحملُ في نهاية الأمر، فواجبي بعدِّي زوجة أن أنتج الجيل القادم من الثوريين، ومع ذلك عندما اقترحتُ أن نتريث عامًا أو عامين، وافق على الفور، وقال:

t.me/yasmeenbook

- أتفهم ممانعتك، فالأمومة قد تبدو عبئًا وأنتِ لم تحصلي على حريتك إلا منذ مدة قصيرة.

لم أكن أشعر بأني حرة، ليس تمامًا، ولكني أومأت بالإيجاب على أي حال. ثم قال:

- عاجلًا سيتغير كل شيء، إذ توجد خطط لإنشاء حضانات مشتركة، حتى تستطيع الأمهات أن تعمل حيثما تشتد الحاجة إليهن، لا داعيَ لأن تُضيِّع امرأة ذكية مثلك أيامها في غسل الحفاظات.

لاحت لي صفوف من أَسِرَّة الأطفال في مستودع شاسع يُربّى فيه الرُّضع بكفاءة صناعية.

- مصلحة الصحة لديها كُتيبات عما يمكن أن تقومي به لتتجنبي الحمل، سآتيكِ بنسخة، وفي السنوات القليلة المقبلة، عندما تُنشأ الحضانات وتعمل.. يمكننا أن نعاود طَرْح هذا الأمر.

أراحني أن أعرف أن أليك لن يجبرني على الإنجاب قبل أن أستعد له. لعلنا في أعماقنا ندرك أن زواجنا قد لا يكون بالقوة الكافية لتحمل أي عبء إضافي. في الأسابيع الأولى رحت أدرس طباع أليك وعاداته، وأُكيِّف نفسي عليها، تعينني كل معلومة جديدة على بناء الشخصية الجديدة التي شرعت في خلقها زوجةً تدعم زوجها في كل الأحوال. عرفت كيف يحب قهوته، متى أتكلم، ومتى أتركه بمفرده. كان يعمل لساعات طويلة في المديرية السياسية للدولة جهاز الأمن القومي، ويصف عمله بأن أغلبه عمل كتابي. وعندما يعود إلى البيت، متعبًا مشغول البال، لم أكن أطرح عليه أي أسئلة، بل كنت ببساطة أشرع في التسرية عنه بالطعام أو ببرنامج في الراديو أو بآخِر رسوماتي. كنت أرجو أن تُيَسِّرَ لي معارفُ أليك بمديرية الثقافة وظيفة بأسرع ما يمكن، أريد أن أخرج من عزلتي. حتى هذا الوقت لم أكن قد قابلت في موسكو إلا أصدقاء أليك.. وكانوا جميعًا مثله، أعضاء في الحزب مع زوجاتهم، فأصبحوا دائرتي الاجتماعية بحكم الواقع، ولكني لم أشعر بعدُ بذلك النوع من الاهتمام المشترك الذي يبني صداقة حقيقية.

الزوجات الأكبرُ سنًّا بلشفيّات قدامى، ممن سُجِنَّ أو نُفين قبل الثورة، مؤمناتٌ حقًّا، يكرهن تلك العائلات كعائلتي حتى قبل أن أولد. والنساء الأخريات اللاتي قابلتهن إما أليفاتٌ بشكل ممل وإما منطويات على أنفسهن تمامًا. كُنَّ جميعًا يعرفن بعضهن بعضًا منذ سنوات، ويتحدثن تحدُّثًا بالغ الاختزال عن تجاربهن الماضية، حتى إني لم أتمكن قط من فهم حديثهن. وعندما كنت أهز رأسي وأبتسم.. كنت ألحظ نظرات غامضةً، كأنها تقول: أهذه المرأة زوجةُ أليك؟

لماذا تزوجني أليك؟

لطالما ألحَّ عليَّ هذا السؤال، كصداع مزمن. نعم أنا صغيرة، ومطيعة، وعلى قدر من الجمال، ولكن كذلك عشرات من النساء الأخريات في موسكو. هناك نساء لهن مسوغات سياسية أكثر بكثير مما لديَّ. لماذا يتزوج نجم صاعد في الحزب من «شخص سابق»؟

وذات مساء، وبعد عدة ليالٍ من السهر غير المعتاد، دعا أليك بعضًا من زملائه إلى شقتنا لتناول الشراب. رحبت بهم وأخرجت زجاجة من الفودكا وكؤوسًا، ثم انسحبت إلى غرفة النوم ومعي كتاب. كنت قد استعرت مجموعة من مسرحيات برنارد شو بالإنجليزية من المكتبة، وكشيوعي فخور كان برنارد شو واحدًا من المؤلفين القلائل الذين لن يتسببوا لي بالمتاعب لقراءة أعمالهم. كنت عند منتصف كتاب «بيت الحسرة» عندما طُرق الباب، ظننت الطارقَ أليك، ودعوته إلى الدخول، فأطلَّت من زاوية الباب امرأةٌ ضئيلة الحجم، حادة الملامح. كانت تانيا جريلينوفا، زوجة أحد زملاء أليك، وكانت من ذلك الصنف من النساء الذي دائمًا ما يبدأ المحادثة وينهيها، يتكلم أولًا ويسكت أخيرًا. فشرعتْ في الكلام على الفور:

- عزيزتي الرفيقة، لكم يؤسفني أن أزعجك! كنت في زيارة لأختي، تعيش بالقرب من هنا، وقال لي تيموفي إنه سيأتي ليصحبني في طريقه إلى البيت، وأخذت أنتظر وأنتظر، إلى أن أدركتُ آخر الأمر أنه كان من تلك النوعية التي تنسى الوقت، وأنه عليَّ أن آتي بنفسي لأجرَّه إلى الخارج جرًّا. كيف حالك؟ أتقرئين؟

t.me/yasmeenbook

ثم نظرت إلى كتابي نظرة سريعةً بغير اهتمام وجلست على الفراش إلى جواري، وتابعت:

- أختي في أشد الغضب، لأن أختي الأخرى، ماشا، التي تعيش في أوديسا، كان يُفترض أن تعطيها شال والدتي عندما ماتت أمي، لكنَّ ماشا تمسكت به، لأن أمها -كما تقول- تركته لها، إنه حقًّا أكثر النزاعات حماقةً على الإطلاق، فالشال ليس جميلًا بالمرة. لا أرى إلا أن الصراع سببه أن كل واحد منا لا يريد أبدًا أن يُقِرُّ بما للآخرين من حقوق.

وشهقت تانيا في مبالغة مسرحية، ثم تابعت حديثها:

- تعرفين كيف يبدو الأمر داخل العائلة، عندك إخوة وأخوات؟

ورغم أني أفترض أن أصدقاء أليك المقربين يعرفون أنه تزوج واحدةً من عائلة شولكين، فإننا اتفقنا ألا نتكلم عن ماضيَّ أبدًا، فكان عليَّ الكلام بحذر، فقلت:

- عندي أخ.

فتابعتْ كلامها:

- المضحك في الأمر أن أختيَّ تتشاجران باستمرار، ولكنهما تتعاملان معي جيدًا بسبب تيموفي. لا بد أن أقاربكِ يزعجونك باستمرار أيضًا؟ فواحد يطلب عملًا لجاره وآخرُ شقةً لابن عمه.

انتابني شعور مقلق بأن تانيا ما اختارت هذا السياق من الحديث إلا لتعرف عني المزيد. لم أرد أن أخبرها أن معظم أفراد عائلتي بين مَن مات ومَن غادر البلاد، وبالتأكيد لم أكن أريدها أن تعرف أن أخي كان ضابطًا سابقًا في الجيش الإمبراطوري، فقلت بهدوء:

- لم أكن لأشعر بالراحة إن ضايقتِ أليك بهذا النوع من الحديث.

فقالت:

- لا بد أنه تزوجكِ لهذا السبب، لأنه يعرف أنكِ لن تزعجيه أبدًا.

ثم ضحكت وربتت على ذراعي لتريني أنها لم تكن إلا مازحةً. ورغم ذلك تساءلتُ: أحقًّا كانت تمزح؟ فعيناها تتفحصان وجهي كما لو أنها تبحث عن إجابات، وأمارات الفضول جليّة في اضطراب جسدها. كان لديها سيول من الأسئلة، ولم تكن ثمة طريقة لإيقافها إلا بصرف انتباهها إلى ناحية أخرى، فسألتُها:

- منذ متى تعرفين أليك؟

- من سنين طويلة، فقد كان هو وتيموفي معًا في الجامعة، كما أني من أوائل من قرأ واحدة من النسخ المبكرة من «الفيضان العظيم».

لم يعنِ اسم الكتاب شيئًا لي، فبدت تانيا مصدومة من جهلي، واكتسى صوتها بنبرةٍ مسرحيةٍ أكثر عمقًا لتقول:

- كتاب أليك، الكتاب الذي تسبب في دخوله السجن، ألم تقرئيه؟ «سيشرب ترابُ أرضِنا المقدسةِ دماءَ الخونة، وستُروى براعمُ الحرية بدموعِهم».. لكم ينبض قلبي تحت إيقاع هذه الكلمات!

تذكرت أليك سنة 1914 وهو يحدق في معزل وببرود، في تصرفات أصدقاء أمي من الفنانين، مستهجنًا مستنكرًا، ينتظر اللحظة التي يُقضى فيها على هذه الحماقة البرجوازية. وواصلت تانيا قائلة:

- يجب ألّا أخبرك بهذا، ولكن تيموفي دائمًا ما يهاب أليك.. كلهم يهابونه، والسبب واضح.

ونظرَت إليَّ نظرةً ذات مغزى، فقلتُ:

- معذرةً، لا أفهمكِ.

- الترقية.. ألم يخبركِ أليك؟ إنه يعمل مع الرفيق جيرجينسكي مباشرةً.

هذا الاسم أعرفه، لقد كان رئيس (التشيكا)، الشرطة السرية التي عذبت وقتلت كل من وُصِم بأنه عدو في تلك الأيام الدامية الأولى عقب الثورة، شرطة من رجال مجهولين بمعاطف جلدية سوداء كانوا يعدمون عائلات بأكملها.

سمعتُ أن التشيكا حُلَّت، فأعمالها الإرهابية لم تكن لتليق بحكومة تحاول أن تُظهر للعالم وجهًا متحضرًا، ولكنّ جيرجينسكي لم يزل موجودًا، ويعمل

t.me/yasmeenbook

مع أليك. لم أكن أعرف الكثير عن عمل أليك، ولكنه يقود المديرية السياسية بما يجعلها تبدو كجهاز حكومي غير ضار. هل كان حقًّا كذلك؟ أم أنه كان في الحقيقة هو التشيكا في رداء آخر؟ قلت لها:

- أليك لا يتحدث عن عمله.

قلت ذلك على أمل أن تخبرني تانيا بالمزيد، ولكنها أشاحت بيدها، وقالت:

- فلتنسَي أني قلت أي شيء.

ثم نهضت بغير مقدمات وأصابعها ترتعش من التوتر. ثم أردفت:

- لقد حان وقت الذهاب على أي حال، فتيموفي يمكنه أن يمكث طوال الليل لو تركته، وأعرف أنكِ ألطف من أن تطرديه، تصبحين على خير، سرني لقاؤك جدًّا.

وانطلقتْ مسرعةً بالفعل، بعصبية واضحة. عندما عاد أليك إلى الفراش بعد نصف ساعة أخبرته بالنسخة المنقحة من حديثنا:

- لقد انزعجتْ تانيا كثيرًا لأني لم أقرأ «الفيضان العظيم»، هل يضايقك أني لم أقرأه حتى الآن؟

- لا، فلستُ بتولستوي على أي حال.

كان أليك -بالنسبة إلى بلشفي متحفظ- متسامحًا تسامحًا مدهشًا مع ذوقي الأدبي المنحط. قلت:

- أعتقد أنها ترتعب منك.

- أنا؟

كنا في الظلام، فلم أستطع أن أرى وجهه، فقط حدود وجهه من الجانب، انحناءةَ أنفِه، وشفتيه.

- تقولُ إنك حصلت على وظيفة جديدة، وبعدها تصرفتْ بمنتهى الغرابة عندما أخبرتُها أني لا أعرف عن ذلك شيئًا.

كان استخدام النبرة الصحيحة مُهِمًّا؛ أن تكونَ نبرةً لاهيةً لا ممتعضة. فقال:

- إنه وضع مؤقت، حتى إني لا أعلم كم سأبقى فيه، فنحن نبني حكومة كاملةً من العدم، والأحوال تتغير من يوم لآخر.

- أنا على يقين بأن مآل الأمور سيكون طيبًا.

قلتها كما لو كنا نخطط للعشاء، أو لشيء لا أهمية له.

- العمل الذي أقوم به...

وسكت قليلًا ثم أكمل:

- عملٌ حساس؛ أمن البلاد.. لا مجال للثرثرة بشأنه.

قالها بصوت حادٍّ، متابعًا:

- ما كان ينبغي لتانيا أن تقول أي شيء.

شعرتُ بقشعريرة من استيائه، وأدركتُ بعد فوات الأوان أنه لا فكرةَ لديَّ عما يقدِر على فعله؛ فمع كل حديث أليك عن المستقبل الجديد الزاهي، فهو يعمل مع رجل لا بأسَ عنده بالتعذيب والقتل. هل ستنال تانيا عقابها على كلمة واحدة قالتها ولم تلقِ لها بالًا؟ وحينئذٍ تذكرتُ تحذير سيرجي: «أليك يمكنه أن يكون في غاية البرود». فقلت متباسطةً كأني نسيت كم كان أليك مستاءً:

- إنها تُقدِّرك أيما تقدير، هي وتيموفي أيضًا.

ثم كان صمتٌ كدتُ أسمع فيه تروس عقل أليك تدق: «نعم، لا، نعم، لا». وأخيرًا نطق، قائلًا:

- لطالما كانت امرأةً ثرثارة، لا أدري كيف يعيش تيموفي معها، وعمومًا أنا على يقين أنكِ لن تثرثري كطفلة عن عملي مع أول شخص تلتقينه.

- بالطبع لن أفعل.

- حسنًا، فليكن هذا آخرَ كلامنا في هذا الأمر.

شعرتُ براحة أرخت جسدي كما لو كنتُ أشاهد أليك وهو يطرح قلمه بعد أن كاد يُوقِّع أمرًا بالاعتقال. هل كان... أم لم يكن حقًّا لِيلقيَ القبض على

زوجة صديق قديم حميميّ، لشيء قالته خلف الأبواب؟ أحسبه قادرًا على هذا، فزوجي قد يعاقبني أنا نفسي عقابًا شديدًا لو قلت شيئًا خاطئًا.

عندما استغرق في النوم، تسللت إلى الغرفة الأمامية ورحت أقرأ على عجالة ظهورَ الكتب المكومة على مكتبه، كتب لم تسترعِ انتباهي قط قبل اليوم. وجدتُ نسخة للفيضان العظيم أسفل الكتب، سحبتها وشرعت في القراءة. كان الكتاب يتحدث عن أسرة قروية بائسة وأسيادهم الساديين، حكاية مبتذلة عن الخير في مواجهة الشر. قلَّبتُ عدة صفحات، وراح الرعب يملؤني وأنا أقرأ عن ثورة فلاح قاتل وهو يسعى للانتقام لما عاناه ممن أذاقوه الويلات. فأدركتُ حينها أن «الفيضان» ليس إلا الدماء التي تتدفق من الرقاب والبطون لتغرق التراب فتطهرَ الأرض.

أخبرني مِن قبلُ أنه لم يشجع فلاحي بريالكو على العنف، ولكن كتابه أوضح بجلاء أنه يرى هذه الانتفاضات ضرورية، بل رائعة. كدتُ أسمع سيرجي يؤكد لي أن كتاب أليك لم يكن إلا مجازًا، وأنه عليَّ ألّا أخلط بين الفن والحياة، ولكن قلبي لم يكفَّ عن الخفقان، لم أستطع مغالبة شعوري بالفزع. حسبتُ أن زواجي بأليك سيضمن لي حياةً آمنة، فلم يعرضني إلا لمخاطر أفدح، وكان الحل الوحيد أن أنأى بنفسي عن كل ريبة، أن أتجنب أي موقف قد يخدش ولائي.

بِتُ أرفض الدعوات وأصد حتى الجيران القلائل الذين كانوا يحاولون أن يتعرفوا إليَّ. يحسُن بي أن أتجنب العلاقات الشخصية وذلك الميل إلى تبادل الثقة. وفي المناسبات الاجتماعية القليلة التي حضرتها كنت أدَع أصدقاء أليك يعتقدون أني لستُ إلا نزوة من نزوات منتصف العمر، شيئًا صغيرًا جميلًا انتقاه أليك لشكله لا لعقله. لا أتكلم إلا نزرًا، وأتظاهر دومًا بأني لا رأي لي في أي شيء ذي بال. كان الأسلم أن يحسبوني غبية، ولكنه كان أيضًا سببًا لشعور ساحق بالوحدة.

أصبح العمل مهربي الأوحد من اليأس. وعندما أخبرني أليك أنه يوجد مكان شاغر لمتحدثي الإنجليزية في دائرة الشؤون الخارجية، اقتنصت الفرصة.

تقابلتُ مع الرجل الذي سيصبح رئيسي، أستاذ سابق في الأدب الإنجليزي، عرض عليَّ الوظيفة بعد أقل من خمس دقائق من حديثنا بالإنجليزية، وقال:

- تتحدثين الإنجليزية كأهلها.. بلا رطانة تقريبًا، متى يمكنك أن تبدئي؟

وقعت على المكان الوحيد في روسيا الاتحادية الذي تُعد فيه تنشئتي المميزة نقطةَ قوةٍ لي لا نقطة ضعف. وبعد يومين، ذهبتُ إلى مكتبي الجديد، الذي كان مكتبة خاصة سابقًا، ذات سقف منخفض، بها قلة متناثرة من الأشخاص يجلسون إلى مكاتب خشبية عريضة، منكفئين على ما يقرؤون. وُجِّهتُ إلى مكتبي ووجدتُ بانتظاري حزمةً من الجرائد، بجانبها دفتر من الأوراق وقلم، وبدأت دون أن أدري المرحلة التالية من مراحل تحولي.

رسميًّا، لستُ جاسوسة، كل ما أعمله هو أني أقيِّم وسائل الإعلام الأجنبية، فأجمع التقارير التي يكتبها رجال السياسة والجرائد الناطقة بالإنجليزية عن الاتحاد السوفييتي. تندد بريطانيا والولايات المتحدة بالبلشفية منذ سنوات خوفًا من قيام ثورات مماثلة في بلادهم، ولكن المخاوف مما يسمى بالمد الأحمر كانت قد هدأت قبيل تسلمي العمل قربَ نهاية سنة 1922، فاستؤنفت العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا العظمى وروسيا، وصارت تُعقد صفقات سرية مع الشركات الأمريكية لاستيراد الآلات. حتى في دولة شيوعية توجد أرباح يُسعى خلفها.

في بعض الأحيان يراودني شعورُ سمكةٍ في حوضٍ زجاجيٍ، تحدق من خلال نافذة سميكة إلى عالمٍ لا يمكنني أن ألمسه. قرأت عن فتيات ثريات يخلعن أحذيتهن ويمرحن في نوافير نيويورك، عن رجال اشتهروا بغلطات مضحكة عُرِضت على شاشات السينما، تصرفات تافهة منعزلة تمامًا عن واقعي الجاد. بمرور الوقت عرفت أسماء الساسة الأكثر أهميةً، وأيُّ الكُتّاب لهم التأثير الشعبي الأكبر. واخترعتُ لنفسي نظامًا لتدوين الملاحظات، وتنظيم المواضيع المهمة. وإلى حد ما أصبحتُ ودودةً مع زملائي، وبنيتُ سُمعةً كعاملة كفء مستقلة. وكان هذا كافيًا لي، وبعد مدة لم أعد أنظر في إعلانات الملابس الداخلية وأدوات التجميل التي أبهرتني أوّل ما التحقتُ بالوظيفة، فليست بذات أهمية، كما أنها كانت تضيع الوقت.

t.me/yasmeenbook

وذات يوم، في ربيع 1924، عاد أليك إلى البيت ومعه فستان. لم أكن أهتم كثيرًا بمظهري -ففي سنتي زواجي كنت أرتدي ثلاثة أثواب لا غير، كلها بدرجات اللون البني- إلا أني شعرت بالانتشاء على الفور، فالقماش الأزرق الداكن راح يترقرق تحت أصابعي كماء البحيرة، قال أليك:

- لقد دُعِيتِ إلى حفلة.

- ممَّن؟

- المكتب السياسي.

ثم لما رأى صدمتي ابتسم وقال:

- ليس تمامًا، ولكنْ شيء قريبٌ من هذا، إذ يوجد وفد من الكُتّاب الإنجليز والأمريكيين يقومون بجولة في موسكو وبعض وحداتنا الصناعية الجديدة، بموافقة شخصية من السكرتير العام ستالين، وسننظم لهم حفل وداع فخم الليلة، قبل أن يغادروا إلى فنلندا.

- وما علاقة هذا بي؟

- أحدهم هو أليستير ديفلين.

كانَ ديفلين كاتب عمود بجريدةٍ بلندن، واسع التأثير، كما أنه واحدٌ من مجموعة مختارة صغيرة أُمِرتُ بترجمة كتاباتهم فور نشرها. يكاد اعتداده بنفسه يطفح على الصفحة، إلا أنه يُعد صوتًا رائدًا في الشؤون السياسية، وله ملف كبير في مكتبِ رئيسي. فالعمل الورقي -كما كان أليك يشكو كثيرًا- هو ابن الثورة غير المرغوب فيه. فقلت:

- يدهشني أنه وافق على المجيء.

فقال:

- متكبر فضولي، «العدو الذي نقابله هو العدو الذي نتوقف عن خشيته».

كان اقتباسًا من عمود كتبه ديفلين من بضعة أسابيع، لا بد أن أليك قد قرأ الملف. وتابع بعدها:

- لقد رتبنا لحضور المترجمين والمرافقين المعتادين، كما نفعل مع أي زوار أجانب، ولكن السيد ديفلين شديد التكتم، فلم يتكلم مع أحد بالمرة، ويوجد قلق بشأن ما يخطط لكتابته عندما يعود لبلاده، فارتأيت أنه قد يكون أكثر صراحةً مع شخص يعرف عمله، شخص يفهم ما هو فن المداهنة اللطيف.

ثم ناولني أليك زجاجةً صغيرة، وأشار ناحيةَ غرفة النوم.

- جربي الفستان.

كان خط الرقبة يُبرِز عظام الترقوة، وطرف الفستان في منتصف المسافة ما بين ركبتي وكاحلي، أقصر مما أرتدي عادةً، ووشاحٌ مناسبٌ حول وسطي تدلى طرفاه تدلِّيًا مسرحيًّا صوب الأرض. الزجاجةُ زجاجةُ عطر، مكتوب عليها «أزهار بروفنس». حللت الغطاء، وضغطت بإصبعي على الفتحة، على طريقة أمي، ورششت العطر بطول معصميَّ وعنقي. نظرت إلى نفسي في مرآة يدٍ صغيرة.. فرأيت صورًا متداخلة من الحرير وجلدي، ورأيت عينيَّ تلمعان ببريق غير مألوف. عندما خرجتُ من الغرفة، بدا أليك مشدوهًا من تبدُّل هيئتي. وأخيرًا قال:

- حسنٌ جدًّا.. سأستدعي السيارة.

كان امتلاك سائق هو إحدى المزايا التي بدأت أعتادها. فسألته:

- سنغادر الآن؟

- ستغادرين الآن، فلستُ ذاهبًا.

ارتعت لفكرة الذهاب بمفردي، فكيف يمكن أن أؤتمن على فعل الشيء الصائب دونَ أن يكون أليك معي ليرشدني؟ فقلت:

- ماذا تريدني أن أفعل؟

- أخبري ديفلين أنكِ تحبين عمله.. جارِه.

فجأة بدا الفستان والعطر شيئًا قذرًا. قلتُ:

- كيف؟

t.me/yasmeenbook

فضحك أليك كأنه يستسخف سؤالي:

- لا أقصد أن تغريه -كما لو كان هذا بإمكانك!- لا.. لا، فأنتِ معجبةٌ لا أكثر. ولكن لا تقدمي نفسك له باسم ناديا سيميلكوفا، اخترعي اسمًا آخر، لا أريد أن يُقال إن زوجة مسؤول بالحزب تتلطف إلى صحفي أجنبي. أنا على يقين أنكِ لن تعدمي حيلة. كل ما عليكِ هو أن تعرفي ماذا سيكتب، لنكون على استعداد.

وصلت السيارة بعد نصف ساعة، كنت خلالها قد اغتسلت وصففت شعري. وأنا في السيارة حاولت أن أهدئ أعصابي، فحدثتُ نفسي أنه لا يوجد كبيرُ اختلاف بين هذه المهمة وبين مسرحياتنا الصيفية في بريالكو. كل ما أحتاج إلى فعله أن أختلق شخصية تروق لأليستير ديفلين. أي نوع من النساء قد تكون؟ جاءتني الفكرة مكتملةً، فأنا ابنةٌ لأمٍ بريطانية وأبٍ روسي، تتحدث اللغتين بطلاقة. متعلمة، ولكن ليست ذات خبرة، يسهُل على كاتب مشهور أن يبهرها. ذلك النوع السطحي البراق من النساء الذي يُرضي المعجبين بأنفسهم.

أنزلني السائق عند فندق الميتروبول، المقر الحكومي المعتمد للزوار الأجانب. مكانٌ للاجتماعات الدبلوماسية ولقاءات الصدفة، للابتسامات المهذبة والمكائد المقنَّعة. قد يبدو الوجه الرسمي للشيوعية شديد الصرامة، ولكن الميتروبول دليلٌ على أن الانغماس في اللهو لم يزل مسموحًا به، فقط لمن لديهم القدرة على المطالبة. كانت هناك ستائر وسجادة من زمن ما قبل الحرب، المطبخ لم يعد يقدم الأطعمة الشهية القديمة، ولكن المبنى لم يزل محتفظًا بعبير جماله الفخم. وفي المقصف كانت ثلاث فتيات جميلات في مشهد بالغ البهرجة، وتساءلتُ إذا ما كُنَّ هنَّ أيضًا هنا في مهمة رسمية، أم متاحاتٍ مقابل الثمن المناسب؟ تجمَّع الكُتّابُ ومشرفوهم في غرفة مقابِلة للردهة. من بعيد، يبدون كظلال مبهمة من وراء دخان السجائر، وهم يرشفون كؤوس الفودكا. لم أتمكن من تبيُّن أصواتهم وجنسياتهم المختلفة إلا عندما اقتربتُ منهم. تلك أول مرة أرى الأمريكيين فيها من كثب، فتنتني طريقة

كلامهم، كما لو أن كلماتهم بذور ينثرها الأطفال في الحديقة فتغطي أكبر مساحة ممكنة. لفت نظري أحد المترجمين الروس، جاء ناحيتي وسألني:

- الرفيقة سيميلكوفا؟

فهززت رأسي بسرعة، قائلة:

- الرفيقة كيشكينا.. يوليا.

فَهِمَ الرجل أنه من الأفضل ألا يطرح مزيدًا من الأسئلة، وقال:

- سأقدمكِ إلى السيد ديفلين، يمكنكِ أن تتحدثي مع الآخرين إن شئتِ، ولكني لا أظن أنهم سيمدونك بأي شيء ذي فائدة. الرجل ذو الشعر الأسود والسترة الواسعة يدير مطبعةً اشتراكية في نيويورك، ويريد أن يُعرِّف الجميع أنه تناول العشاء مع تروتسكي في يوم من الأيام. وهذا الرجل المخمور في الوسط يكتب روايات، أو هكذا يقول، وهو أمريكي، إلا أنه يقضي أغلب وقته في فرنسا ويسافر مصطحبًا زجاجات الويسكي الخاصة به. والرجل الذي إلى جواره يكتب للساترداي إيفِنينج بوست. أما صاحب الشعر الأشقر هذا فيعمل في جريدة شيوعية في لندن، وهو مخلص للقضية.

ورغم بعده، فالرجل الإنجليزي الذي أشار إليه آخِرًا كان يشع حماسة صبيانية، ورغم أنه بدا في مثل عمري تقريبًا فقد شعرتُ بأني أكبر منه بعقود. وعلى النقيض، كان أليستير ديفلين ذا وجه جَعْدٍ مترهل الخدين، وجه صاغته سنواتُ تجعيد الجبين والتجهم المستنكر وشفاهٌ كَثُر امتعاضها. أزرار سترته تعاني ضغطَ كرشه البالوني تحتها. لم أرَ رجلًا بهذه البدانة في روسيا منذ سنوات طوال. قدمني المترجم له تقديمًا مختصرًا وانسلَّ مبتعدًا. وكما توقعت، وجدت ديفلين مهتمًّا بي بوصفي معجبةً لا إنسانة. وما إن قلت إني حظيت بشرف قراءة أعمدته حتى شرع في خطبة عن الكتابة، وعن الصحافة البريطانية، وحماقة منافسيه الأدبيين، وعدَّد شكاوى أخرى لا حصر لها، وكنت في كل هذا أتظاهر بالانبهار. وأخيرًا قاطعته:

- هل استمتعت بزيارتك لموسكو؟

t.me/yasmeenbook

إن لم أحصل منه على بعض المعلومات فلن تكون الليلة بأسرها إلا مضيعة للوقت، وسيغضب أليك. فأجابني:

- لا يمكن مقارنتها بلندن يا عزيزتي، ولكنني دُهِشتُ؛ فالشباب الذين التقيت بهم لديهم ثقةٌ رائعة.

- نحن محظوظون بأن نعيش فجر عصر جديد.

قلتها وأنا أرفع صوتي ليسمعني مرافقو المجموعة، فكما طُلب مني أن أُبلِّغ ما أعرفه عن ديفلين، قد يكون بيننا من يُبلِّغ عني أنا أيضًا.

- تبدون كثيرًا كمبعوثيين دينيين، وإن كنتم جميعًا ملحدين. هل يمكن أن تكون الشيوعية دينًا؟

فقلت:

- ومن يحتاج إلى إله ولديه الرفيق لينين؟

- هل تحاولين أن تصدمينني بهذا الكلام؟ أحسنتِ إذن.. أحب الفتاة المرحة؛ فالاشتراكيون في بلادي جادّون بشكل كئيب.

اقتربتُ منه خطوةً وابتسمت نصف ابتسامة ساخرة، وقلت:

- فماذا ستكتب عنا في عمودك القادم؟

- أتودين أن تعرفي؟

قالها بنبرة رخيمة يقصد بها الغزل تمامًا كما كان يقصده بزمة شفتيه. هل أفلَحَت محاولته تلك من قبل مع امرأة لا تريد من ورائه شيئًا؟! لا أظن. قلت:

- أخبرني.

فقال:

- مكافأة لقارئ مخلص. ولكن لا تتعشمي أن يكون العنوان: «الانبهار بالسوفييت».

فقهقتُ، وهو رد الفعل الذي كان من الواضح أنه يرجوه، وواصل:

- ومع ذلك، سأعترف بأن بلادكم ليست في عسرة من أمرها كما كنت أتوقع، فعملية البناء الجارية باهرة جدًّا، كل هذه المصانع الجديدة..

أحسب أن هذا سيكون محور الكتابة. يجب أن يُنظَر إلى الاتحاد السوفييتي على أنه دولة بعين الاعتبار.

رحبتُ بكلامه ورحت سريعًا أُدوِّن الملاحظات في ذهني وديفلين يتحدث عن أسفاره. كان قد استقر بالفعل على السطر الافتتاحي لعموده القادم: «إن للشبح الشيوعي المخيف وجهًا فتيًّا متفائلًا». تلوته في ذهني في حين كان الجمع يَنفَضُّ، وبعدها أقلَّتني السيارة إلى المنزل. ما إن عُدت إلى الشقة حتى رحت أُدوِّن ملاحظاتي في خربشات سريعة، وأليك واقف خلفي يمعن النظر فيما أَخُط. لعلَّه الآن فخور بي؛ فلدينا ما يدل على أن أليتسير ديفلين، صوت النخبة في لندن، سيمتدح الاتحاد السوفييتي كتابةً. سألني أليك عما كتبه الآخرون وقلت إني لم أتحدث مع أي منهم. فديفلين –راغبًا في الاستئثار باهتمامي– لم يقدمني لأي منهم، رغم أن الجميع كان يأكله الفضول لمعرفة من تلك المرأة الروسية التي ظهرت فجأةً وسطهم، وفي أثناء حديثي معه التف المراسل الإنجليزي الشاب خلف ديفلين ليسترق السمع، وتظاهرتُ أني لم أنتبه إليه، وعند انفضاض الحفل وتوديعي لديفلين، راح الصحفي يحوم حولنا من جديد، وقال: «يسعدني لقاؤكِ». لم يكن لهذا معنًى، فنحن لم نتحدث أصلًا. كان شعره الأشقر وابتسامته الطبيعية يجعلانه يبدو كذلك النوع من الرجال الذي يرقص في ملهى ليلي أو يقود سيارته بأقصى سرعة، شبح من عالم خيالي. كما كان أيضًا مصدر تشتيت لي، ولم أكن لأجازف بمحادثة أخرى، فعقلي يُفرِز ويخزن كل ما قاله ديفلين. لم تجد هذه المقابلة السريعة الخالية من الكلمات طريقها إلى تقريري، بل إني لم أعرف حتى اسمه.

عندما أنهيت تقريري، قرأه أليك كلمةً كلمةً وهو يهز رأسه رضًى، ثم سألني عن حال لغتي الفرنسية، فقلت:

- هي لغتي الأولى، تحدثتها قبل أن أتعلم الروسية.

فقال أليك ساخرًا:

- واحدٌ من جملة الدلائل على أن هذه البلاد كانت قد أذِنت بثورة.

ثم تابع:

t.me/yasmeenbook

- يوجد وفد قادم من فرنسا خلال أسابيع قليلة، ويمكنني أن أضمَّكِ إلى المجموعة بوصفكِ مترجمة.

هل هذا عرض جاد؟ أم اختبار آخر لولائي؟ إن أظهرت اهتمامًا مفرطًا بالعرض فلربما سلبه مني، ليلقنني درسًا. فقلت متظاهرة بالتردد:

- سأفعل إن أردتني أن أفعل.
- تُحسنين استخلاص المعلومات، وهذا التقرير دليل على ذلك.
- لم يكن الأمر صعبًا مع ثرثار كديفلين.
- أنتِ أكثر براعةً مما كنت أظن، أو لعله الفستان.

ثم وضع يده حول خصري وأنهضني عن الكرسي، ومرَّ بيديه على بطني وجنبيَّ، وأصابعه الخشنة منقادة لنعومة فستاني، ثم التصقت شفتاه بعنقي، فاستسلمت لرغبته، كما أفعل دومًا. فمهما كان كلام أليك عن المساواة بين الرجل والمرأة في العلن، ففي البيت كان قطعًا هو السيد. وبعد نصف ساعة، استلقيتُ في الظلام أنصت إلى شخيره، وما زال على بشرتي أثر من العطر يكاد يتوارى خلف روائح الشهوة الفجَّة.

الإثارة التي عايشتها طيلة المساء لم تنحسر، فاستحال النوم. تذكرت شعوري وأنا أسير في أرجاء الميتروبول كيوليا شولكينا، وأنا أتمايل وألاطف ديفلين، وأنا ألفت انتباه شاب صغير وسيم ذي شعر أشقر داكن، لساعات معدودات كنت شخصًا آخر، لساعات وجدت مهربًا.

لندن
1938

إلى: مدير جهاز المخابرات السرية

مُرفَق بيان رسمي من السيد هارولد بينكني، مدير فندق البريستول (17 شارع بروتشستر، ويستمنستر/2). اتصل السيد بينكني بالسلطات في الثامن عشر من مايو، عقب رؤية تقرير عن وفاة ماري دوفال في الإيفينينج ستاندارد. طبقًا للسيد بينكني دخلت الآنسة دوفال فندقه في الثالث عشر من مايو، قبل الحادث بأربعة أيام. كان يصحبها رجل يُدعى السيد كلود دوفال، أشارت إليه على أنه عمُّها. لم يتحدث السيد بينكني مع السيد دوفال، ولهذا لا يمكنه الجزم بإذا ما كان يتحدث بالإنجليزية أم بالفرنسية. يغلب على ظننا أنه عميل سري أيضًا، يعمل حارسًا شخصيًّا أو مساعدًا.

كما سترى من الإفادة، فإن آل دوفال انغلقوا على أنفسهم في أثناء إقامتهم ولم يتفاعلوا مع أي أحد من النزلاء أو العمال بالفندق. ووجدت الشرطة التي فحصت غرفة الآنسة دوفال ثيابًا وحقيبة سفر وبعض الكتب باللغة الفرنسية يفحصها الآن قسم التشفير لنرى إذا ما كانت تحتوي على أي اتصالات مشفرة. ومرفق جرد تفصيلي بمحتويات الغرفة. ونحن مستمرون في إجراء المزيد من التحقيقات بشأن تحركات الآنسة دوفال داخل لندن.

- روجر

نشأت وأنا أتحدث الفرنسية وأقرأ الفرنسية، بل وأحلم بالفرنسية. وعندما وصلت إلى باريس لأول مرة شعرت وأنا أخطو خارجةً من صخب محطة الشرق بأُلفة مدهشة، كما لو كانت أرضًا حلمت بها فتحقق الحلم. وبما أني في حلم، فأنا لست أنا؛ فجواز السفر يقول إني امرأة فرنسية، اسمها

t.me/yasmeenbook

ماري دوفال. أشرت إلى سيارة أُجرة وأعطيت السائق عنوانًا في شارع جرينيل. ولَكَم أذهلني أن تبدو المدينة كما تخيلتُ دائمًا؛ واجهات فخمة تحُدّ شوارع عريضة مشجَّرة على نفس القدر من الفخامة، وأسراب من السيارات والحافلات، والمشاة الواثقين بأنفسهم، ومضات من حدائق خضراء مشذبة وسط اللون الرمادي. ذوبتني اللافتات على نوافذ المحال حنينًا، بين يافطة للمعجنات وأخرى للمخبوزات. كان لمجرد وقع الأسماء الفرنسية على أذني متعةٌ خاصة، لكنَّ أكثرَ ما أثارني كانت الوجوه. في موسكو، ينظر الناس إلى الأسفل أو إلى الأمام، ووجوههم خالية من كل انفعال. أما هنا، فهم يضحكون ويعبسون، لاهون وجادون، كاشفين عما في أنفسهم كشفًا يكاد ألّا يشوبه تحفظ. توجد لمحات من البؤس أيضًا، كهؤلاء المتسولين مبتوري الأرجل الذين يرتدون خِرقًا من بقايا أزياء رسمية، ولكنْ مقارنةً بكفاءة موسكو الباردة، فإن باريس تنبض بالحياة نبضًا.

لفتت نظراتي البلهاء انتباه السائق، فسألني إذا ما كانت هذه أول مرة أزور فيها باريس، فقلت نعم، ولِمواجهة التحدي لإخفاء حقيقة هويتي المزيفة، أعقبتُ ردي بقولي:

- أنا من الجنوب، من قرية بالقرب من بوردو.

ولما كنت متمرسةً على تغيير مسار الأسئلة التتبعية، قلت:

- لديَّ أبناء عم هناك.. هل تعرف مدام ...

وارتجلتُ اسمًا. ولم يرُدَّ السائق إلا بهز رأسه، ثم قال:

- لقد اخترتِ الوقت المناسب للزيارة؛ فقد هطل المطر طوال الأسبوع الماضي، حتى كان بإمكانكِ أن تجدفي بقارب في الشانزليزيه.

من الواضح أن هذه كانت أكثر أيام أبريل مطرًا منذ ما قبل الحرب، ولكني لم أكن مصغيةً حقًّا، فأنا لا أعرف إلى متى سأمكث هنا، وعليَّ أن أطبع كل صورة في ذاكرتي. عندما ذكر أليك لأول مرة ابن عمي ميخائيل منذ بضعة أسابيع شعرت بوجوب الحذر على الفور. في سنوات زواجنا الأربع.. زارنا سيرجي وفاسيلي زياراتٍ قصيرة، ولكننا لم نتحدث قط عن أي أحد آخر من

أقاربي -أفراد عائلة شولكين الذين فروا من البلاد-، قلت له حين أتى على ذكره:

- لم أرَ ميخائيل منذ سنوات، اثنتي عشرة سنة للدقة، آخر مرة رأيته فيها كانت في ليلة حفل ماريا.

أخبرني أليك أن ميخائيل يعيش في فرنسا، وأنه يلقب نفسه بالأمير شولكين ساخرًا بقوله:

- كما لو أن لهذا اللقب من معنى الآن.

شعرت حينها بغصة؛ فأنا أعرف معنى هذا، لقد مات إخوته الأكبر. قال أليك:

- هو عضو في جماعةٍ تُدعى (الرابطة الثقافية الروسية)، جماعةٍ للمهجَّرين تنظم مسرحيات وحفلات موسيقية روسية، ولكن أحد مخبرينا بباريس يعتقد أن وراء الأمر ما هو أكثر من ذلك، فنيكولاي رومانوف، ابن عم القيصر، رُصِد في إحدى الحفلات، كما رُصِد أيضًا حفنةٌ من مثيري الشغب. نعتقد أن هذه الرابطة ستار لمنظمة إرهابية.

لاح لي ذلك الفتي الثرثار الذي كان يرشدني فوق المرقص، وقلت:

- لا يمكنني تصور أن يتورط ميخائيل في شيء كهذا.

فقال:

- ليس بوسعنا أن نتجاهل أي تهديد محتمل. ويوجد كثيرون ممن يرحبون بتمويل ثورةٍ ضد الاتحاد السوفييتي وإعادة عائلة رومانوف. لم نتمكن من اختراق الرابطة بعدُ، فميخائيل وأصدقاؤه يُحْكِمون السيطرة عليها، ولذلك نحتاج إلى شخص بإمكانه اكتساب ثقتهم.

سألته:

- هل نحن ذاهبون إلى باريس؟

- أنتِ ذاهبة إلى باريس، وحدكِ.

تقطعت أنفاسي وفقدت اتزاني، فأليك يعرض عليَّ مهربًا من موسكو، من روسيا، من حياةٍ تمحو كل ما تبقى من نفسي الحقيقية، إن كانت لا تزال

t.me/yasmeenbook

بقية! ولكنه إذن غلب على ظنه أني أريد هذا العرض، كلما زاد احتمال أن يسلبه مني. فنظرت إليه نظرة حائرة، نظرة زوجة أربكتها مخططات زوجها، فقال:

- أنا معروف جدًّا، وإن علم أحدٌ أن مسؤولًا في الهيئة السياسية موجودٌ في باريس فسيغلق الجميع فمه ويختبئ. هل تعتقدين أن ميخائيل يعرف أنك متزوجة؟

فهززت كتفيَّ، وقلت:

- لا أظن، فلم أعد على اتصال بهذه الناحية من العائلة منذ غادروا روسيا.

فقال:

- إن وجدتِه يعرف، فقولي له إنك طلقتِني بعدما جعلتُ حياتك بالغة البؤس.

وسكت قليلًا تاركًا اقتراحه معلقًا ليرى إذا ما كنتُ سأراوغه، ثم قال:

- سأرتب لك وظيفةً مؤقتة في السفارة الروسية، عملًا ما في مجال الترجمة، ومن ثم تتعقبين ابن عمك الذي لم تريه منذ أمد بعيد، وتتحدثين معه عن الأيام الخوالي، عن كل تلك الحفلات في قصركم.

لا عجب الآن أن يتزوج ثوريٌّ مخلصٌ كأليك بنبيلة سابقة. كلما مر الوقت عرفت أن أليك لم يتزوجني على الرغم من جذوري، بل من أجلها. أنا غنيمته من الثورة، لا فرق بيني وبين الملابس وأطقم الصيني التي انتهبها الفلاحون انتهابًا من بريالكو. كان أليك يحب أن يدوس بإصبعه على جروح قلبي، وكلما أسرعتُ بإظهار تألمي انتقلَ إلى موضوع آخر، بحثًا عن جرح جديد ينكؤه. فأخذتُ -عامدةً- أتذكر الردهة الأمامية لمنزلنا، وأبي وأمي، وقد تزيَّنا لقضاء سهرة بالخارج، وأنا أرتدي ثيابي الليلية، واقفةً أعلى السلم، أُلوِّح لهما بالوداع، وإلى جواري فيلدز. سمحت للحزن أن يحرق روحي، ليظهر أثره في وجهي، فيراه، فيقنَع، ثم قلت باقتضاب:

- ميخائيل كان يعيش في موسكو، ولا نعرف بعضنا جيدًا.

- أثق بقدرتك على الإقناع.

ثم راح ينظر إليَّ –كما يفعل دائمًا- نظرة بين الاستمتاع والتحدي. قلت:

- قد يتعين عليَّ أن أتقوَّل أشياءَ لا أعنيها، لأكسب ثقة ميخائيل، فما الذي يمنع أحد مخبريك من الإبلاغ عني على أني خائنة؟

- لا تقلقي حيال هذا. لو وجدتِ دليلًا على مؤامرة فستكون المكافأة كبيرة.. لكلينا.

قلت لنفسي: «وحينها أيضًا سأخون عائلتي من أجل نفس الأشخاص الذين قضوا عليها، ولكن هذه معضلة ليوم آخر». أظهرت نوعًا من عدم الرغبة في الأمر، وقلت:

- ليكن، إن كان هو ما تريده.

لم أصدق أن أليك سيتركني حقًّا أذهب، حتى بعد أن جُهِّزت أوراقي الزائفة ووُقِّعت، وبعد أن خطَّ لي أليك مسارَ القطار، ودسَّ بعض أوراق البنكنوت الفرنسية في بطانة حقيبة السفر. عندما ركبتُ القطار في موسكو، توقعت أن يُبدي مشكلة ما في اللحظة الأخير، أي سببٍ مختلق لإبقائي في روسيا. عند المعبر الحدودي مع فنلندا بدأت استخدام جواز السفر المزور، باسم ماري دوفال، وأنا أسأل نفسي: «هل الأوراق متقنة التزوير أم ستكون سببًا في إلقاء القبض عليَّ». طوال الطريق من فنلندا إلى بولندا، ومنها إلى ألمانيا ثم فرنسا جلست جامدةً يأكلني القلق، فمجرد سؤال واحد يشكِّك في لكنتي كافٍ لكشف شخصيتي المزيفة. ولكن لم يتكلم معي أحد أو حتى يطيل النظر إليَّ. ولم يبدأ خوفي في الانحسار إلا عندما وصلت إلى باريس، الآن أنا آمنة.

- ها قد وصلنا.

هكذا أعلن السائق. خرجت لأجد نفسي أمام مبنى مكتبي من ثلاثة طوابق عليه لوحة لشركة محاماة. لم أعبر الطريق إلى وجهتي الحقيقية إلا بعد أن غاب السائق عن نظري. أخبرني أليك أن أحاذرَ بشأن من يراني وأنا أدخل وأخرج. كانت السفارة الروسية عبارة عن قصر أنيق من قصور القرن الثامن عشر، ذلك النوع من القصور المميزة التي يحب الثوار نهبها وإحراقها. مررت

t.me/yasmeenbook

بحارسٍ تفحَّصني من رأسي حتى أخمص قدمي، وقد استراحت إحدى يديه فوق بندقية على خصره.

كانت غرفة الاستقبال الرئيسة رسميةً بشكل بائس، بها قطع شمعدان علاها التراب ورائحة عفن فطري قوية. قلت للرجل الجالس إلى المكتب الأمامي إنه يوجد ميعاد لي مع الرفيق باتلوف، الذي ظهر بعدها مباشرة. كان له وجه مستدير عجينيّ، وشعر شائك قصير كأسنان فرشة. أعتقد أنه في الأربعينيات، عُمر كافٍ لأن يكون بلشفيًّا قبل الثورة بوقت طويل. لا بد أنه قام بشيء ذي قيمة ليحظى بمثل هذه الوظيفة المحترمة. نظر إليَّ نظرةَ هرٍّ يوشك أن يعبث بلعبة جديدة، ثم قال:

- آنسة دوفال! كيف كانت رحلتك؟

- طويلة.

وابتسمت لأريه أنَّ التعب لم يتغلب عليَّ، مع أن الإرهاق كان قد بدأ يتمكن مني متأخرًا، إذ لم أنَم في القطار إلا شيئًا يسيرًا. اصطحبني الرفيق باتلوف عبر الرواق على سجادة لطختها آثار أقدام موحلة، وقال:

- ظل المبنى خاليًا منذ 1917 حتى العام الماضي، فقد استغرقت فرنسا كل هذا الوقت قبل أن تعيد العلاقات الدبلوماسية. وكما ترين فما زلنا نرتب الأمور.

ثم قادني إلى مكتبه حيث تناثرت قطع قليلة من الأثاث غير المتناسق كما لو كانت في حرب مع أكوام من الصناديق. جلس خلف مكتبه وأشار إليَّ بالجلوس أمامه، ثم دفع مظروفًا كبيرًا تجاهي، قائلًا:

- كل ما تحتاجين إليه موجود هنا؛ المال والوثائق وكيف تصلين إلى شقتك. الإيجار مدفوع مُقَدَّمًا لستة أشهر، باسم الآنسة دوفال. مالك المبنى من النوع الذي لا يطرح الأسئلة، ولكن نفضل ألا يعرف أنكِ روسية، هو يعتقدُ أن رجلًا ثريًّا قد استأجر المكان كعش حبٍّ لعشيقته.

قلت في نفسي: «هل يوجد جزء من المهمة لم يخبرني به أليك؟!». ثم قلت له:

- أرجو ألا تنتظر مني أن ألعب دور العشيقة.

فقال:

- لا.. لقد رشونا المالك بكرم، حتى نتأكد أنه لن يزعجكِ أحد. ولديكِ أيضًا أوراق باسم ناديا شولكينا، فلعلكِ تحتاجين إلى إظهارها حين تكونين برفقة روسيين آخرين. يجب ألّا يعرف أحد من هو زوجكِ، وأيضًا لا أحد في السفارة غيري يعرف هذا.

قلت:

- أخبرني أليك أني سأتخذ وظيفة في الترجمة.

- نعم، ستترجمين وثائق خاصة باتفاقية تجارية بين السوفييت والفرنسيين. أحضرت لكِ الأوراق، ومن وقت إلى آخر ستُدعين إلى اجتماعات في وزارة التجارة، ولكن لن يستغرق منكِ هذا أكثرَ من ساعات قليلة كل أسبوع. وظيفتكِ الحقيقية مع الرابطة الثقافية الروسية.

- متى أبدأ؟

- زوري ابن عمك، الأمير شولكين.

قالها بنبرة بانت فيها السخرية، متابعًا:

- سليه عن أحواله وكيف يقضي وقته. لا أنتظر أن يعترف بكل شيء في أول لقاء بينكما، تقرَّبي منه ومن أصدقائه، اذهبي إلى العروض التي تنظمها الرابطة وتوددي إلى أعضائها القدامى، وعندما يحين الوقت، أسرِّي إليهم بتعاستك في موسكو وحنينك للماضي، لأيام ما قبل الثورة، ثم انظري ماذا يكون منهم.

وراح ينظر إليَّ كما يفعل الرجال المخضرمون وهم يعطون الأصغر منهم دروس الحياة، وواصل حديثه:

- لستِ في حاجة إلى أن أقول لكِ إن هذه أوقات حساسة بالنسبة إلى الحزب والبلاد، ولو ساعدتِنا في اكتشاف مؤامرة فإن هذا سيضعكِ، بل سيضعنا جميعًا أنا وأنت والرفيق سيميلكوف- في مكانة عالية.

t.me/yasmeenbook

في السنتين التاليتين لموت لينين، انقسم البلاشفة إلى فصائل، كلٌ يحارب في سبيل ما يزعم أنه روح الحزب. والآن، أليك متحالف مع السكرتير العام ستالين، ولكن مَن يعرف حتى متى سيظل على رأس السلطة؟ والطريقة الوحيدة للبقاء في السلطة –وخارج السجن أيضًا- هي أن يُثبت المرء أنه ذو قيمة، وذلك لا يتحقق إلا باستئصال الأعداء. وفجأةً، تجلى الوجه الحقيقي لمهمتي؛ لم يرسلني أليك إلى هنا لأعرف هل توجد مؤامرة أم لا، بل قرَّر أنه توجد مؤامرة، ويريد أن يحظى بشرف القضاء عليها. لكن ماذا لو كان مخطئًا؟ لو لم توجد مؤامرة؟!

عادَ باتلوف إلى الكلام:

- والآن إلى التفاصيل؛ توجد أعين وآذان تترصد في كل أنحاء هذا المكان، فمن المستحيل أن يُحتفَظ بسر في سفارة. عندما تحصلين على ما ينبغي الإبلاغ عنه سنلتقي في كافيتريا على بعد خطوات، وضعتُ لكِ علامة عليها في هذه الخريطة. لا يوجد هاتف في شقتك، ولكن سأرسل إليكِ ملحوظةً باسم السيد باسكال متى احتجتُ إلى رؤيتك، وإن أرسلتِ إليَّ أي رسالة فستكون باسم الآنسة دوفال.. مفهوم؟

فأومأتُ بنعم. نهض بعدها باتلوف يتعجل خروجي قبل أن يراني أحد في مكتبه. سرت قدر بنايتين ثم أشرت إلى تاكسي، وأكلتني الحسرةُ ونحن نترك وراءنا الشوارع الكبيرة الفخمة، لنغوص في أزقة ضيقة، حوائط مبانيها يعلوها سواد السخام. والمبنى المفترض أن يكون بيتي الجديد ما هو إلا أدوار أربعة من نوافذ متسخة وأحجار تداعت، تفوح من سلَّمه رائحة دورات المياه المشتركة، وخيبة الأمل. ما أشار إليه باتلوف كشقة لم يكن في الحقيقة إلا حجرةً، أثاثها سرير يعلو صريره، ومنضدة شوهتها الخرابيش، وموقد غاز صغير محشور في الزاوية. ولا تطل نافذة الغرفة الوحيدة إلا على الطوب والأسمنت من مبنى مجاور. ما أبهجكِ يا باريس! لم يستغرق استقراري بالمكان وقتًا طويلًا؛ فليس معي الكثير من المتاع. كان المكان في حاجة إلى تنظيف شامل، لكن، وعلى غير المتوقع بالمرة، شعرت بموجات من الرضا. قد يبدو مسكني كزنزانة، ولكنني الآن حُرة.

في ذاكرتي لم يزل ميخائيل ذلك الفتى الطويل النحيف ذا الخمسة عشر عامًا، الذي رقص معي وأنا أرتدي أول، وآخر، فساتين حفلاتي. عندما فتح باب شقته، على بُعد خطوات قليلة من حدائق التُويْلِري، رأيت كم كبُر. لم يصبح أطولَ فحسب، ولكن أكثر امتلاءً أيضًا. شعره الداكن تدلى خصلًا كبيرة على جبهته، وبدلته السوداء قد بليت عند الكتفين وأطراف الأكمام من كثرة الاستخدام. صار مظهره كتاجر بسيط أو كعامل مصنع، كأي شيء إلا أن يكون أميرًا. فاجأني دفءُ عناقِه، وسعادةٌ صادقةٌ قبَّل بها خديَّ. ساد الصمت بيننا لحظاتٍ رحنا فيها نهضم التغيرات التي حلت بنا منذ آخر لقاء بيننا. رحت أسأل نفسي: أما زال يراني بفستاني الحريري الأخضر أرقص في الحفلة وسط أشخاصٍ هم الآن في القبر؟ حينها كان يبدو أكبر مني بكثير، ولكن الآن وهو في السابعة والعشرين وأنا في الرابعة والعشرين، لم يعد الفارق ظاهرًا. وجدتُني أُعجب به على الفور، أكثر بكثير مما كنت أظن. قادني ميخائيل إلى غرفة جلوس فسيحة تظللها أجواء من الأناقة الوافرة بفضل الستائر الثقيلة والسِّجاد السميك. وعلى المناضد تناثرت التماثيل الصينية الصغيرة وقطع البلور المزخرفة، وأدركت أنه قد مضت أزمان منذ أن رأيت مكانًا مملوءًا إلى هذا الحد بأشياء لا فائدة منها. لا بد أن العائلة قد تبَقّى لديها بعض المال، وإلا لباعوا كل هذه الأشياء.

- لكم سرَّني أن أتسلَّم رسالتكِ. أخذتْ أمي الأطفال إلى الحديقة وسيعودون قريبًا. إنهم يتحرَّقون شوقًا لرؤيتك أيضًا.

ثم رفع إبريق الشاي يسألني إذا ما كنت أريد بعضًا منه، فأومأت بنعم.

- مَن يعيش معكَ هنا؟

- بالطبع، أمي، اشترت هي وأبي هذه الشقة منذ سنوات، حمدًا لله، فمن المستحيل أن تجدي هذه الأيام مكانًا كبيرًا كهذا بإيجار يمكن دفعه، فالروس يجيئون أفواجًا؛ ما يَزيد الأسعارَ كثيرًا.

t.me/yasmeenbook

وابتسم ابتسامة ظريفة وهو يناولني كوب الشاي. كانت قطعة كبيرة من الفطير مبسوطة على طبق، ولكن لم يكن هناك خادمة لتقدمها، تمامًا كما توقعت. وواصل حديثه:

- وتقيم هنا أيضًا أرملتان من أخواتي، وأطفالهما، كما أن يقيم ثلاثة من أطفال أخي الأكبر.

ومع أني أعرف الإجابة إلا أنه كان من اللياقة أن أسأله عن إخوته، فقال:

- ماتا في الحرب.

أي حرب؟ قبل الثورة أم بعدها؟ لم أكن لأسأل لولا أن ميخائيل كان سيذكر القصة من تلقاء نفسه. قال:

- وهذا يجعل منا اثني عشر شخصًا في شقة من ثلاث غرف، لو كنّا في الماضي لراعنا مجرد تصور حال كهذه، ولكننا ندبر أمورنا جيدًا؛ فالأولاد في غرفة، والبنات في غرفة، وأمي مع أختي في غرفة، أما أنا فحالفني الحظ وعندي غرفتي الخاصة أمام المطبخ، كانت سكنًا للطباخ، وهي أهدأُ مكان في المنزل.

قد يبدو ميخائيل كعامل في هيئته تلك، لكنْ لم يزل في تصرفاته أميرًا من آل شولكين؛ كريمًا ولبقًا، إنسانًا اعتاد النبل، مهما كانت الظروف.

سألني عن وظيفتي وكم سأمكث في المدينة، فقلت:

- أترجم لوفد تجاري، ولا أعلم كم سأبقى.

لم يمضِ على لقائنا أكثرُ من خمس دقائق، وهأنذا ألقي كذبتي الأولى. ثم قلت له إن الأمر يتوقف على المدة التي ستستغرقها المحادثات، وإنها ستكون بضعة أسابيع على الأقل.

بيني وبين نفسي كنت أقول: «وأكثرَ من هذا، إن أعطيتني مبررًا للشك فيك». طردتُ عن رأسي هذا الخاطر، وانحرفت بالحديث إلى العائلة. أخبرته عن بريالكو وعن أبي وأمي. وتوجد أخبار تبعث على التفاؤل أيضًا، فسيرجي لم يزل يكتب لي ويرسل خطابات مبهجة من المدينة التي تغير اسمها مرة أخرى فصارت لينينجراد. وفاسيلي تزوج حديثًا، بامرأة لم أرَها من قبل،

أخت أحد زملائه من الضباط، ووعدني أن تأتي معه في زيارته القادمة إلى موسكو. كان لميخائيل أيضًا نصيبه من الخسائر؛ ففي أثناء هجرة عائلته الجماعية على السفن المكتظة التي حملت على متونها الروس الفارّين من القرم، ماتت إحدى أخواته بالتيفوس. كما أنه رأى المزيد من آل شولكين وهم يتشتتون في أنحاء العالم بين أمريكا والأرجنتين وألمانيا وفرنسا. وفي فوضى أحداث الحرب الأهلية -وبكل بساطة- اختفى بعضهم. قال:

- نحن أوفر حظًّا من معظم الناس بالعيش هنا، نتعاون فيما بيننا في كل ما يمكن أن نقوم به. ليس من السهل الحصول على تصريح عمل، ولكنَّ واحدًا من نسائبي يعمل نادلًا في مطعم. ومَصنَع «رينوه» يُعيِّن الكثير من الروس، يحبون جنودَ القيصر السابقين، فهم يطيعون الأوامر. أفكر في العمل على تاكسي، ولكن المشكلة الوحيدة أنه سيكون عليَّ أن أتعلم القيادة أولًا.

قالها، وضحك إقرارًا بغرابة تخيل الأمير شولكين يُوصِّل السائحين عبر باريس، وهو من كان له في ماضيه زمرة من السائقين الخصوصيين. إن من يحسنون النجاة من الكوارث، مثلي ومثل ميخائيل، تعلموا أن يسخروا من تصاريف القدر، لا أن يبكوا عليها.

- هل تعرف كثيرًا من الروس في باريس؟

يجب ألّا أنسى أنَّ عليَّ أنْ أحصل على ما أخبر به باتلوف في لقائنا القادم. فأجابني:

- بالطبع، فهم في كل مكان، يثيرون حنق أبناء باريس.

عرض عليَّ ميخائيل طبق الفطائر، ولكني هززت رأسي بعدم رغبتي، وإن شعرت بشيء من الجوع، فهذه فطائر مشتراةٌ من محل، ويبدو أنها غالية ولم تُشترَ إلا على شرف ضيف عزيز. يحسُن أن أتركها للأطفال، حلوى لهم.

- كل واحد منا يعين أخاه، كلٌ قدرَ استطاعته، فالأطباء الروس، وإن ظلوا غير قادرين على الحصول على الرخصة المطلوبة، إلا أنهم يعالجوننا علاجًا غير رسمي. وفكرة التاكسي جاءتني من ضابط قديم في الحرس

t.me/yasmeenbook

الإمبراطوري، كوَّن أسطولًا خاصًّا به، ويقول إنه سيوظفني معه إن أردتُ.

كان عليَّ أن أتقحُّم ما يهم فعلًا، فقلت:

- سمعت أن كثيرًا من الفنانين انتقلوا إلى هنا. لا بد أن هذا مما يجعل للحياة طعمًا أكثر إثارة. ما زلت أذكر قولك إنك تعشق المسرح.

- بعض الأعمال هنا طليعية أكثر مما يحتمله ذوقي، مثل دياجيليف ورقصاته المجنونة. أنا مشترك في مجموعة صغيرة تنظم حفلات موسيقى وعروضًا أكثرَ تقليدية. كما أنه يوجد الكثير من الممثلين والمطربين الرائعين ممن أتوا بعد الثورة، لا نقص لدينا في المواهب. ستنظم المجموعة عرضًا يوم الأربعاء القادم، لتاتشيكوفسكي وراتشمانينوف.. يجب أن تأتي.

وقبل أن تتاح لي فرصة لطرح المزيد من الأسئلة، سمعنا جلبة في الرواق، وانتهت جلستنا الهادئة بضجة أطفال حادّي الصوت. وسرعان ما وجدت نفسي وسط عائلة ميخائيل أحاول أن أجيب عن عشرات الأسئلة في الوقت نفسه، لساعة كاملة. ولم أتحدث إلى ميخائيل مرة أخرى قبل رحيلي إلا لِمامًا، ولكن هذا لا يهم، فقد فعلت ما أحتاج إلى فعله.

قابلتُ باتلوف في الصباح التالي في مقهى يقدم الشراب لرجال ذوي جلود خشنة وأكتاف تحدبت، يشربون بنهم. قلت لباتلوف:

- إن ميخائيل يشعر بالحنين للماضي، وإنه يتواصل مع أعداد كبيرة من الروس، حقائق توحي بأن وراءها شيئًا، ولكنها لا تُدين أحدًا. كما اعترف بأنه عضو في مجموعة تُروِّج للثقافة الروسية، إلا أنه لم يذكر الرابطة بالاسم. سأذهب إلى إحدى حفلاتهم الموسيقية ليلة الأربعاء المقبل.

تناول باتلوف رشفة من القهوة. كانت طاولتنا هي الوحيدة التي لا يتوسطها زجاجة نبيذ واحدة على الأقل.

- اكتشفي من هم القادة الآخرون، افتنيهم، لا تسألي الكثير من الأسئلة الواضحة في المرة الأولى؛ بناء الثقة أهم. سألتقي بكِ هنا صباح الخميس في التاسعة للحصول على تقرير بما جرى. لن تصدقي أنهم يقدمون هنا فطورًا جيدًا، وزوجة صاحب الكافيتريا هي من تُعِد الخبز بنفسها.

لوح باتلوف للنادل المتكئ على البار، وقال بصوت عالٍ:

- طبقين من الدجاج المشوي!

ثم، وبابتسامة كست وجهه كله، قال:

- يحق لنا أيضًا أن نستمتع ببعض الوجبات الجيدة في أثناء وجودنا هنا، أليس كذلك؟

يبدو أني لم أكن الشخص الوحيد الذي يريد البقاء في باريس لأطول مدة ممكنة.

كل ما عُزِف في الأمسية الموسيقية التي دعاني إليها ميخائيل.. بدا كأنه مختار بعناية ليهيج الشجن ويثير الدموع، فعازف البيانو والرباعية الوتري بدَوَا شديدَي الحزن، وما انتهوا من العزف إلا ونصف الجمهور يمسح الدموع عن وجهه. كان عددنا يقارب المئة، جالسين على كراسي محشورة حشرًا في بهوٍ بشقة فخمة لدوقة روسية، على بعد عدة خطواتٍ من متحف اللوفر. يوجد رجال يرتدون ربطات العنق وحللًا بيضاء طويلة الذيل يبدو الثراء عليهم، هؤلاء هم مَن كانوا على قدر كافٍ من الذكاء لتكديس ثرواتهم في الخارج قبل الثورة. أما الآخرون، مثلي أنا وميخائيل، فقد ارتدينا بِزّاتٍ مرقعة وفساتين باهتة. وفي وجود كل أمارات الفقر هذه بدا غريبًا أن ترفل مضيفة حفلنا الليلي في الحليّ بشكل يبدو أكثر ملائمة للظهور في إحدى حفلات التقديم. لعلها كانت ترى في هذا نوعًا من التحدي. وبعد أن حيّا الجمهور العازفين، دعتنا الدوقة إلى غرفة مجاورة اكتظت فيها طاولة البوفيه بأطباق الطعام.

رحتُ أرتدي ثياب المخالطة، وقد استحضرتُ مِرآةً عليها صورٌ تباينت ظلالُها من محادثة بعينها في محفل رسمي؛ كلٌ قائم، وبيده بطاقة عليها اسم

t.me/yasmeenbook

يخربشه وأوجه يَألفُها المتكلم وصاحبه، ثم يضعُ أحدهما إصبعًا على وجه يألفه، ويعدد كل واحد موتاه. ما أملَّ هذا، وما أتعبَه! لا أحسب أني سأجد ما يُشبِعُ جائعًا في مكان عامٍّ كهذا. اندفع الجميع في جهة ما، فتلكأت، ورحت أنتظر أن يحصل كلٌّ على طعامه وينسلَّ به إلى رِفقة صغيرة يذوب وسطها هو وطعامه. وحينها فقط أقترب إلى مَن أود.

من ورائي، سمعت من ينادي بالإنجليزية:

- مرحبًا! عزيزتي.

عرفت الصوت على الفور. فعلى الرغم من أنني تقربت إلى العشرات من الزوار الأجانب في السنوات القليلة الماضية، كل مرة باسم مستعار مختلف، فإنني لم أنسَ قط المراسل الإنجليزي الشاب ذا الشعر الأشقر الداكن والعيون المبهجة الذي كان يحوم خلف أليستير ديفلين في فندق الميتروبول. مدَّ يده إليَّ بحميمية جريئة، وقال:

- لي كوبر.

في تلك الليلة، لم يقدم كل منا نفسه للآخر، لكنني كنت أستخدم اسم يوليا كيشكينا، فهل سمع أحدًا يناديني بهذا الاسم؟ ما الاسم الذي يجب عليَّ أن أستخدمه؟ ولحسن حظي، حسب "لي" ترددي ارتباكًا، وقال:

- أعتقد أننا التقينا في موسكو، في حفلة كُتّاب في ميتروبول؟ آسف، لا أتذكر اسمكِ.

فقلت:

- نادية شولكينا.

مددت يدي، وصافحته بقوة وثقة، قائلة:

- أنا مندهشة أنكَ ما زلتَ تذكرني.

- لقد تركتِ انطباعًا لا يُنسى، كما أني كنتُ موجودًا مع نفس المجموعة من الرجال لأسبوعين تقريبًا، وكنتِ أول فتاة روسية جميلة أراها عن قرب.

ربما كان وصفه لي بالجميلة يسعدني أكثر لو أني لم أشعر أنها مجاملة كثيرًا ما يلقيها. وبحذري المعتاد والمستحق تساءلت: لِمَ يتصادف أن يمر نفس الرجل الإنجليزي بطريقي مرتين في موسكو، وفي باريس أيضًا؟!

- لماذا جئتِ إلى فرنسا؟

- أقوم ببعض أعمال الترجمة للسفارة.

وبمغازلةٍ خجلة كالتي يتوقعها لي من فتاة جميلة، قلت:

- وأنتَ، ما الذي جاء بكَ إلى فرنسا؟

- لا أعتقد أنكِ على دراية بنشرة العمال الأسبوعية؟

هززت كتفي وقلتُ:

- أقرأ بعض الصحف البريطانية، من أجل العمل.. كما تعرف. لكن يوجد كثير جدًّا من الـــ...

- لا داعي للانزعاج، فنحن فخورون بأن نفتقر إلى الشهرة الدولية. لقد عُيِّنتُ مؤخرًا مراسلًا للنشرة في أوروبا.

- وأنت الآن تكتب عن الحفلات الموسيقية؟

- لستُ هنا من أجل العمل، بل رغبة شخصية بحتة، فقد أصبحتُ أسيرًا للثقافة الروسية، بعد زيارتي لها، ولأكون أكثر أمانةً، لقد أصبحتُ مفتونًا بروسيا كلها.

وحُق له أن ينبهر، فما دُعيَ الأجانبُ لهذه البلاد إلا إلى أماكنَ لا يُرجى منها إلا إبهارهم، وبالطبع لا يتجول القائمون على الرحلة بهم إلا في ثكنات العمال النظيفة، والعيادات العامرة بالإمدادات، والمصانع الحديثة الهادرة. لم يكن يعرفُ أن تلك المصانعَ بنتها يد السُّخرة. لا يحظى الأجنبي الزائر لهذه البلاد بالتحديق إلى جثث الخيول وقد مزقتها الأيادي بحثًا عن اللحم في الجيف، لا يحظى الأجنبي برؤية اليأس القاتل على وجه الأطفال الجائعين. قال:

- حاولتُ أن أتعلم قليلًا من اللغة، وعازف التشيلو الذي كان يعزف اللية يساعدني في هذا، ولكن لا أظن أني سأفلح في هذا، ففمي يبدو عاجزًا

t.me/yasmeenbook

عن نطق بعض الأصوات، ولكن على الناحية الأخرى فإني أرى لغتكِ الإنجليزية جيدة جدًّا.

- كانت لديَّ مربية بريطانية.

تذكرتُ تذكرًا عابرًا الآنسة فيلدز. لم أتمكن قط من إرسال خطاب إلى إنجلترا من الاتحاد السوفييتي، لكن الآن أنا في باريس ويمكنني أن أراسلها، فقط لو عرفتُ أين تعيش، لكن لا أمتلك وسيلة لمعرفة ذلك، فلا أعرف أين نشأت فيلدز، ولا إلى أي مدرسة ذهبت، أو أي شيء عن عائلتها، بل حتى لم أكن أعرف اسمها الأول.

- هلّا أحضرنا بعض الطعام؟

سألته، وأنا أميل بنظري نحو غرفة الطعام.

- بكل سرور. ويسعدني أنكِ لستِ من هؤلاء النساء اللواتي دائمًا ما يتظاهرن بعدم الجوع.

طبعًا لم أكن لأخبره أنه من بعد شتاء عام 1919، وأنا لم أرفض قط فرصةً لتناول الطعام، وعندما أكون بمفردي ألعقُ الطبق لعقًا. سألته:

- هل تحب الطعام الروسي؟

- نعم، معظمه. لا أستطيع أن أقول إنني مهووس بالكافيار، ولكن معظم الأطعمة الأخرى طيبة. كما أني أحب تجربة الأشياء الجديدة. هذه إحدى مزايا السفر.

ناولني "لي" طبقًا، وتبعني وأنا أضع لنفسي الزلابية وملفوف الكرنب. وعندما انتهيت، وقفت عند حافة الطاولة لا أدري إلى أين نذهب بعد ذلك. انقسم رواد الحفل الآخرون إلى مجموعات من ثلاثة أفراد أو أربعة، كل مجموعة منها تصدر سيلًا عفيًّا من اللغة الروسية. لم أستطع استجماع إرادتي لمقاطعة إحدى تلك المحادثات والخوض في جولات من التعريف والأسئلة. التحدث إلى "لي" أسهل من هذا بكثير.

- ناديا!

رفع ميخائيل يده لجذب انتباهي عبر الغرفة، فالتفتُّ لأرى ما إذا كان "لي" لم يزل خلفي أم لا، ولكن ناداه رجلٌ طويل يرتدي بدلة توكسيدو. حاولت أن أشرح له بقولي «ابن عمي»، لكن "لي" أومأ برأسه مشتتًا. لست متأكدةً إن كان سمعني أم لا. ثم سألني ميخائيل عندما وصلت إليه:

- تصنعين صداقات؟

- أمارس لغتي الإنجليزية. إنه يعمل في صحيفة بريطانية.

- ماذا يصنع هنا؟

فهززت كتفي، وقلت:

- يحب الموسيقى الروسية.

- والفتيات الروسيات.

- كُف عن هذا!

ودفعتُ بقطعة من الزلابية في فمي وأشحت بنظري كيلا يري ميخائيل أمارةَ الخجل على وجهي. لو كان أليك لظل يغرس إصبعه في مكان الألم ليطيل انزعاجي، ولكن ميخائيل غيَّر الموضوع بسرعة، وقال:

- هيا لأعرفكِ إلى الضيوف.

قابلتُ رجالًا ونساء من النبلاء ورجال الأعمال السابقين، تحدَّثوا عن أحوالهم الجديدة بعبارات بين الحزن والتسلّي. عند البلاشفة، كل من قابلت يعد عدوًّا طبقيًّا، لا فرق بين أحدهم والآخر. والحقيقة أن لكل منهم قصته الخاصة عن الموت والفوضى، كل منهم تنوء ذاكرته بحمل مختلف. على الرغم من أني لا أذكر أني قابلت أيًّا منهم من قبل، فإن العديد من الأسماء كانت مألوفةً، من الدوائر الاجتماعية في سانت بطرسبرج وموسكو، فوجدت بعض العسكريين القدامى ممن قابلوا أبي من قبل، كما تعرَّف الكثير إلى اسم أمي.

شعرتُ وأنا في هذه الغرفة وجواهر الدوقة تتلألأُ في ضوء المصباح، بأن شيئًا لم يتغير، وأنني قد أستدير لأرى أبي في زِيِّه العسكري وإحدى يديه قابضة على سيفه التذكاري بإحكام. ثم رأيت الأحذية البالية وحافات الثياب المهترئة، ورأيت نغمة الحزن الخفية السائدة في الغرفة. لا.. بل تغير

t.me/yasmeenbook

كل شيء. كان هناك ثلاثة رجال يشكلون نقطة مركزية وسط الغرفة تجذب الضيوف إلى مدارها دخولًا وخروجًا. نظرت ناحيتهم نظرات سريعة ورحت أتساءل: مَن هؤلاء؟ لاحظ ميخائيل اهتمامي، فأخذ ذراعي وسار بي نحوهم. وفي طريقنا إليهم قال مغمغمًا:

- هذا الشخص على اليسار سيحاول مغازلتك، جارِه وستجعلين من رجل عجوز رجلًا في منتهى السعادة.

قدمني ميخائيل إليهم بصفتي ضيفة الشرف، متباهيًا بي. كانت أسماء الرجال مألوفة، كلهم عائلات أرستقراطية، لكن ميخائيل قدمهم بسرعة كبيرة لدرجة أنني نسيت مَن يكون مَن، فأسماهم عقلي: الجنرال والكونت والدوق. كانوا جميعًا في الستينيات أو السبعينيات من العمر، إلا أن الجنرال قد صبغ شعره وشاربه الملمع بالشمع، باللون الأسود. أخذوا يتوددون إليَّ كعشاق في حفل، وعندما عرفوا أنني آتية من موسكو، راح الجميع يتكلم في نَفَس واحد، كلٌ يريد أن أجيب سؤالاته أولًا:

- هل يعرف ستالين ما يفعله؟ سمعت أنه يفقد أتباعه. هل التقيتِ به؟ يقولون إنه شخص غاشم. لا يمكن أن يكون أسوأ من ذلك الرجل المجنون لينين، أليس كذلك؟ يجب أن يتعفن جسده على الأرض، لا أن ينصبَ صنمًا وسط الميدان الأحمر. أخبريني كيف يبدو؟

بذلت قصارى جهدي للإجابة:

- لم ألتقِ بستالين من قبل. الوضع السياسي يتغير من يوم لآخر. نعم، رأيتُ جسد لينين محنطًا في علبته الزجاجية، وقد كانت مرة واحدة كافيةً.

قال الكونت:

- إن هي إلا مسألة وقت وينهار كل شيء.

عبارةٌ ربما رددها منذ 1917.

وواصل:

- لم يكن الفلاحون يدعمون البلاشفة قط. لقد خدعتهم أكاذيب لينين.

فأضاف الدوق:

- طوال الوقت أقول إنه خطأ السياسيين، فبعد أن تنازل القيصر راحوا يتصارعون فيما بينهم حتى استولى لينين على البلاد.

ثم دارت مناقشة بشأن ما كانوا ليفعلوه لو أنَّ دفة الأمور بيدهم، وميخائيل يعتذر إليَّ بقسمات وجهه عما وضعني فيه. كانت محادثةً لها الإيقاع الممل لمسرحية بالغة الطول، مؤلفة من أسطر مكررة، بما يبعث على الغثيان. وأخيرًا قاطع ميخائيل الحديث، قائلًا:

- أيها السادة، هل يمكننا ترك السياسة جانبًا؟ لقد وعدتُ بنتَ عمي بأمسية موسيقية، لا بسرد المعارك القديمة.

فقلت:

- كانت الموسيقى رائعة، سُعدت حقًّا لوجودي هنا.

اقترب مني الكونت، يؤمِّل نفسه في الحصول على انتباهي كاملًا، وقال:

- التراث الثقافي لروسيا هو الكنز الوحيد الذي لا يستطيع البلاشفة أن يأخذوه منا. وكثيرٌ من أفضل الموسيقيين والفنانين المسرحيين في بلادنا موجودٌ هنا الآن، يعيشون على الكفاف، ولَكَم يحطم قلبي أن أرى مواهبهم تذهب سدًى. من واجبنا الوطني أن ندعمهم.

فقال ميخائيل مفسرًا:

- يمكنكِ أن تشكري هؤلاء السادة على عزف الليلة؛ فهم مؤسسو «الرابطة الثقافية الروسية»، هذه المجموعة التي تنظم هذه الأمسيات.

ها هو الاسم الذي أنتظر سماعه، دليل على أنني على الدرب الصحيح.

قال الجنرال:

- نُموِّل إنتاجًا جديدًا من مسرحية «النورس» ليُعرض في مايو. يجب أن تأتي.

فقال الدوق في حماس:

- بطلة المسرحية هي داريا أندرييفنا أورلوفا مؤديةً دور أركادينا.

t.me/yasmeenbook

فقلت:

- أذكر أني رأيتها في مسرح موسكو للفنون، منذ سنوات. كان الجمهور بأكمله يبكي تأثرًا من أدائها. أحب أن أشاهدها.

فعقَّب الجنرال:

- لكم هو منعش أن ألتقي بشباب يُقدِّر الأعمال الكلاسيكية.

قال ذلك وقد اقترب حتى شعرتُ بأنفاسه تفوح منها رائحة البصل على وجهي، وأضاف:

- تدهشينني كامرأة لا يشوب ذوقها شائبة.

تظاهرتُ بالإحراج وأشحت بنظري. كانت غرفة الطعام شبه فارغة، والخدم قد بدؤوا في تنظيف الطاولة. لم أستطع رؤية «لي». هل غادر دون أن يقول وداعًا؟ أزعجني هذا الخاطر وتنكَّد المساء. لقد أثبتُّ وجود «الرابطة الثقافية الروسية»، لكن الأشخاص الذين يقفون وراءها ما زلوا محاصرين في الماضي، راضين بنسخ مقلدة قاتمة من مجدهم السابق، لا يبدون كتهديد للاتحاد السوفييتي بأي شكل. قلتُ لميخائيل:

- عليَّ أن أعود إلى المنزل؛ فلديَّ عمل في الصباح.

وعرض عليَّ أن يوصلني لتأخر الوقت، فلوَّحتُ له بيدي وأومأت برأسي لمجموعة من الرجال في الجوار كانوا ينتظرون التحدث معه، وقلت له:

- لا ينبغي أن أُبعِدك عن معجبيك.

- عديني أن تأتي لتناول الشاي قريبًا.. يناسبك الجمعة؟

فوافقت.

ودعته بقبلة سريعة، ثم أخذت قبعتي من خادمة بجوار الباب، وخرجت إلى السلم. رحت أضبط القبعة، وبينما أنا كذلك سمعت أقدامًا تصعد السلم. كان «لي»، وبدا سعيدًا لرؤيتي. وقال:

- كدتُ ألا ألحقكِ! مسرور جدًّا لأني رأيتكِ قبل أن تغادري.

ها هو الضيق الذي اعتراني منذ ثوانٍ قليلة يتلاشى على الفور. قال:

- كنت أساعد أميرةً على نزول السلم، أميرة إلا أنها أكبر سنًّا بكثير من تلك الأميرات في كتب القصص. تعاني التهابًا في الفخذ، فاستغرق نزول السلم أزمانًا. أكنتِ في طريقك إلى الرحيل؟

لم أدرِ ما أقول، كنت أريد أن أفعل أيًّا كان ما سيفعل هو، فإن كان سيمكث فلأمكث. سمعت أصواتًا تقترب آتيةً من الداخل، مجموعة من الأصدقاء يمزحون بلغة روسية صاخبة وهم يودعون بعضهم بعضًا. اتخذ «لي» القرار لكل منا واتكأ على الدرابزين مفسحًا لي للنزول.

نزلت أولًا، طابقين من السلالم، لنخرج إلى شارع القديس أونوريه المزدحم. توقف «لي» على الرصيف للحظات، وأثارَ النسيمُ الباردُ القشعريرة في ذراعيَّ العاريتين. كان الجو دافئًا عندما غادرت شقتي، فلم أكترث لإحضار المعطف. بقينا صامتين للحظة، لا نريد أن نفترق، وكان صوت «لي»، عندما تحدث، مترددًا، قال:

- أريد أن أطلب منكِ شيئًا.

فجعلني الترقب أشعر بالرعشة أكثر مما صنع بي البرد؛ فالطريقة التي ينظر بها إليَّ، وانفعالاته لا يمكن أن تعني إلا شيئًا واحدًا، فأنّى لي بالرد؟ قال:

- أنا أكتب كتابًا عن رحلاتي في روسيا، ولديَّ بالفعل من سينشره -فالجميع مهتم بالبلاشفة هذه الأيام- وقد جمعت كل أنواع الأوراق والنشرات عندما كنت في روسيا لأستعين بها، ولكن لا يمكنني قراءة اللغة الروسية، فهل يمكن أن يكون في وقتكِ المتسع لبعض أعمال الترجمة؟

نجحتُ في الحفاظ على تعابير وجهي جامدةً في حين كانت بشرتي يشوبها الخجل. كيف توهمتُ أن «لي» مهتم بي عاطفيًّا؟ فأنا امرأة متزوجة تعمل في الحكومة السوفيتية. لا يمكنني أن أقع في أخطاء غبية. وتابع:

- هذا إن لم تكوني مشغولة إلى حد كبير.

t.me/yasmeenbook

كان جليًّا كم يريدني أن أقول نعم. لقد أسأتُ تفسير طبيعة اهتمامه، ولكن، ورغم كل هذا، فما زلتُ مسرورة لأن يُنظَر إليَّ بهذه اللهفة، أن أشعر بأني مرغوبة. لربما في عرض «لي» تكمن فرصة أخرى، فقلت:

- يسعدني أن أقوم بذلك، فقط سأنظر في جدول أعمالي.

كنت أقصد سأنظر في الأمر مع باتلوف، فسوف أحتاج إلى موافقته قبل القيام بذلك، ويجب أن أتوصل إلى سبب بالغ الوجاهة لقضاء الوقت مع رجل إنجليزي وسيم. ورغم الأسلوب الأبوي اللطيف الذي يستخدمه باتلوف فهو ليس بالأحمق. مد «لي» يده في جيب سترته وسلمني بطاقة.

- اتصلي بي عندما تقررين.

كان عقلي بالفعل يجتهد ليقنع باتلوف بالموافقة. سألني «لي» أي الطرق سأسير بها، وأشرت إلى اليسار.

- هل تقطنين قريبًا من هنا؟

- لا، لا أستطيع تحمل تكلفة هذا الحي. سأستقل الحافلة إلى حيٍّ ماريه، فلديَّ شقة في مونبارناس.

كان هذا على الجانب الآخر من النهر، الاتجاه المعاكس للمكان الذي أسكن به. عرض عليَّ أن يوصلني إلى المحطة، فوافقت وسرنا على مهل، وكأن كلًّا منّا قد فهم أن الآخر لا يتعجل المغادرة. سألته:

- منذ متى وأنت في باريس؟

- شهرين.

- ما رأيكِ فيها؟ باريس هي باريس، ألا تتفقين معي؟ وما أحبه فيها هو أيضًا ما يدفعني إلى الجنون.

سألته عما يقصده فضحك، وراح يصف الأمور الغريبة التي تحدث في سباكة مبناه، وذلك الجار القديم المزعج الذي يعبس دائمًا في وجوه الناس ثم يطعم جيشًا من القطط الضالة. كان "لي" ذكيًّا ظريفًا، يصف حتى تلك الأشياء التي لا يحبها بروح مرحة، كما لو أنه يرى العالم قد اغتسل بنور الشمس الذي يشع منه. في تلك الليلة، كنت مستعدة لدفع أي ثمن مقابل

حدوث إضراب بين عمال النقل أو اختناق مروري، أي عقبة تمنحنا مزيدًا من الوقت معًا. لكن، بمجرد أن وصلنا.. أقبلت الحافلة مطلقة صافرتها. وضعت يدي في حقيبتي أخرج الأجرة، وتراجع "لي" إلى الوراء. وكان آخر ما رأيته منه، من خلال نافذة متحركة، يدَه ملوحةً بالوداع، حاجبةً وجهه.

باتلوف على حق؛ فالمقهي البالي الذي التقينا به فعلًا يقدم إفطارًا لذيذًا بشكل مدهش. وأدهشتني أيضًا سهولة إقناعه بأن كاتبًا غير معروف بجريدة غير معروفة قد يكون جاسوسًا محتملًا. قلت لباتلوف:

- لقد كان -على حد علمي- الشخص الأوحد غير الروسي في الحفلة الموسيقية، ولمّا سألته لِمَ هو هنا، قال: إنه مهتم بالثقافة الروسية، وأنه صديق لأحد الموسيقيين. لكنه لم يبدُ مهتمًّا بحال من الأحوال بالحديث عن الموسيقى. وعندما قدم عرضه رأيت أن هذا العمل قد يكون سبيلًا جيدًا لمعرفة المزيد عنه.

قال باتلوف:

- أنا معكِ أن وجوده في الحفل أمر غريب. يوجد قليل من الاحتمالات؛ ربما يكتب شيئًا في جريدته لا يريد لأحد أن يعرفه -فضيحة عن بعض المهاجرين الروس مثلًا-، كما قد يكون جاسوسًا للحكومة البريطانية، أو لعله حقًّا كما يقول؛ اشتراكي مخلص وحليف محتمل.

رفع باتلوف فنجانه وأشار بطلب المزيد من القهوة، وقال:

- لا ضرر في لقائه. فتِّشي في أوراقه وكوِّني فكرة أفضل عما يقوم به.

ثم أشار إلى هاتف عند طرف البار، وطلب مني أن أتصل به لأحدد موعدًا معه.

رنَّ هاتف "لي" عشر مرات على الأقل قبل أن يجيب، كان واضحًا من بحة صوته الأجش أني أيقظته من نومه.

- السيد كوبر؟ أنا ناديا شولكينا، من الحفلة الموسيقية.

- آنسة شولكينا، طبعًا أذكر.

قالها بصوت مبتهج حتى خِلته يعتدل من رقدته ويضبط شعره، وواصل:

t.me/yasmeenbook

- لكم يسعدني اتصالك.

- وأنا يسعدني تقديم المساعدة في ترجمتكَ، لديَّ وقت كافٍ في الأيام القليلة المقبلة، إذا كنت تريد أن نبدأ، هل يناسبك أن نلتقي غدًا بعد الظهر؟

- نعم، هذا وقت مناسب. ولا تندهشي إن علمتِ أن «نشرة العمال» التي أعمل بها لا تستطيع توفير أجرة مكتب، وأني أعمل من شقتي، إذا ما كان هذا مناسبًا لكِ. فلنقل الثانية ظهرًا؟

وافقتُ، فأعطاني العنوان، ونظرت إلى باتلوف أُعلِمه بالأمر. كان يبدو سعيدًا، ولكن لم يكن لاستحسان مدربي علاقة بدفقة الرضا التي شعرتُ بها وأنا أعود إلى طاولتي. لم يكن عندي حينها أي نية لمصادقة "لي" -فضلًا عن إغوائه-، كنت سعيدة لمجرد أني سأراه مرة أخرى وأسمع ضحكته. علَّمتني سنوات الحرمان الطويلة أن المرء بإمكانه الاستمتاع حتى بتلك الأشياء التي لن تكون أبدًا ملكًا له. وهذا أيضًا لم يمنعني من بذل الجهد لأستعدَّ للقائنا القادم.

في ذلك الصباح، غسلتُ شعري ومشطته أمواجًا، ولمَّعتُ حذائي وأظفاري. لم أكن لأنافس نساء باريس عندما يتعلق الأمر بالموضة، ففساتيني الثلاثة كلها فساتين بسيطة، وإن كان "لي" يتحرك داخل الدوائر الاشتراكية، فهو إذن معتادٌ رؤية النساء يرتدين درجات البُني والرمادي الباهتة. لا يهم الآن إلا أن أترك انطباعًا جيدًا، لأعمل معه لأطول مدة ممكنة.

وصلت إلى العنوان الذي أعطاني إياه قبل الموعد بخمس دقائق، وكان ينتظرني في الخارج. المبنى أرقى مما كنت أتوقع، له واجهة حجرية مزخرفة، ومجموعة من الأبواب الخشبية الضخمة في المنتصف تؤدي إلى فناء في المركز. جلست مدام غورنييه، البوّابة على بُعد بضع خطوات قليلة تتفقد عملها، مرتديةً من رأسها حتى أخمص قدميها ثياب الأرامل السوداء. نظرتْ إليَّ نظرةَ قاضٍ يتلو حكمًا قاسيًا. قدمني «لي» لها، وأبهرتني طلاقة حديثه بالفرنسية. قال:

- ستساعدني الآنسة شولكينا في الكتاب الذي أكتبه، فهي مترجمة موهوبة.

فعلَّقتُ بأناقة مشابهة:

- السيد كوبر يطريني، إنه لشرف كبير لي أن أكون جزءًا من هذا العمل المهم.

خفف إظهار إعجابنا المتبادل من عبوس مدام غورنييه، فقالت وهي ترحب بي بإيماءة من رأسها:

- من دواعي سروري أن ألتقي بكِ.

ثم نظرت إلى «لي» وأخبرته أن السبّاك سيأتي في الصباح، ليصلح له الحوض إن كان ما زال به مشكلة؛ فضرب لي بيده على صدره ونظر إليها نظرةً يملؤها الإخلاص، وقال:

- رائع.. أنا ممتن لكِ كل الامتنان.

فابتسمتْ مدام غورنييه ابتسامة مفاجئة، قلبتها من رقيب فظٍّ إلى جدة مرهفة المشاعر. من الواضح أني لستُ الوحيدة التي يأسرها «لي» بسحره بسهولة. تبعته إلى الطابق العلوي، وأنا أفترض أن غرفةً ذات إضاءة خافتة هي كل ما يمكن أن يتحمله راتبُ كاتبٍ اشتراكي. ففاجأني أن قادني إلى غرفة جلوس واسعة بها أريكة ذات أرجل مخلبيّة الشكل من العصر الفيكتوري، وكرسي بذراعين على اليمين، وطاولةُ طعام كبيرة غير مرتبة في الوسط. وبخلاف مسكني الكئيب، فالأسقف عالية والنوافذ كبيرة؛ ما أعطى المكان سطوعًا كبيرًا عوَّض رثاثة الأثاث. ومن خلال مدخل مقوس، لمحتُ موقدًا، وكان على الجانب الآخر من الغرفة بابان مغلقان؛ غرفُ نوم؟ أيكون لديه أيضًا حمام خاص؟

اعتذر ”لي“ عن الفوضى، ونحّى الكتب والأوراق جانبًا، يخلي بعض المساحة على المنضدة، وقال:

- حاولت فرز كل ما جمعته في روسيا، لكن بما أنني لا أستطيع قراءة أي منها فـ....

t.me/yasmeenbook

ثم كفَّ عن محاولة استخلاص النظام من الفوضى وأطلق آهةً كبيرة.

تفحصتُ المنضدة، ورحت أفهرس في ذهني ما رأيته. أكوام من الكتب باللغتين الإنجليزية والفرنسية، أغلبها في التاريخ والاقتصاد، وقليل من الروايات أيضًا، ورزم من الصحف الباريسية واللندنية، إضافة إلى الأعداد السابقة من نشرة العمال. سحب كرسيين ووضعهما متجاورين.

- هل نبدأ؟

ودفع إلى الأمام سيلًا من الكتيِّبات والنشرات وأوراقًا أخرى مختلفةً، يبدو أن جميعها باللغة الروسية، باستثناء بعض الملاحظات المكتوبة بخط اليد. كانت فوضى رهيبة أخذت مني زيارات عديدة بعد ذلك لإصلاحها، على النحو الذي كنت أريده تمامًا. سألته بتردد:

- كيف تتبع كل ما لديك؟ هل لديك نظام؟

فضحك ضحك طفل عابث، وقال:

- يا إلهي، كم كان سيصبح هذا رائعًا! سيتعين عليكِ أن تساعديني في هذا أيضًا.

يبهرني حديثه غير المتكلف وتبهرني حركاته، لا تَصنُّع، لا فجوات وقت بين الفكر والقول. قال:

- كنت أجمع شيئًا من هنا وشيئًا من هناك، وأضع كل شيء في حقيبتي. لا أدري ما قد ينفع يومًا وما لا فائدة فيه. وإن أمكنكِ ترتيب كل هذا، وفقًا لنظام معين، فهذه نقطة انطلاق جيدة.

ناولني قلم رصاص، ودفتر ملاحظات فارغًا، وعندما شرعت في تصفح المستندات وفرزها على هيئة أكوام، أخذ كتابًا وراح يقرؤه على الأريكة، فأخذتُ من وقت لآخر ألقي نظرة خاطفة عليه بجانب عيني.

جلس ممدد الساقين يضع قدمًا على الأخرى والكتاب على بطنه، كما لو لم أكن موجودة. وبعد نحو ساعة، جاءني بالشاي. وبينما ننتظر أن يبرد الشاي، أريته العناوين الكبرى المؤقتة التي ارتأيت أن أبوب الأشياء تحتها. رحنا نرتشف الشاي ونتحدث، فشرحت له ما تقوله بعض الكتيبات وفيما

قد تفيد أو لِما قد تكون بلا فائدة. أخذَ كل ما رأيت أنه غير مهم وألقى عن الطاولة. وبحلول الوقت الذي أدركتُ فيه أن الشمس على وشك المغيب، كانت الأرض قد اكتست بالأوراق المهملة. فقلت:

- لم أدرك أن الوقت قد تأخر إلى هذا الحد، آسفة فلم أترجم الكثير.

فشكرني وأكّدَ أني قمت بعمل عظيم، وقال:

- على الأقل فأنا الآن أعرف ما بين يديَّ. هل تريدين أن تأخذي مقالات الجرائد لتبدئي بها.

استغرق الأمر مني بعض الوقت لأفهم مقصود السؤال، فهو يريدني أن آخذ الأوراق إلى المنزل وأعيدها بعد ترجمتها. وإن فعلتُ، فمهما كان حجم العمل الذي سأقوم به، فسيقتصر وقتي معه على تبادل الملفات وبعض المحادثات القصيرة. لا. لا يكفيني هذا.. ففي الساعات القليلة الماضية، شعرت بالدفء المنزلي بشكل مدهش. ذكّرني أثاث «لي» البالي ببريالكو، حيث كانت الراحة أهم من الأناقة، كما أن ضوء الشمس المتدفق من النوافذ قد أعاد إليَّ الحياة. أريد أن آتي إلى هنا ثانيةً، ليس من أجل أي مهمةٍ كانت، فقط من أجلي أنا. فقلت بنبرة عادية:

- هل يزعجك إن قمت بعملي هنا؟

قلتها كما لو أن الفكرة وليدة اللحظة، متعللة بأن العمل سيكون أسهل لو كان كل المكتوب موجودًا أمامي في ذات الوقت. بدأتُ أصبح خبيرة في ابتسامات «لي»، وهذه كانت ابتسامة مترددة ولكنها دافئة، قال:

- هذا منطقي.

فقلت على الفور:

- قد أحتاج إلى أن أسأل عن شيء.

واختلطتْ ضحكاتنا. ربما يشعر بالوحدة ويحب أن يحظى برفقة، على الرغم أني لا أتخيل أنه يفتقر إلى الأصدقاء؛ فهو يبدو من النوع الذي يجذب الآخرين نحوه، خاصةً النساء.

t.me/yasmeenbook

اتفقنا على أن نعود للعمل خلال يومين. وعندما سأل عن أفضل طريقة للاتصال بي، أخبرته أنه ليس لديَّ هاتف، وأنه يمكنه إرسال رسالة إلى شقتي، وكتبت العنوان أعلى دفتر الملاحظات، وأدركت بعد فوات الأون أنه سيكتب إلى ناديا! امرأة لا تعيش هناك. ورحت أجهد ذهني لأجد حلًّا وأنا في هذا كله، أرجو ألا يستغرب ترددي المفاجئ. وأخيرًا، كتبت ماري دوفال، ثم قلت:

- أَمكثُ لديها حتى تعود من المدينة. فلتضع اسمها على المظروف لنتأكد أنه سيصل إليَّ.

اتفقنا، وسلمني أول دفعة من أجري، عشرة فرنكات. في دليل ملموس على أن اهتمامه بي كان مهنيًّا بحتًا إذا ما أغراني النسيان. أنفقت نصف المال في محل للمخبوزات، يشعرني الإسراف بالنشوة. وما إن وصلت إلى المنزل ووضعت في فمي أول قطعة شوكولاتة.. حتى بدأت الشكوك تتسرب إلى نفسي. كان «لي» ساحرًا وواثقًا، رجلًا لا يبدو أن لديه ما يخفيه. ولكن كيف يحظى مراسل لصحيفة اشتراكية بشقة كبيرة كهذه؟ لماذا لم يكن لديه عمل هذا اليوم إلا الاستلقاء على الأريكة والقراءة؟ ثمة شيء غير صحيح هنا؛ ما يعني أن الشكوك التي اختلقتها لباتلوف قد يكون بها شيء من الحقيقة على أي حال.

لندن
1938

إلى: مدير جهاز المخابرات السرية

يؤسفني أن أبلغكم أنه رغم مُضيٍّ أسبوعين من التحقيق المستمر.. لم يحرز فريقنا إلا تقدمًا ضئيلًا فيما يخص مسألة «ماري دوفال»، المعروفة أيضًا باسم «السيدة الحمراء». وكان أهمّ ما اكتشفناه إيصالُ تذكرة عثرنا عليه في غرفتها بالفندق، تذكرةٌ للمتحف البريطاني بتاريخ 14 من مايو (قبل وفاتها بثلاثة أيام). وبعد عرض صورتها على موظفي المتحف، أكد أحد الحُرّاس أنه رآها في التاريخ المذكور، وأخبرنا أنها كانت برفقة رجل تتطابق أوصافه مع المساعد الذي نزل معها بفندق البريستول. لم يستطع الحارس تحديد إذا ما كانت المرأة أو الرجل قد تحدثا إلى أي شخص آخر، قائلًا إن المتحف كان مزدحمًا جدًّا في ذلك اليوم.

وفي حين أنه من الجائز أن تكون «السيدة الحمراء» قد ذهبت إلى المتحف في زيارة عادية، إلا أننا نعتقد أنه من غير المرجح أن تختار عميلة بمكانتها قضاء وقتها بمثل هذه الطريقة. وكما تعلمون ونعلم جيدًا، فغالبًا ما تُختار الأماكن العامة المزدحمة مواقعَ للاجتماعات السرية وتبادل المستندات وما إلى ذلك. لذا، سنجري مقابلات مع جميع موظفي المتحف لنرى إن كان أحد ما رأى «السيدة الحمراء» تتصل بأي زائر آخر في ذلك اليوم.

آمل أن أن يكون لديَّ أخبار بالمزيد من التطورات قريبًا.

- روجر

t.me/yasmeenbook

باريس
مايو 1926

كنت قد قضيت في باريس شهرًا عندما سمعتُ لأول مرة عن (الوطني). كنت أُرسي أسسًا لحياة جديدة يومًا بيوم، فأصبحتُ زبونةً منتظمةً في المخبز المحلي، ورحت أتبادل التحيات في الصباح مع أفراد عائلة بلانشارد، أختين عجوزين لم تتزوجا، تعيشان في الطابق الأرضي في مبناي، وأحيانًا أعطي قطعة نقود أو اثنتين للجندي الذي يتسول عند الزاوية مرتديًا سترة عسكرية يغوص فيها وجهه وبها كُمٌّ فارغ. وخفَّفتُ حدة الكآبة على جدران شقتي بأن زينتها ببطاقات بريدية ملونة لقرى تطل على البحر وحقول من الزهور، أماكن ربما لا أزورها أبدًا ولكني أحببت أن أتصور قدرتي على الذهاب إليها. وقليلًا قليلًا بدأت المساحة القذرة تبدو مكانًا يطيب العيش فيه.

زُرتُ وزارة التجارة الفرنسية بضع مرات، أجلس على مكتب صغير في غرفة صغيرة، وأترجم العقود من الفرنسية البيروقراطية إلى الروسية البيروقراطية. قضيت معظم وقتي مع المهاجرين الروس، أقوم خطوة بخطوة ببناء شخصيتي الجديدة: امرأةٌ شابةٌ، تعمل مع الشيوعيين، ولكن لم تعد تصدق وعودهم.

عملية حساسة جعلتني أفكر في «إلينا» وهي تصنع عجينة الخبز في المطبخ في بريالكو. كنت أشاهدها وهي ترش الماء فوق الطحين ثم تضغط العجينة وترققها بلطف، وهي تسألني أن أتحلى بالصبر. كانت تقول لي: إن تحركت بسرعة غير محسوبة فستفسدين الأمر كله. فرحت أضع رشاتٍ خفيفةً من عدم الولاء في كل محادثة، على أمل أن يكثر الكلام وينتشر. لم يمكنني تصور ميخائيل متورطًا في مؤامرة، فما كان له قط أن يُعرِّض كل أقاربه، هؤلاء الذين يعتمدون عليه، إلى الخطر. كما أن رؤوس الرابطة الثقافية

الروسية رجالٌ طاعنون في السن، خانقون لدرجة لا يمكن معها أن يمثلوا أي تهديدات جادة. ولكني كنت أعتقد حقًّا أنه يوجد من يعمل ضد الاتحاد السوفييتي، وأنه إذا ما اشتهرتُ على أني مرتدة عن السوفيتية فلن يمر وقت طويل حتى يتقربوا مني، فيحصل باتلوف على ما يدل على وجود المؤامرة ولا يعود أفراد عائلة شولكين مظنةً للريبة.

فقلت لنفسي: وبعد ذلك تُسْتدعين إلى موسكو ثانيةً. حاولت أن أطرح عني هذا الهاجس مؤقتًا. وعلى مأدبة عشاء مع قادة الرابطة الثقافية الروسية وزوجاتهم، رحت أتحدث عن حبي للفن وأسفي لأن النظام السوفييتي يسحق الإبداع كما يسحق كل شيء آخر. قلت:

- كل ما يُسمح لي برسمه هو عمال مصانع بعضلات مفتولة وفلاحون سعداء.

تحدثت ببطء وبشكل قاطع، كما لو أني قد أسرفت في الشراب. ثم تابعت:

- الفن السوفييتي لا روح به.

فمدَّ الجنرال يده إلى يدي -كان دائمًا ما يبحث عن حجة ليلامسني- وأومأ برأسه، قائلًا:

- لكم يسرني أن أعرف أن الشيوعيين لم يغسلوا أدمغة كل الشباب.

فقلت:

- لا أقول إنهم جميعًا سيئون، لكن أحيانًا...

ثم نظرت حول الطاولة، وتصنعت التردد، ثم خفضت صوتي لأهمس:

- أحيانًا ما أريد القيام بأي شيء ليعود الحال لما كان عليه.

تمتمت زوجة الدوق:

- أفينا من لا يريد هذا؟

لقد أضفت قطرةً أخرى إلى المزيج. أتمنى أن أحقق تقدمًا مماثلًا مع «لي»، لكنه ظل غامضًا إلى حد الجنون. صار لزياراتي روتين ثابت؛ مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. أطرق بابه، وقلبي يدق، ثم يرحب بي بابتسامة

t.me/yasmeenbook

مشجعة، أدخل فأجلس إلى طاولة الطعام، ويعمل هو بجانبي أو ينتقل إلى الأريكة للقراءة. وبعد ساعة، أو نحوٍ من ذلك، نأخذُ استراحةً لتناول الشاي والحديث. ونتكلم في عدد محدد من الموضوعات نفسها؛ أحدث ترجماتي أو حالة الطقس أو الكتاب الذي يقرؤه. كان سحرُه بمنزلة درع لا يمكن اختراقه؛ ما كان يصرف النظر عن أي سؤال شخصي ولو من بعيد. وبعد بضعة أسابيع، بدأ باتلوف يسأل إذا ما كان «لي» يستحق وقتي. هأنذا أمام اختيار مستحيل؛ فإما أن أخبر باتلوف أن «لي» غير ضار، فأضع نهاية لزياراتي له، وإما أن أكذب بشأنه فأستمر في زيارته.

لم أكن قد قررت بعدُ ماذا أفعل عندما أجاب "لي" على الباب ذات يوم، وقد بدا شاحبًا زائغ العينين، على خديه بضع قشّات:

- ليلة طويلة.

تبعته بعدها إلى الداخل، فأشار إشارة غامضة نحو الطاولة، وقال:

- سأتركك لتعملي.

وذهب إلى غرفة النوم، وأغلق الباب خلفه. أخذتُ في كتابة الترجمة الإنجليزية لكُتَيِّبٍ يُعلن افتتاح مصنع جديد: «فجر يوم جديد للشعب.. لن يحرمهم أحد بعد الآن من ثمار عملهم». عندما سمعت صوت شخيره اللطيف من خلف باب الغرفة، تركتُ قلمي. أخيرًا، أصبحتُ قادرة على التفتيش في الأرجاء دون أن يراني. رحتُ أتفحص أكوام الكتب على الطاولة بعناية، وهززتها كتابًا كتابًا لعل شيئًا قد دُسَّ فيها. لم يسقط منها شيء. بحثتُ في الغرفة عن أماكن لتخبئة الأشياء. أدخلتُ يدي تحت وسائد الكرسي ونظرت تحت المصابيح. لم أجد إلا أعقاب السجائر وكومات من الوبر. وفي المطبخ، الذي كان صغيرًا ولكن به مخزون جيد، رحت أفتش علب القهوة والشاي التي كانت شبه فارغة، وطبق الخبز فارغ عن آخره، ففتشت أيضًا الخزائن فلم أجد بها إلا الأطباق وأدوات المائدة. كنت على وشك فتح صندوق الثلج، ولكني سمعت صرير زنبركات السرير المميزة، فعدت مسرعة إلى الطاولة. وعندما

خرج "لي" من غرفته وجدني حيث تركني. ملابسه لا تزال مجعدة، لكن وجهه أحسن حالًا. قال:

- آسف لما حدث منذ قليل، ما كان عليَّ أن أنخرط في جولة الشراب الأخيرة ليلة أمس.

لم أجرب الويسكي مطلقًا، ومن رؤيتي لتأثيره في «لي»، لا أعتقد أنه سيعجبني، فقلت:

- يسعدني أن تشعر بالتحسن.

- سأذهب لتناول الطعام، هل تحتاجين إلى شيء؟

فقلت لا وشكرته. فتناول سترة معلقةً على كرسي، ارتداها واعتمر قبعته، ورحل، ليتركني وحدي في شقته لأول مرة. هل ذهب إلى مطعم لتناول وجبة ممتعة؟ أم لشراء بعض الحاجيات من المتجر وإحضارها إلى البيت؟ لا سبيل لمعرفة كم سيتاح لي من الوقت، فتعيَّن عليَّ أن أسرع. ليس الحمّام مكانًا لإخفاء شيء، فهو بالكاد يسع المرحاض والمغسلة والحوض الصدئ. فأسرعتُ إلى غرفة النوم. كانت أكثر ظلامًا وصرامةً من الغرفة الأمامية، برائحة ذكورية مميزة، وبها نافذة صغيرة تطل على الفناء، وسرير بإطار حديدي يلتصق بالحائط المجاور. وهناك بطانية رقيقة ملقاة على كومة من الأغطية، الوسادة مسطحة من جانب واحد. وللحظة قصيرة مفعمة بالحياة، تمثلت رأس «لي» على تلك الوسادة، ورجلاه متشابكتان في تلك الملاءات، ثم أبعدتُ أفكاري سريعًا عن تلك الحماقة. بحثت في كل مكان خطر ببالي؛ تحت المرتبة، داخل الحقيبة المخبوءة تحت السرير، وداخل جيوب السترة والرداء المعلقين على ظهر الباب. ورحت بشكل مدروس أفرد وأطوي كل قطعة من الملابس المخزنة في أحد الأدراج، كانت أغلبها ملابس داخلية شعرت بغرابة للمسها.

وجدتُ كومة من المناديل مطرزة بالأحرف الأولى من اسم «لي»، علقت بها رائحة عطر، ولكن لم أجد أي أثر آخر يدل على وجود امرأة. ومع ذلك، قلت لنفسي، يجب ألا تظهر عليَّ خيبة الأمل إذا قدمني «لي» في يوم من الأيام

t.me/yasmeenbook

إلى صديقة حميمية. كان الدُّرج السفلي مزيجًا من الأدوات المنزلية؛ ملمع للأحذية، وأقلام، ومقص للأظفار وبعض الضمادات. وعندما فرزت كل ما فيها، ونحيته جانبًا، ظهرت مفكرة صغيرة بزاوية في الأسفل. مفكرةٌ حديثة، تخص العام الحالي، كل صفحتين بها تغطيان أسبوعًا، ثلاثة أسطر لكل يوم. لم يكتب فيها إلا أسماء، نقشها بخط غير واضح. بعض الأيام لم يُدوَّن تحتها شيء، والبعض الآخر به رمز أو رمزان. ولكن توجد صفحات بعينها بها عشرات الأسماء أو أكثر، مكدوسةً إلى بعضها ومكتوبةً بحروف دقيقة تكاد لا تُقرأ. أخذتُ أفكر لعلّي أجد نمطًا تنتظم فيه هذه المعلومات. يبدو أنه يوجد خليط من الجنسيات الفرنسية والروسية والإنجليزية والألمانية، لكن لم أجد أي رابط واضح بينها، ثم كان أن رأيت ذلك: «ميخائيل شولكين ناديا شولكينا». كتب «لي» أسماءنا تحت التاريخ الخاص بيوم الصالون الموسيقي، فلمَ؟ سمعتُ خشخشة المفتاح عند الباب الأمامي، فأغلقتُ المفكرة وأعدتها مكانها. ناديتُ بصوت عالٍ متسائلة:

- السيد كوبر؟

وعندما ظهر «لي» في مدخل غرفة النوم، كنت أميل نحو النافذة نصف المفتوحة، فقلت:

- آسفة، سمعت صوتًا غريبًا وأردت أن أرى ما يحدث.

عندما مر بي ألقيت نظرة خاطفة على غرفة النوم لأتأكد أني لم أترك شيئًا في غير محله. الوسادة والبطانية تحركتا قليلًا عما كانتا عليه بعدما فتشت تحت المرتبة، لكنني واثقة أنه لن يلحظ ذلك، فالسرير كان في حالة من الفوضى بالفعل قبل أن يغادر. قال:

- لعلها حمامة، أو بعض الأطفال يلعبون في الفناء، كما يفعلون أحيانًا.

- نعم لعل الأمر كذلك.

تشتيت الانتباه واحد من عديد الحيل التي تعلمتُها من أليك، «لا تتوقفي عن الكلام واستمري في الحركة». فقلت:

- ألديك دقيقة؟ عندي سؤال.

فتبعني عائدًا إلى الغرفة الأمامية، وعرضتُ عليه فقرةً أتعبتني، إذ يمكن ترجمتها على نحوين مختلفين. إن كان انجذابي لـ «لي» نابعًا من إعجابٍ طفولي بمظهره الجميل، فسأحبه أكثر في أوقات كهذه، عندما نعمل معًا بعدِّنا زملاء. كل محادثة بيننا كأنها رقصة، وكل جملة هي خطوة لا يشذ أحدنا فيها عن اللحن.

لم يُبدِ انزعاجًا لوجودي بغرفة نومه، وهذا يعني أن اليوميات لم تكن بالضرورة فيها ما يريب. فهو صحفيٌّ، على أي حال، ومن الطبيعي أن يحتفظ في قائمة بالأشخاص الذين يلتقي بهم، ليستخدمها في مزيد من الأخبار. ولكن لماذا يُخفي اليوميات بعيدًا عن أوراق عمله الأخرى؟ كنت أعرف أنه عليَّ أن أخبر باتلوف، كدت أن أفعل ذلك مرات لا تحصى خلال اجتماعنا التالي، ولكن بدلًا من ذلك لم أُفضِ له إلا بآخر ثرثرة من ثرثرات الرابطة، فهناك دومًا خلافات تافهة بشأن مَن يُفترض أن ينسب له الفضل في كذا وكذا، وأكدت له أن ميخائيل لم يقُل شيئًا مريبًا حتى الآن، على الرغم من دفعه لي في هذه الناحية باستمرار. وعندما كان باتلوف يرشف آخر قطرات من فنجال القهوة الثاني، أقنعت نفسي بأنني بحاجة إلى مزيد من المعلومات قبل إخباره بأمر المفكرة. إذا استطعت استراق نظرة أخرى عليها، سأنسخ الأسماء وأُحضِر القائمة إلى باتلوف. سآتيه بالدليل، لا بالشبهات. سألني باتلوف:

- هل أتى أي منهم على ذكر (الوطني)؟

كان عقلي في مكان آخر، وقد فقدت خيط الحديث. وباستخدام وسيلة أخرى أتقنتها خلال زواجي، تظاهرتُ بالتفكير مليًّا في السؤال، وكما رجوت، كان باتلوف هو من كسر حاجز الصمت، بنفسه، معقبًا:

- هو اسم سمعناه، من مصادر قليلة.

- لا أعتقد ذلك.. من هو؟

رد باتلوف باضطراب رغم أنه عادة رابط الجأش، ليقول:

t.me/yasmeenbook

- لا ندري، هو شخص من داخل القيادة السوفيتية على اتصال بالمهاجرين في فرنسا. قد لا يكون في الأمر ما يستحق، وقد يكون الأمر كله مجرد شائعة، ولكن أرهفي سمعك، مفهوم؟

- بكل تأكيد.

أهو اختبار؟ إن يكن فقد فشلت فيه. توجد شبكات من التحالفات السرية في جميع أنحاء باريس، ولم أجد بعدُ سبيلًا للولوج إلى أي منها، وأليك لن يسمح لي بمواصلة البحث إلى ما لا نهاية.

ظلَّ (الوطني) هذا عالقًا برأسي في اليوم التالي، يوم هبَّت ريح شديدة لتجتاح الطرقات. كان باب الأختين بلانشارد مغلقًا عندما غادرتُ المبنى، لا دردشة اليوم، والجندي المتسول يبدو اليوم أكثر بؤسًا وقد كوَّم صدره على ركبتيه المثنيتين. أشحت نظري بعيدًا وأنا أمرُّ به، وقلت لنفسي: ليس عليَّ أن أشعر بالذنب، لأني لا أحمل معي عملات أعطيها له اليوم، ومع ذلك شعرت بالذنب على أي حال.

عندما وصلت إلى شقة "لي"، كانت تُمطر. نجحت في الدخول قبل أن تبتل ملابسي، ولكنَّ رذاذ الماء المتقطع المنصب على النوافذ استحال معه أن أركز في العمل. ومثلي كان "لي"، قلقًا يتصفح في جريدة بصبر نافد، ويُقلب مجلدات على المنضدة ثم يجلس إلى آلته الكاتبة. أمسكَ بورقة بيضاء وراح يحدق إليها وأنا أنتظر أن يشرع في الكتابة أو في الكلام. رحت أقرأ نفس الفقرة وأعيدها مرات ومرات، دون أن يعلق بذهني منها شيء. بدأ المطر ينحسر إلى أن توقف، ومع ذلك لم يستطع أي منا أن يستعيد إيقاعه. دفع «لي» كرسيه إلى الخلف وشهق بدرامية، ثم قال:

- هل الجو حار هنا؟

هززت كتفي بلا مبالاة، ولكنه سار بالفعل إلى النافذة، فتحها بقوة واندفعت الرياح به وبما حوله، وبعثرت الأوراق على الأرض. وثَبْتُ لأمسك بها، وحاول «لي» أن يمسك بورقة طارت تجاهه، فرأيت فجأة صورة لمزارعين يطاردون الدجاج، فضحكت، ثم ضحك لي، وسرعان ما كنا نقهقه بغير قدرة

على التوقف، وراح كلٌّ من يمسك بورقة يعلن النصر، ويبالغ فيه. وعندما جمع لي كل الأوراق معًا، وحبسها تحت ثقّالة الورق، شعرت بالدوار من شدة المرح. في لحظة من جموح، أردت أن أندفع نحوه وأقبِّله. وضع يديه على خصره، وابتسم.

- أشعر أني سأموت من الجوع. هل ترغبين في تناول الطعام؟

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، ولم أكن جائعة بحال من الأحوال. يمكن أن أرفض عرضه هذا لأغتنم الفرصة لإلقاء نظرة أخرى على مفكرته، ولكن بدلًا من ذلك قلت:

- لَكَم أود هذا.

توشحتْ باريسُ بغلالة رقيقة من الحنين إلى الماضي، فلم تعد كل المحال جذابة، ولا كل الزوايا تخلب الألباب. السيارات تصر إطاراتها على الطرقات مطلقةً أبواقها، وقد جلبت الأيام الدافئة رائحةً كريهة من نهر السين. ومع ذلك فإن أي شخص يسير في مونبارناس في ذلك الربيع يمكن أن يشعر بحيوية المدينة. نجحت أنا و «لي» في التنقل على أرصفة مشاة مليئة بالناس، تجتذبنا إلى الخارج فترة الراحة من المطر. رأينا امرأتين ترتديان الحرير تتجولان أمامنا، ذراع هذه في ذراع تلك، وقبعتاهما تتلامسان وهما تتبادلان الاعترافات الهامسة، وحشدٌ من الشباب يتجادلون خارج متجر السجائر، تتداخل أصواتهم، وكلٌ راح يستعمل يديه ومرفقيه، وكتفيه لضبط كل عبارة. كان الجو مليئًا بالترقب، وساد شعور بأن كل شيء ممكن. سألني «لي» إن كنت ذهبت إلى مقهى «لو دوم» فهززت رأسي بالنفي.

- إذن فهو وجهتنا، أحد أماكني المفضلة في باريس.

انتصبت مظلة المطعم العريضة فوق منطقة جلوس مكتظة بزبائن ليس لديهم من مسؤوليات أخرى بعد الظهيرة. أكواب القهوة وطفايات السجائر تتصارع على مساحة الطاولات الدائرية الصغيرة، والكراسي مرصوصة بزوايا غريبة لتجد لها متسعًا بين الطاولات. قال «لي»:

- سيكون الجو أكثر هدوءًا بالداخل.. صباح الخير يا هنري.

t.me/yasmeenbook

فتح لنا الباب الأمامي نادل ذو شارب خشن لافت للنظر وعيون بهيجة. دخلتُ في جو هادئ يسوده لون الخشب الداكن والأحمر المخملي. ورغم أن المقاعد بالداخل ضيقة كالتي بالخارج، فإن أغلب الطاولات لم تكن مشغولة. قادنا هنري نحو حجرة في الخلف. مررنا بمجموعة من الرجال يبدو جليًّا من طفاياتهم التي فاضت بأعقاب السجائر، أنهم هنا منذ مدة ليست بالقصيرة. نظر إليَّ أحدهم بما بدا كأكثر من مجرد اهتمام طارئ. وقبل أن أتخذ مقعدي مقابل «لي»، تظاهرتُ بتعديل ثوبي لأنظر إليه مرة أخرى. كان الرجل قد عاد للحديث مع رفاقه، ورغم أني لم أسمع ما يقولونه فإنهم كانوا -على ما يبدو- يتحدثون بالروسية. هل أرسله باتلوف ليتبعني؟ لا منطق في هذا، فهو موجود قبل أن آتي. أعطاني «لي» قائمة الطعام، وقال:

- ألقِ نظرة، أما أنا فدائمًا ما أطلب البط.

متى كانت آخر مرة أكلتُ فيها بطًّا؟ لا بد أن هذا كان في بريالكو؛ يحضر يوري البط، صيدًا حديثًا منتوف الريش، إلى «إلينا» في المطبخ. وأبي يتناول اللقمة الأولى، فتتهلل أساريره ليعلن: «هذا هو الكمال!»، أما فاسيلي فيستولي على نصف اللحم من الطبق، وأمي تحتجَّ قائلة: «لا يمكنك أن تأكل كل ذلك»، رغم أنه في كل مرة يأكله كله. تذكرتُ الدهن وقد غطى شفتي، والمنديل الذي أمسكه بيدي لأمسح الدهن عن فمي. فقلت:

- أختار البط أيضًا.

خرج هنري من العدم وأخبره «لي» بطلبنا، وطلب معه زجاجة من النبيذ. وعندما جاءت الزجاجة، بسرعة كافية تبين أن «لي» زبونٌ مفضل، صبَّ لي هنري كأسًا مُترعة، وما كنت أنوي أن يكون رشفة صغيرة انقلب إلى عبَّة متوترة، فألجأتني المرارة المفاجئة في حلقي إلى السعال.

- هل أنتِ بخير؟

بالطبع لم أكن على ما يرام. فأنا أتناول الطعام بالخارج مع رجل ليس بزوجي، ويحدق إليَّ شخص غريب غامض، كل هذا وأنا أحتسي خمرًا قد

يغريني بقول ما يجب ألّا أقوله. كَوني مركزَ اهتمام «لي» كان بمنزلة التحديق إلى الشمس. فقلت:

- لم أعتَد تناول الأكل في المطاعم.

- ولكنه لائق بكِ رغم ذلك. هل لي أن أسألكِ شيئًا ذا طبيعة شخصية؟

فوافقتُ بإيماءة حذرة.

- لقد أخبرتِني أنه كان لديكِ مربية إنجليزية. وإني أتساءل... هممم! لا توجد طريقة سهلة لقول هذا، ولكن قولكِ هذا جعلني أُخمِّن أن عائلتكِ كانت ميسورة الحال، قبل الثورة.

فأومأتُ برأسي مرة أخرى أؤيده فيما ذهب إليه، فتابع:

- إنما أسأل لأنك مختلفة تمامًا عن النساء الأخريات اللاتي قابلتهن في روسيا. لا بد أن لكِ وضعًا مميزًا في الحزب لتعملي مترجمة معتمدة، ولكن يبدو لي أنكِ لا تهتمين بأمور السياسة، فأنتِ لم تنتقدي قط أساليبي الرأسمالية المنحطة.

- كنت أحسبك اشتراكيًّا.

- أنا بالفعل اشتراكي، ولكن بالمعنى الأعم الأكبر، فأنا أؤمن بعدالة الأجور وحقوق العمال وفرض الضرائب على الأغنياء لرفع مستوى الفقراء، لكني لا أحب أن يُملِي عليَّ أحد ما أعتنقه، وأحب أن أتبين الأشياء بنفسي.

كم كان محظوظًا أن تكون له هذه الحرية! قلتُ:

- لم أنشأ مؤمنةً بالاشتراكية ناهيك بالشيوعية.

- وهل انضممتِ إلى البلاشفة لتتمردي على أبويكِ؟

بدأتُ أشعر بالاعتراف يتشكَّل في ذهني، والكلمات تصوغ نفسها جُملًا، سيلًا من المشاعر المكبوتة يبحث عن مخرج. أخذ «لي» يرقبني باهتمام وعيناه الزرقاوان مليئتان بالتعاطف، وقال:

- أخبريني.

t.me/yasmeenbook

أمضيت سنواتٍ طوالًا أخفي حقيقة نفسي، أحاول ألا أجذب العيون إليَّ، والآن هأنذا، جالسة مع من يريد أن يرى مرآة حقيقتي، مَن يرى ما وراء هذا السور الذي عزلت وراءه نفسي، هل يوجد ما هو أكثر إغراءً من هذا؟!

- أبي هو من جاءني بالآنسة فيلدز، فهو يحب إنجلترا، لم يزرها إلا مرة واحدة، لحضور مؤتمر عسكري، ووعد أن يأخذني لزيارتها عندما أكبر. كان ضابطًا، في الجيش...

سبق أن عزمتُ ألا أخبر «لي» إلا بالحقائق الأساسية، ولكن ما إن بدأت حتى انهمر السيل. في روسيا الحديث عن أبي مرادف للخيانة، أما هنا، مع «لي»، شعرت بالأمان لتسليم نفسي للذكريات، لِأَنْ أبديَ حزني -أخيرًا- على فراق رجل أحببته أكثر من أي رجل في العالم. وعندما جاء الطعام، كنت أتحدث عن أمي، وقادني الحديث عنها بدوره إلى الحديث عن فاسيلي وبريالكو، حتى وصفت حقول الذرة ذات مساء من صيف. وصفت كاميرا أمي وعروضنا المسرحية، وتذكرت فيلدز وقراءتها مقتطفات من «جين أوستن». رحت أتذكر الرسومات التي رسمتُها وثبَّتَتْها «إلينا» في أنحاء الردهة بالدور العلوي. أخذتُ يده ورحت أسير به في المنزل وفي مراتع اللعب، أريه الأماكن التي تعيش في عقلي، حصينةً في تلابيب الذاكرة.

و«لي» في كل هذا، يسير معي بإيماءة أو بابتسامة، ثم صبَّ آخر ما تبقى من نبيذ في كأسي، وسألتُ نفسي كم شربت من الخمر. أنهى «لي» طعامه، ولمّا آكلْ نصف ما أمامي. حضر هنري ونظر بعبوس إلى طبقي، نظرة من يرى بقاءَ شيءٍ من الطعام إهانةً شخصيةً له، وسألنا:

- زجاجة أخرى؟

فقال «لي» لا، وطلب قهوةً، وعندما ذهب هنري، نظرت إلى «لي» بعبوس ساخر، وقلت:

- يحسُن بي الآن أن أنهي هذا الطعام، لا أريد أن أجرح مشاعره.

- الوقت ملكُنا.

أنهى «لي» نبيذه في دفعة طويلة واحدة وبسلاسة، وقال:

- لستُ على عجلة من أمري.

وجدتُ جسدي مسترخيًا هشًّا، وقد أزالت الخمر ذلك الحاجز بين ما أفكر فيه وما أقوله. وقلت:

- أرجو ألا أكون قد أمللتك.

- على العكس تمامًا؛ فإن الكلام عن حياة الآخرين أمر أجده رائعًا.

فسألته:

- ألأجل هذا اخترت أن تكون مراسًلا صحافيًّا؟

فراح يعبث بشوكته بين أصابعه طويلًا. لم أكن أعتقد أنه سؤال صعب، وأخيرًا قال:

- في الحقيقة، لقد دخلتُ المجال بمحض الصدفة.

قطَّعتُ بقايا بطتي شرائحَ ورحت أنتظر. أحضر هنري القهوة وأضاف «لي» إليها القشدة والسكر، وأخذ يقلبها ببطء. قلت له، وأنا أمضغ طعامي:

- هيّا، دورك في الحديث.

- والدي رجل عسكري كوالدكِ. حريص جدًّا على الانضباط وإمساك زمام الأمور بقوة وحزم. ماتت أمي وأنا في العاشرة. كانت جميلة، واحدة ممن يقع الناس في حبهم دائمًا، وبالطبع كنت واحدًا منهم. وبمجرد رحيلها، أرسلني أبي إلى مدرسة داخلية؛ واحدةٍ من تلك الأماكن البائسة التي تدار كما يدار معسكر في الجيش. كرهت المدرسة بشدة، ولم يكن أبي ليأذن لي بمغادرتها، كان يقول لي: «المعاناة تبني الشخصية القوية».

انسال صوته في نعومة الزئبق، ولكني سمعت ألم الجراح تحته، فقد كنت على دراية، تامة، بما نشيِّده من أسوار نُخفي أوجاعنا وراءها.

- وأنتِ تحكين عن أبيكِ وهو يشجع موهبتك، ويثني على عروضكِ، لم أستطع تصور أبي وهو يفعل مثله. لم يُظهر قط كبير اهتمام بأي شيء أفعله. بل إني لا أعتقد أننا حظينا بحوار صريح ولو لمرة واحدة.

t.me/yasmeenbook

- لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا.

- نعم، نتحدث، ولكننا لا نتكلم عن أنفسنا أبدًا. لم نفعل قط مثلما نفعل أنا وأنتِ الآن. لم يكن يهمه شيء سوى ألا يتسبب أطفاله له بالإحراج. ليكن أداؤك في المدرسة جيدًا، ولكن ليس إلى أقصى حد.. ولتتجنب لفت الانتباه. شقيقتاي الكُبريان قامتا بعمل ما يُفترض منهما على النحو المراد، تمامًا. فسالي تعيش في ليفربول مع زوجها وطفليها، وهارييت ستتزوج من مصرفيٍّ خلال بضعة أشهر. حمدًا لله، فقد منح هذا أبي شيئًا غيري يصُبُّ عليه تركيزه.

- أين نشأتَ؟

وللمرة الثانية يبدو لي مترددًا بغرابة.

- لندن، في أغلب الوقت.

ثم، بابتسامة متكلفة غلب عليها الخجل، قال:

- ومنزل ريفي في ويلتشاير. ورثناه عن عائلة أمي.

الآن أدرك لِمَ كان يُحجِم عن الحديث. قلتُ:

- يا لها من تنشئة غير عادية لاشتراكي!

- ولهذا عليكِ أن تقسمي بحياتكِ وأن تعديني ألا تخبري أحدًا.

- أنت من تمرَّد، لا أنا.

- والدي يكره الشيوعيين أكثر من أي شيء آخر، أكثر حتى من الفرنسيين. لم يكن لديَّ شك أني سأقتفي أثر أبي وألتحق بالخدمة العسكرية، وهذا ما كان، تخرجت في المدرسة العسكرية، ضابطًا مكلفًا، وعمري تسع عشرة سنة. لا لعمل قمت به فاستحققته، ولكن لأني من عائلة مناسبة، وأيضًا لأن قسم الضباط قُضِي عليه على بكرة أبيه خلال الحرب. ولَكَم كان مثيرًا للسخرية أن أكون مسؤولًا عن رجال أكبر مني سنًّا، وأكثر شجاعةً بالتأكيد. ذهبتُ إلى اجتماعات الاشتراكيين في أول الأمر فقط لأثير غضب أبي. وبمجرد أن ذهبتُ إليهم وجدتهم يقولون كلامًا منطقيًّا. فما الخطأ في المطالبة بالمساواة؟ ذهبتُ إلى بعض أنحاء

لندن وكانت مروعة تمامًا، كما لو أنها خرجت مباشرة من إحدى روايات ديكنز. لم يكن بوسعي أن أرى تلك المعاناة ثم أمضي إلى حالي.

كان يتحدث مثلَ أليك. قال لي:

- أرى أني جعلتكِ تبتسمين، ففيمَ؟

- تُذكِّرني بشخص أعرفه، في روسيا.

- مَن؟

حثتني الخمر على الاستمرار، هامسةً لي بأنه سيكون من الممتع مغازلة الحقيقة، فقلت:

- رجل يريد تغيير العالم.

مال «لي» إلى الأمام، مفتونًا. صرفتُ نظري بعيدًا، وندمت فورًا على نبرة صوتي الوقحة. لم أكن أريد أن أفكر في أليك، على الأقل هنا، والآن. قلت:

- لم تخبرني بعدُ كيف أصبحتَ مراسلًا؟

- كنت أرغب في السفر والتعرف إلى أشخاص جدد، وربما القيام ببعض العمل الخيري في رحلتي. فراسلتُ عددًا قليلًا من الأصدقاء القدامى، وجنودًا سابقين ساخطين مثلي، لأحدهم عمة تُموِّل صحيفة اشتراكية جديدة، وهي من مناصري حق المرأة في التصويت، ورِثتْ ثروة من زوجها، وأخذت تبحث عن قضية مهمة تنفق مالها عليها. فـ (نشرة العمال)، في الحقيقة، ليست إلا مشروعَ تفاخرٍ زائفٍ لأرملةٍ ثرية، يسمح لي أن أعيش الحياة التي أردتها دومًا. لكن هذا يجب أن يبقى سرًّا بيننا.

- لن أخبر أحدًا.

تخطّى هنري طاولتنا، قائدًا مجموعة من الرجال والنساء إلى الطاولة المواجهة. بدأ المقهى يمتلئ بالزبائن، وراحت الأصوات تعلو من حولنا. أشار «لي» إلى هنري وأخرج بعض المال. أردته أن ينتظر لأطلب المزيد من النبيذ، والمزيد من الوقت. وبدلًا من ذلك، رحت أشاهده وهو يدفع الحساب. وعندما فرُغَ قال:

t.me/yasmeenbook

- أنا ذاهب إلى مرسيليا غدًا. عمال الميناء مضربون.

ها هي خيبة أمل أخرى! فقلت:

- إلى متى ستغيب؟

- لا أعرف، ولكني لن أحتاج إليك بقية هذا الأسبوع، على أي حال.

كنا ما زلنا يوم الثلاثاء. التفكير في قضاء كل تلك الأيام دونه آلمني أكثر مما يجب.

- لا يوجد الكثير من العمل على أي حال، أليس كذلك؟

فقلت:

- نعم.

كنت أترجم أوراقه بأبطأ قدر يمكن أن أحققه دون أن يبدو أني أفتقر للكفاءة. لو عملت بقدرتي الحقيقية لأنهيت العمل منذ مدة طويلة.

- متى ستعودين إلى موسكو؟

- لست متأكدة.

- لا بد أن هناك أشخاصًا تفتقدينهم. هذا الرجل الذي ذكرتِه سابقًا، ربما؟

كان يناكفني، لكن نبضي علا، وهززت رأسي. لم أدرِ هززته شعورًا بالإحراج، أم لأطرد الفكرة عن رأسه. وقف «لي»، الرجل المهذب دومًا، وضبط سترته:

- هلّا ذهبنا؟

صدمتني سرعة عودته إلى الأجواء الرسمية. كنت شعرتُ، لبعض الوقت، أننا أصدقاء. عندما أصلحتُ تنورتي ووضعت منديل الطعام على الطاولة، ذكَّرت نفسي أن هذا لم يكن إلا هربًا مؤقتًا من قيود حياتنا المختلفة. وفي أثناء مرورنا بين الطاولات المتزاحمة رأيت الرجل الذي نظر إليَّ في وقت سابق، لم يزل موجودًا، ومع نفس الأصدقاء. حدَّق إليَّ مرة أخرى، وفي هذه المرة، حدقتُ إليه أيضًا. كان شعره كثيفًا ضاربًا إلى الحمرة وله لحية شعثاء، ومن ارتفاع كتفه يمكنني أن أقول إنه أطول من الشخص العادي. في منتصف

العمر، ربما في الأربعينيات. لم أتذكره حتى الآن. ترددت عندما مررت به، ودفعه فضولي الواضح إلى الكلام، فقال:

- مدام سيملكوفا؟

توقفتُ مذهولةً لسماع من يناديني بكنية الزواج، اصطدم «لي» بظهري عندما توقفت، فهل سمع؟ واصل الرجل بالروسية:

- أعتذر إن كنت أجفلتكِ، أنا صديق قديم لخالكِ سيرجي، مكثتُ في منزلكم الصيفي في يوم من الأيام...

حينها تذكرته؛ إنه بوريس الشاعر. كان هو وأليك جزءًا من دائرة سيرجي البوهيمية. يمكنني تخيل بوريس في بقعة أمي المفضلة بالغابة، وهو يخربش في دفتر ملاحظاته، ويمسكه إلى صدره بقوة عندما يهدده سيرجي بقراءة أحدث أبياته بصوت عالٍ. رأيتهم جميعًا. فرأيت عائلة فولودنوف، بأصابعهم وقد لطختها الألوان وبمغازلاتهم الصارخة، رأيتُ الأميرة نيميروفا وراقصيها بالغي الوسامة. أمي وكاميرتها تشد هذا أو ذاك من ذراعه وتهيئه لأخذ صورة له. وتداعت الذكريات دفقاتٍ تائهةً بين المحادثات المختلفة وقعقعة الأطباق. وأخيرًا، قلت:

- هل يمكننا التحدث في الخارج؟

شققت أنا وبوريس و «لي» طريقنا بين الحشود المكدسة في مدخل المقهى، وكان معظمهم ينادي هنري بلا جدوى. كل الكراسي بالخارج محجوزة، وشاغلو المقاعد يجلسون القدم في القدم، اختلطت عشرات الأصوات لتصير همهمة واحدة. وعندما أخرجَنا بوريس من الزحام، مال «لي» نحوي، وهمس:

- هل أذهب؟

فقلت له لا، وطلبت منه أن يبقى.

- كنت أعرفه في روسيا، ولكني لا أعرفه جيدًا. لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا.

t.me/yasmeenbook

استند بوريس إلى مدخل محل لتصليح الأحذية كان مغلقًا، ووقفتُ مقابله و «لي» إلى جواري. قدمت الرجلين بالفرنسية وقلت له إن «لي» يعمل في صحيفة إنجليزية. حتى وإن كان ببوريس فضول لأن يعرف لمَ تتناول امرأة روسية الطعام مع مراسل بريطاني، فهو لم يبيِّن ذلك. أخرج بوريس علبة سجائر من جيبه وقدمها إليَّ، فهززتُ رأسي، لكن «لي» أخذ واحدة، وأومأ برأسه شكرًا. أخرج «لي» الثقاب، وانتظرت حتى ينهي كل منهما الرشفة الأولى. سحب بوريس روح سيجارته سريعًا، في حين ظل «لي» يدخن في أناةٍ. أشعر بشيء من العصبية والفزع. سألت بوريس:

- هل تعيش في باريس؟

- نعم، وأنتِ؟

- في زيارة.

- وأليك أيضًا؟

- أليك في موسكو.

ألقيتُ نظرةً خاطفة على «لي»، كان متكئًا على حائط بمبعدة عنا. وبِصمت، أجبتُ عن السؤال الذي لم يسأله بوريس بصوت عالٍ:

- «لي» لا يعرف أني متزوجة.

هزَّ بوريس كتفيه بلا مبالاة، ثم قال:

- ليس من السهل الحصول على أوراق السفر هذه الأيام، لا بد أن لديكِ علاقات.

- أليك لديه.

فقال:

- سمعتُ أنه صار ذا مكانةٍ في الحزب.

قالها بنبرة تدل على أنه لم يتعجب. سألني عن أحوال خالي، فقلت إنه ما زال في لينجراد، وإنَّ المجلة وإنْ لم تبقَ على حالها القديم إلا أنهم ما زالوا محتفظين به كاتبًا، وإنه ممتن لذلك. قال بوريس:

- خالكِ أول من نشر لي، كانت قصيدة عن طائر، ترمز للحرية، لعلها هراء انفعالي، لكن سيرجي رأى فيها عملًا واعدًا.

- كان يهوى اكتشاف المواهب الجديدة.

- فوجئتُ عندما سمعتُ أن أليك تزوج ابنة أخت سيرجي. كنتُ أحسب أن كل أفراد عائلة شولكين غادروا روسيا.

- الآخرون غادروا.

ألقى «لي» عقب سيجارته على الأرض وسحقه تحت حذائه، ووجهه غير واضح في الظل. استشعر بوريس قلقي وتحدث بسرعة:

- الزمي حذرك.

سرَت قشعريرة باردة في ظهري وفي ذراعي ومعدتي، ثم واصل كلامه:

- أعرف أليك من زمن بعيد. كنت أحسب أننا نريد الشيء ذاته، أن نكون أحرارًا فنعيش ونتكلم كما نشاء. كان هذا هو هدف مجلة سيرجي، وكذلك هدف كل من يعمل بها. وبعد الثورة، تغير كل شيء. لم أرغب في كتابة قصائد مبتذلة لعمال مصانع لم يقرؤوا بيت شعر واحدًا في حياتهم! أردت أن أكتب حقيقة ما رأيته. متى أصبح ذلك جريمةً وخيانة؟ سيرجي هو الذي حذرني من أنني على وشك أن يُقبَض عليَّ، لذلك غادرتُ، بلا شيء.

- لكم يحزنني هذا!

- لطالما كان أليك يرى أنه خير من غيره، ولكن لم يكن لهذا وزنٌ ونحن فقراء نُقاتل في سبيل القضية نفسها. لم أفهم كيف انقلب بهذه السرعة على الأصدقاء الذين شككوا في روايته للحقيقة. لا شأن لي بزواجكِ به، وأرجو أن يكون زوجًا صالحًا، لكن اعلمي أنه لا يرحم من يتخطّاه.

نظر بوريس إلى «لي» نظرةً حادة كدتُ أحتجُّ قائلةً إني لم أفعل شيئًا خاطئًا، ولكن.. هل يهم هذا حقًّا؟ لو رآني أليك في ذلك المقهى مع «لي»، لافترض ما افترضه بوريس، وليعاقبني على هذا الأساس. التفتْ بوريس إلى «لي»، وتحدث بلغة فرنسية ثقيلة اللكنة:

t.me/yasmeenbook

- يسعدني أن ألتقي بك، يا سيد كوبر.

ثم وجَّه حديثه لي:

- حظًّا سعيدًا.

وبمجرد أن عاد بوريس إلى المقهى، بدأتُ أسير على عجل في بوليفارد مونبارناس، شاقَّةً طريقي بعمى بين الحشود، وخلفي خطوات «لي» تقرع الطريق.

- هل أنتِ بخير؟

لم أكن بخير، لكنني أيضًا لم أرغب في أن يرى الضيق على وجهي، ولم أستطع أن أختلق كذبة مقنعة. سار «لي» بجواري، وكانت ذراعه اليسرى تحوم بجانب كتفي اليمنى. شعرت به وهو ينظر إليَّ، لكنني حدقت أمامي بعزم. وعندما وصلنا إلى مفرق طرق، لم أكد أتوقف على الرصيف قبل أن أعبر، مرت دراجة أمامي مباشرةً وجذبني لي من مرفقي إلى الخلف. تعثرتُ وارتخى جسدي عندما سندني «لي» إلى صدره، ثم سحبت نفسي وشكرته. سألني بتوتر:

- هذا الرجل، في الكافيتريا، هل هددكِ؟

- لا.

فانحسر التوتر عن وجهه.

- أردتُ فقط أن أطمئن، كان الضيق باديًا عليكِ.

- تحدثنا عن أشياء من الماضي، وليس من السهل دائمًا تذكرها.

واصلنا سيرنا في صمت، وكلٌّ قد اقترب من الآخر أكثر ما يمكن، دون أن نتلامس، وتابعنا الطريق إلى شقة «لي». كانت مصابيح الشارع مضاءة، مبشرةً باقتراب حلول أمسية باريسية متلألئة أخرى، لكنني بقيت مشدودة وعصبية. خُيِّل إليَّ أن الناس يحدقون إليَّ ويحومون بالقرب مني على نحو لا يريح، هل يتبعني أحد؟ فاختطفتُ نظرة ورائي، من فوق كتفي. وجدت ورائي مباشرة امرأةً انتفخت عيناها تحت رموش صناعية، وعلى يمينها رأيت رجلًا أحمر الوجه يدخن سيجارة بشراهة، وعلى بعد بضعة أقدام رجلًا آخر

معتمرًا قبعةً داكنة وبِزَّة، يتمشى. هل أدار وجهه عندما نظرتُ إلى الوراء؟ أم أن تحذير بوريس جعلني أفرط في الشك؟

أدرت كاحلي وتظاهرت بأن كعبي قد انزلق. توقف «لي» بجانبي وأنا أعدِّل من حذائي، رأسي لأسفل وعيني تنظر إلى وراء. توقف الرجل الذي يرتدي البزة خلفنا قدر نصف بناية. صدفة؟ كانت بيده سيجارة، وتركيزه على عود ثقاب يشعلها به. اعتدلتُ وواصلت السير، وبعد بناية أخرى، نظرت في زجاج أحد المحال، فكان الرجل لم يزل خلفنا، بعيدًا بما يكفي لئلا أستطيع رؤية وجهه. كان بالزاوية المشرفة حشد من النساء في منتصف العمر، أمريكيات يتجادلن بشأن طريق العودة إلى فندقهن. هناك أشخاص يأتون ويذهبون في كل الاتجاهات، كأسماك تسبح في تيارات متعاكسة. هذه فرصتي، فقط لو أني تحركت بسرعة كافية!

شددت كُمَّ «لي» وزدت من سرعتي، فنظر إليَّ بتساؤل، ولكنه تبعني وأنا أدور حول النساء وأستدير فجأة لأدخل شارعًا جانبيًّا ضيقًا. مشيت بحذر شديد على طول الأحجار المرصوفة بالحصى، وهبطتُ على أطراف أقدامي لكيلا أحدث صوتًا. وعند بناية لا يكاد يضيء أمامها نور الشارع، توقفت ونظرت لأجد الرجل الغامض يشق طريقه عبر السائحين مواصلًا سيره في شارع بوليفارد مونبارناس. عندما يدرك أنه فقد أثري، سيكون لديه بضعة خيارات ليعدِّل من خط سيره. أرجو فقط ألا يختار هذا الطريق.

- اتبعني!

وواصلنا السير في الشارع الذي راح يضيق متحولًا إلى حارة ملتوية، بقيةٌ من ماضي باريس في العصور الوسطى. عندما قطعنا ما عدَّه مسافة آمنة، توقفتُ لالتقاط أنفاسي. قال لي:

- ما الأمر؟

قالها وقد احمرَّ خداه واحتدَّ صوته. لم أستطع إخباره بأن ثمة من يتتبعنا لأنه سيسأل عن السبب، ولست أساسًا على يقين من أن أحدًا كان يتبعني. في

t.me/yasmeenbook

المقهى، أشعرني فضول «لي» اللطيف بالراحة. ولكن الحال مختلف الآن، ونبضات قلبي المكتومة بادية كما هي نبضات قلبه. ألقت الظلال بقناع على كل شيء، إلا عينيه وهما تحدقان إليَّ وهو يخلع قبعته. تقدم ناحيتي، ومِلت نحوه ويداي تلامسان صدره.

قبَّلني قبلة هادئة وأحاط كتفي بذراعيه ليرحب بي بين أحضانه. فتراخيت واستسلمت للإحساس الذي راح يغمرني، إحساس براحة يشوبها شيء من الارتباك، واختفت باريس، فلم يعد هناك إلا القبلة و«لي».

إلى أن زلَّت قدمي في فجوة بين حصى الرصيف، لتعيدني إلى الواقع. لويت رأسي قليلًا وراح «لي» يجري شفتيه على خدي، مهمهمًا:

- أنتِ مليئةٌ بالمفاجآت.

اضطربت وارتبكت، حدَّ الدوار. ربما بالنسبة إليه لم يكن الأمر خارجًا عن حدود المألوف، فلعل النساء يرتمين عليه طوالَ الوقت. انتزعتُ نفسي من حضنه، متمتمةً:

- آسفة.

وأنا أنظر إلى الأسفل؛ لا أستطيع المخاطرة بالنظر إليه، ليس بعد. لم أكن واثقةً أني لن أقبله ثانيةً إن نظرت إلى عينيه.

- لا تتأسفي، أحببت تقبيلك.

- ينبغي أن أذهب.

- أيجب عليكِ أن تفعلي؟

بالنسبة إليه، كانت لعبة؛ صراعًا دقيقًا بين هل ستبقى أم لا. لا فكرةَ لديه عن المخاطرة التي قمت بها، ولا عن الخطر الذي وضعت كلينا في مهبه. فقلت:

- يجب أن أعود إلى المنزل.

وجاء الحزم في صوتي بالتأثير الذي أرجوه، فتراجع واعتمر قبعته كأنه لا يبالي. أردته أن يعترض، أن يحطم تماسكي بمزيد من القُبل.

- حسنًا، هل أوصلكِ إلى الحافلة؟

- لا داعي لذلك.. بإمكاني أن أجد طريقي من هنا.

- حسنًا، سأرحل غدًا كما قلت، وسأرسل لكِ ملاحظة عندما أعود إلى المدينة. أتمنى لكِ ليلةً طيبة.

استدار وغادر، وأنا أسمع طرق خطواته على الحجارة، هادئًا متزنًا كأن شيئًا لم يكن، كما لو أن عالمي بأكمله لم يعد يترنح على حافة الانهيار. حبستُ الدموع في عيني طوال الرحلة بالحافلة إلى البيت.

لو أن هناك من يتبعني فلن أدعه يراني وقد علاني الضيق، فسرتُ بِخفّةٍ وحيوية، من محطة الحافلات حتى المبنى الذي به بيتي، أمشي بخطوات ثقيلة لِأُبعِد الجرذان التي تخرج مع الظلام. وعندما رأيت رجلًا يسير قرب المدخل، أخرجت مفتاحي، واستعددت للدخول بسرعة. ولم أدرك من هو إلا بعدما اقتربت.

- مرحبًا عزيزتي.

شلّتني الصدمة، فلم يسعني إلا أن أحدق إليه، فقبّلني على خديَّ وشفتاه تلسعان ما تحتهما.

قلتُ بهمس مندهش:

- ماذا تفعل هنا؟

قبل أن أدرك أن تلك لم تكن استجابة مناسبة من زوجة يُفترض فيها الإخلاص. ثم استجمعت ابتسامةً تحمل اعتذارًا، وقلت:

- لقد أجفلتني.

فردَّ قائلًا:

t.me/yasmeenbook

- احتاجَ الرفيقُ ستالين إلى تسليم بعض الوثائق يدًا بيد إلى السفير، فتطوعتُ للمهمة التي كانت عاجلة، فلم يكن لديَّ وقت لأكتب لك.

لم يكن لديه وقت ليكتب لي، ولكن بالطبع وقته يتسع ليرسل برقية للسفارة وليُعلِمَ باتلوف، بل لقد كان قرارهم ألا يخبروني.

هل أثرُ البكاء بادٍ على وجهي؟ وأحمر الشفاه؟ ليت الظلامَ كافٍ لئلا يلاحظ أليك.

- سعيدة لرؤيتك، هيا ندخل.

سمعت صراخَ طفل ونحن نصعد سلم الطابق الأول، وفي الذي يليه جدالًا شرسًا بين زوجين خلف بابهما. ومن خلال عيون أليك رأيت ورق حائط متقشرًا عفنًا وأرضية خشبية علتها الخدوش. رأيت الاهتراء الذي أصاب كل الأسطح. فتحت باب شقتي وأضأتُ المصباح. لا يجدي الضوء الباهت في تخفيف الكآبة.

- كما ترى، أنا أعيش في بساطة شديدة.

ورغم أن أليك ليس ممن يهتمون بالترف فإنه بدا متفاجئًا، وقال:

- لقد منحوني غرفة في السفارة، يمكننا البقاء هناك، إن أحببتِ ذلك.

- قيل لي أن أتجنب السفارة.

فجلس على السرير، وقال:

- أعتقد أن هذا هو الأفضل.

رحت أملأ الغلاية الكهربائية، وتحسبًا مسحت شفتي بمنشفة المطبخ في حين كان ظهري لأليك.

- ما هذا؟

كان بيده مجلدٌ أعطانيه «لي» من أيام قليلة. فقلت:

- إنه الفصل الأول من كتاب يكتبه مراسل بريطاني، السيد كوبر.

بذلت كل وسعي لأحافظ على نبرتي:

- كتاب عن رحلاته في روسيا. طلب مني أن أقرأه وأخبره برأيي فيه.

تظاهر أليك بالبحث في صفحات الكتاب رغم أني أعرف أن إنجليزيته ليست على ما يُرام، وقال:

- بلغني أنكِ تعملين لديه.

- هو كذلك. شجعني الرفيق باتلوف على أن أقوم بهذا.. ساعاتٍ قليلةً في الأسبوع. لم يزل أمامي وقت لواجباتي الأخرى.

- بعض الواجبات أكثر متعةً من غيرها. هل تعلمتِ أي شيء مفيد من السيد كوبر؟

أضعفَ الوقت الذي أمضيته في باريس من دفاعاتي ضد أليك. بإمكاني أن أقول إنه يحاول اختبار رد فعلي، فما كان مني إلا أن هززت كتفي بغير حماس. ومع أن الماء لم يكن قد غلا بعد، فقد سكبته في إبريق الشاي على أي حال حتى يتسنى لي أن أشيح بنظري بعيدًا عنه. ثم، ومن حرصي على تغيير الموضوع، قلت:

- لا بد أنه يومُ التئامات الشمل غير المتوقعة، لن تتوقع أبدًا من الذي صادفته اليوم؛ صديقك القديم، بوريس، الشاعر.

سألني إن كان يعيش في باريس، وقلت له:

- أظن ذلك، كان بصحبة أصدقائه، ولم نتكلم إلا نزرًا.

قال أليك:

- لطالما كان بوريس جيدًا في صنع الأصدقاء، ذلك النوع الذي يدفع ثمن ما يشرب.

قالها بنبرة هازئة، وواصل حديثه:

- كنت أحسب أن لديه موهبةً، ولكن ثبت لي خطئي.

t.me/yasmeenbook

أحضرتُ أكواب الشاي إلى الطاولة وانضم إليَّ أليك. أصبحت معتادةً السُّكَّر والقشدة، ولكنه رفض الاثنين بهزة سريعة من رأسه، كما لو كان يأبى أن تغويه رفاهية أهل الغرب، وقال:

- يتحدث الرفيق باتلوف عنكِ بخير.

- هل رأيته؟

- فقط دقائق معدودة، وهو يقول إنكِ تجتهدين في عملكِ للغاية إلا أنكِ لم تُحرِزي تقدمًا كبيرًا مع ابن عمك.

- لقد استغرق الأمر بعض الوقت لبناء الثقة.

فكرتُ في ميخائيل، وهو يتعلم القيادة، وفي أمه، الأميرة السابقة التي ترتدي الآن ملابس قد يحسب من يرى بساطتها أنها مربية الأطفال لأحفادها. تقبَّلوا ما صنعته الحياة بهم وراحوا يتكيفون مع أحوالهم الجديدة، لا يخططون للانتقام. قلت:

- لم يقل ميخائيل ما يدعو إلى الريبة، ولذلك فإني أُكوِّن صداقات مع أعضاء آخرين في الرابطة الثقافية الروسية، وأخلط بكلامي تلميحات بأنني غير سعيدة في الاتحاد السوفييتي، تمامًا كما اقترحتَ أنت.

- وماذا وجدتِ؟

تعيَّن عليَّ أن أخبر أليك بشيء لأثبت جدارتي، فقلت:

- يدور حديث عن شخص يدعونه (الوطني).

ما من داعٍ ليعرف أني حصلت على هذه المعلومة من باتلوف وليس من الرابطة. بدا أليك مندهشًا.

- ماذا سمعتِ؟

- ليس بالكثير.. فقط أنه قد يكون داخل الحكومة السوفيتية جاسوس ما. هل تعتقد أن هذا الأمر صحيح؟

- لا شيء يجري بهذه البساطة داخل الكرملين. توجد شائعات، وشائعات عن تلك الشائعات، ولهذا نحتاج إلى أشخاص مثلك، من خارج الدوائر المعروفة. هل السيد كوبر عضو في الرابطة؟

تعجبت من تحول حديث أليك المفاجئ إلى «لي»، وقلت:

- لا.

- فلماذا إذن تمضين كل هذا الوقت معه؟ قال باتلوف... أخبرني باتلوف أنكِ اقترحتِ إبقاء عينٍ مفتوحةٍ على السيد كوبر، أو ربما ما هو أكثر من عين؟

ها هو ينصب لي فخًا ويلقي بالطُّعم، ها هو يحاول استثارتي لأبدي شعورًا يتبين منه إذا ما كان في «لي» سبيل ممكن لإيقاع مزيد من الأذى بي. فقلت له:

- لقد أخبرتَني ذات يوم أني لا أجيد الإغراء.

وأسبلتُ عينيَّ وأطبقتُ شفتيَّ أتصنع مزيدًا من الأدب، وأُظهر نفسي امرأةً لها من شدة التواضع ما لا تخون معه زوجها أبدًا. نهض أليك فجأة، ليصر الكرسي تحته، وأمسك بذراعي بشدة:

- اصدقيني القول، فيمَ كل اهتمامكِ هذا بالسيد كوبر؟

أرادَ أن يفزعني، فانفزعت امتثالًا لما يريد، فذويت تحت أثر قبضته وهمست:

- يمكن أن يكون حليفًا مفيدًا، كتابه سيدعم القضية الاشتراكية في إنجلترا.

- أنتِ معجبة به.

لم يكن أليك من تبِعني من المقهى، ولكن لعله شخص يعمل لديه.

- إنه زير نساء، يحسب أنه ساحر، لكني أراه على حقيقته.

فتكلَّف أليك ابتسامةً، وعرفتُ أني وقعت على الكذبة الصحيحة. كان عليَّ أن أجعل أليك يظن أني لا أرضى بمغازلة «لي». فقال:

t.me/yasmeenbook

- من الجيد أن أرى أن باريس لم تغيرك، ما زلتِ على صلابتك.

كانت شفتاه طليعتان للهجوم بقوة، طوَّقني بذراعيه وبهما سحبني إلى السرير. سقطتُ تحته وهو ينهار فوقي. لاحت لي للحظة قُبلة «لي»، وكل لمسة منه تثير دفقة من السعادة، فقبلات أليك ليست سوى اعتداء يدفع المعتَدى عليه للانسحاب. وفي حين أخذت يداه تقبضان على ملابسي وتعجنان جلدي عجنًا، استلقيتُ في سكون تام.. وعاءً فارغًا من أجل سعادته. أغمضتُ عينيَّ وتخيلت الحال لو كنت مع «لي» بدلًا من ذلك. علا ضجيج أليك وراح يطعن أكثر وأكثر، كما لو أنه أحسَّ بوجود شخص آخر بيننا. يرفعُ الدعوى، ويُنزلُ العقاب في الوقت نفسه.

لندن
1938

ليس لديَّ وقت إلا لملاحظة سريعة، أيها الرجل العجوز، فسأقابل المدير خلال نصف ساعة وأجهز نفسي لتوبيخ شديد. لا تسير الأمور على ما يرام فيما يخص «كارثة السيدة الحمراء»، وسيكون رأسي أول رأس يطير إذا انتهت الأمور إلى ما لا يحمد عقباه، ولديك من الخبرة الكافية ما يجعلك تعرف ما أنا بصدده. المرأة معروفة بأنها خبيرة في التنكر، فضلًا عن كونها عديمة الرحمة تمامًا. (لقد رأيت صور مشهد القتل ذلك في باريس، لم أكن لأرغب في مضايقتها). لم تترك في غرفتها بالفندق ما يدل عليها، ولا ما يشير إلى سبب وجودها هنا. استجوبتُ المئات من أصحاب المقاهي ونزلاء الفنادق وسائقي سيارات الأجرة، دون أن أجد شخصًا واحدًا رآها. وزارة الداخلية ووزارة الخارجية تثقلان على المدير كثيرًا بشأن «التهديد السوفييتي»، والجواسيس الذين يغزون شواطئنا، ولا يمكنني أن ألومه على سلاطة لسانه، لكن أمامنا الكثير مما يمكننا فعله. نشك جميعًا، لسبب وجيه، في أنها دُهِست من قبل الطرف الذي تعمل معه، لكن إثبات ذلك أمر آخر.

وبيني وبينك، أقول بئس المصير. نقصَ بلاشفة العالم واحدًا. آمل أن أراك في النادي قريبًا، فقد انشغلت كثيرًا فلم أذهب إلى هناك لأسابيع. تحياتي.

روجر.

t.me/yasmeenbook

باريس
يونيو 1926

بقي أليك في باريس ثلاثة أيام. وحمدت الله أكثر من مرة على إضراب بحارة مرسيليا؛ إذ أبقى «لي» بأمان خارج المدينة. قضى أليك معظم وقته في السفارة السوفيتية، وباستثناء غداء واحد مع باتلوف في مقهاه المفضل، فقد تجنبنا أن يرانا أحد معًا في الأماكن العامة. كنت أحبس أنفاسي طيلة الوقت ولم أشعر بالراحة إلا بعد أن أخبرني أليك أخيرًا أنه سيعود إلى موسكو، بمفرده.

- يعتقد باتلوف أنكِ على وشك تحقيق تقدم كبير، وقد أقنعني بمنحكِ المزيد من الوقت.

لا شك أن باتلوف كان يبحث عن مزيد من الوقت لنفسه أيضًا، فكلما طالت مدة بقائي في باريس، وجد مبررًا لنفسه أيضًا، فعمله هو الإشراف عليَّ.

- لكن هذا التمديد له حدود، فإذا لم تجدي دليلًا مقنعًا على وجود مؤامرة قريبًا، فستعودين إلى المنزل.

كدت أقول لأليك إني أشعر أني في بيتي وأنا في شقتي المتواضعة تلك في باريس أكثر مما شعرت به وأنا معه في يوم من الأيام.

رحل أليك، ولكن بقي أثره عالقًا، كظل دائم؛ فقبل مجيئه، كان من السهل عليَّ إخفاءُ تداعيات هذه المهمة بظلال مغايرة. فقد كنت أغازل هذا، أو أدردش مع ذاك، أنتظر أن يقترب مني أحدهم، كنت أقوم بدور صغير في لعبة أكبر. أما الآن، فإني أدرك حجم المخاطرة الحقيقي، فمن سأبلغ أليك عنه، مهما كان، فهو مقتول في الغالب. لكن لا خيارَ لديّ؛ فأليك نافدُ الصبرِ بالفعل، كما أنه لم يبدُ مقتنعًا عندما أكدت له أن ميخائيل بريء. إذا لم أعطِ

أليك اسمًا آخر قريبًا، فقد يقتل ابن عمي، مهما يكن ما قلته. حان الوقت لإنهاء الانتظار والبدء في العمل.

قدّم (الوطني) الغامض فرصةً مثاليةً لي. لم أشاهد مسرحية (النورس) قبل ذلك قط، ووجدت إنتاجَ الرابطة للمسرحية مؤثرًا تأثيرًا لم أتوقعه. أدّى المسرحية قُدامى المحاربين الروس، وحظوا بتصفيقٍ كما لو كانوا من العائلة المالكة. استدعت المسرحية عالمًا يبدو مألوفًا، بشكلٍ مؤلم، الشخصيات ذات عقلية فنية، ذكّرتني بأمي وسيرجي، وعند إسدال الستار تعالت الهتافات صادقةً ودامت طويلًا. كان الممثلون ينحنون يحيُّون الجمهور ويحييهم، والجميع يأبى المغادرة.

دُعيت إلى الاحتفال في الكواليس بعد ذلك، وحييت مؤسسي الرابطة باهتمام كبير، وأوليتُ الجنرال اهتمامًا خاصًّا. رحت أسأل كثيرًا من الأسئلة اللاهثة، ويدي تلامس ذراعه، وتظاهرت بالخجل الشديد من نكاته البذيئة. وفي الوقت المناسب، ناورته وانتحيتُ به ركنًا عندما غمز لي مفتونًا.. قلت:

- أنا بحاجة إلى مساعدتك.

أدرك أنني لم أسحبه جانبًا لأواعده، وتحول تعبيره إلى القلق.

- ما الأمر؟

- أنت تعرف أنني مترجمة لوفد تجاري سوفييتي.

أومأ الجنرال برأسه.

- أعمل في الغالب في وزارة التجارة الفرنسية، ولكن قبل بضعة أيامٍ طُلب مني إحضار بعض الوثائق من السفارة السوفيتية. وسمعت، وأنا في غرفة الملفات، رجلين يتحدثان بالخارج، أعتقد أنهما لم يعرفا أني كنت بالداخل.

ثم صمتُّ للحظات قليلة، أتأكد من أن الجنرال قد أعارني كامل اهتمامه، ثم واصلت:

- هل سمعت بهذا (الوطني) من قبل؟

اهتز شاربه، ولكنه لم يُجب، فقلت:

t.me/yasmeenbook

- قال الرجلان إن (الوطني) هذا له أصدقاء في باريس، وإن الوقت قد حان لتعقبهم والقضاء عليهم. هل تعرف ما المقصود بهذا؟ أخشى أني سأدخل في متاعب كبيرة إن عرفوا أني كنت أصغي.

- لا يوجد ما ينبغي عليكِ أن تقلقي حياله.

كان يحاول أن يصرف انتباهي عن أهمية الأمر، وألقى نظرة خاطفة على الحفلة. من الواضح أنه سمع عن (الوطني) هذا، ولكن كم يعرف عنه؟ يبدو الوقتُ مناسبًا لرش المزيد من فتات الخبز، فهمستُ:

- أنا أكرههم.. أكره هؤلاء الرجال في السفارة -البلاشفة كلهم قتلة- لقد دمروا كل شيء.

لم يكن من الصعب استدعاء الدموع، خاصة وأن هناك الكثير من الأحزان بالفعل.

ربَّت الجنرال على كتفي بيد مسّت صدري أولًا، ثم همس وأنفاسه المترعة بالخمر تهز شعري:

- لا تفقدي الأمل.. ستنهض روسيا التي تحبينها من جديد.

كاد يعترف، وكنت أشعر بالإغراء يدفعه دفعًا نحو هذا، فأخذتُ أنامله بيدي، وقلت:

- ماذا تقصد؟

- يحسن لكِ ألا تعرفي الكثير.

- أنا على أتمِّ استعداد للمساعدة، يمكنني أن أعود إلى السفارة، وأبحث في الملفات...

فأومأ الجنرال إيماءةً يقول لي لا داعي لمثل هذا، وأسقط ذراعه ليربت على أسفل ظهري. ثم قال:

- لا لا.. لا ينبغي لكِ فعل ذلك.. من الأفضل أن تنسي أنكِ سمعت أي شيء على الإطلاق.

يحسن أن أكف، فإن واصلت الضغط قد يشك. وعلى الأقل، فقد وقعت على شيء كبير؛ (الوطني) حقيقة موجودة، فقلت:

- أنتَ على حق.. آسفة لإزعاجك.

- كيف لشيء بجمالكِ أن يكون مصدرًا للإزعاج؟! ولكن، من الآن فصاعدًا، إن سمعتِ شيئًا آخر عن هذا الأمر، فتعالي إليَّ أنا أولًا.. اتفقنا؟

ابتسمت له بوَلَهٍ، وانضممنا إلى الحفلة مرة أخرى. تفحصتُ الغرفة بغير اهتمام، فلم يكن بي من طاقة لأي حيلة أخرى. عقلي مشغول بخطوتي التالية. إنْ أخبرت باتلوف أنني وجدت علاقة محتملة بين الرابطة و(الوطني)، فأين يضع هذا ميخائيل؟

وفي حين كنتُ أستخلص قبعتي من كومة متأرجحة من القبعات، إذا بمن كنت قلقةً بشأنه يأتي يمشي خفية ليمسكني من مرفقي، ويقول:

- تعالي معي.

فاجأتني عبارته الفظة المقتضبة، وتبعته وهو يسير بي عبر مدخل ضيق من مداخل الكواليس. نزلنا سلالم في محاذاة منطقة الأوركسترا، ثم واصلنا الهبوط تحت الأرض إلى أن وصلنا إلى غرفة خفية. امتدت غرف التخزين عبر أحد الحوائط، وأشار إليَّ ميخائيل في اتجاه يافطة كتب عليها «الملابس». دخلتُ وتبعني وأضاء الأنوار وأغلق الباب خلفه.

تحركنا بصعوبة بالغة بين حاملات الملابس، وشممت رائحة الصوف الرطب والعرق، وأيضًا تلك الرائحة الحادة التي تصدر عن أحذية تحتاج إلى تهوية جيدة. حدق ميخائيل إلى وجهي، ونظرت إليه بارتباكٍ صادقٍ، فحقًّا لم يكن لديَّ أي فكرة عما قمت به لأثير غضبه إلى هذا الحد. فقال:

- أخبرني الجنرال أنكِ تذكرين (الوطني).

قالها بالنبرة نفسها التي كان يستخدمها أبي لتوبيخ العُصاة من الخدم.

- كيف يمكن أن تكوني بهذا الغباء؟

لم يكن عليَّ أن أزيف سخطي، فقلت:

t.me/yasmeenbook

- أنا لا أعرف مَن أو ما (الوطني) هذا.

فتنهد ميخائيل، وانحنى رأسه في اعتذار صامت، وقال:

- لماذا سألتِ الجنرال بدلًا من أن تسأليني؟

- تعرف كم هو فضولي، فقلت لنفسي لو أنّ هناك أي مؤامرة ضد البلاشفة فسيكونُ على علم بها.

- يجب عليكِ أن تلزمي الحذر.

أدركتُ مؤخرًا أنه كان يجب أن أعرف منذ اللحظة التي جذبني فيها ميخائيل جانبًا، أنه يعرف كل شيء عن (الوطني)، بل ربما يعرف عنه أكثر مما يعرفه الجنرال. قبل تلك اللحظة، كنت أعتقد حقًّا أن ميخائيل بريء. كنت أحسب أنه وبقية أعضاء الرابطة قد رضوا بمصائرهم الباهتة. لم أرغب في السؤال. لم أُرِد أن أسمع أن أليك كان على حق. لكن كان عليَّ أن أعرف الحقيقة. فسألته بلطف:

- من هو (الوطني)؟

فأجاب بصوت رقيق:

- ظِلّ.

تركتُ مساحة للصمت بيننا لأخفف من قلقه، حتى قال أخيرًا:

- لقد سمعت شائعات مختلفة، كان آخرها أنه ضابط في الجيش الأحمر.

- هل تعتقد أنه كلام صحيح؟

فأشاح بيده قائلًا:

- من يدري؟ إلا أن الكلام فيه شيء من الوجاهة. فالبلاشفة يمزقون أنفسهم إربًا، ويتقسمون إلى فصائل، كل فصيل يتهم الآخر بالخيانة. هم قابلون للاختراق، وهم على دراية بهذا. وما المؤسسة الوحيدة التي بها من القوة ما يكفي لهزيمتهم؟ إنها الجيش. فالجنود ولاء أحدهم لصاحبه، لا لستالين. وأي قائد قوي للجيش الأحمر سيحصل على دعم القوات والشعب.

- وكيف سيكون ذلك أفضل؟ أليس الجيش الأحمر شيوعيًّا؟ ألن تكون المشكلات حينها هي هي؟

- (الوطني) -إن كان ثمة وجود له- يزعم أنه لا يريد السلطة لنفسه، وأنه بمجرد هزيمة البلاشفة سيمهد الطريق لتشكيل حكومة جديدة.

- بقيادة الدوق الأكبر رومانوف؛ ابن عم القيصر؟

- الدوق الأكبر رومانوف يحب أن يرى الأمر على هذا النحو. ولكن -شخصيًّا- لا أعتقد أنه يمكننا العودة إلى الاستبداد؛ فالعالم قد تغير كثيرًا ولن يجدي هذا، روسيا جديرة بحكومة ديمقراطية حديثة، حكومة تتيح للعائلات التي اشتغلت بالخدمة العامة لأجيال طويلة أن تفعل بعض الخير.

- عائلات كعائلة شولكين.

- لِمَ لا؟

وابتسم ابتسامة خافتة، وتابع:

- كل هذا مجرد كلام الآن، كلام قد لا يكون له ثمرة.

- ولكن إذا حدث ذلك...

- سنستعيد بلادنا.

شعرت بحرقة الشوق. هل كان المستقبل الذي وصفه ميخائيل ممكنًا حقًّا؟ هل يمكن الإطاحة بالحكومة السوفيتية؟ إن أمكن ذلك، فلن يكون لأليك من سلطةٍ عليَّ، ويمكنني حينها أن أطلِّقه.. أن أنال حريتي. إلا أن أفكارًا كهذه أيضًا قد تقتلني.

رفضت عرض ميخائيل لتوصيلي إلى المنزل، فأقرب محطة مترو على بعد بنايتين فقط. استطلعت الرصيف بالطريقة نفسها التي تتبعها جميع النساء عندما يسافرن بمفردهن في الليل، وشعرت بالاطمئنان لرؤية ما لا يقل عن عشرة أشخاص ينتظرون بجانبي. لم يكن هناك داع للتوتر، ومع ذلك توترت، فراحت قدمي تنتقل من جانب لجانب، وأناملي تضرب جانب حقيبتي. وعندما توقف القطار، تلكأت قليلًا، تاركةً مَن حولي يصعدون أولًا.

t.me/yasmeenbook

كان رجل ما يقف على الطرف الآخر من الرصيف، على بُعد خطوات قليلة من القطار. وعندما بدأت الأبواب أمامي تُغلق، أسرعت بالدخول، وألقيت نظرة خاطفة فرأيت أثرًا موازيًا لحركةٍ على بعد بضعة عربات.

تضخم قلقي حتى صار خوفًا. هذه المرة لا شك لديَّ أن أحدهم يتبعني. عندما وصل القطار إلى محطتي، نزلت وتوقفت قريبًا من الحائط، متظاهرةً بأنني أفتِّش في حقيبتي. مر أمامي ثلاثة رجال وامرأة، فلم يبالِ بي أحد منهم. سمعت وقع أقدامهم على السلم وانتظرت، وحيدةً، في محطة خالية.

هل كانت هذه هي الخطة طوال الوقت، أن يحاصرني هنا؟ فجأةً شعرت بأنني مكشوفة، فصعدت السلم مسرعةً لأخرج إلى الشارع. مرت سيارة أجرة واحدة، وسمعت ضحكات خافتة من بعيد، ولم يكن هناك حركة غير هذا. نظرت إلى التقاطع الذي سيتعين عليَّ أن أعبره لأصل إلى شقتي. هناك رجل يرتدي قبعة وبذلة داكنة مُتكئ على جانب المبنى على يميني، يشعل سيجارة. مالت قبعته على وجهه تخفيه. لكني أذكر أنه واحد ممن رأيتهم ينزلون من القطار. لقد رأيت أيضًا رجلًا يعبث بسيجارة بالطريقة نفسها في بوليفارد مونبارناس عندما كنت مع «لي».

إن عدت إلى شقتي فسيعرف أين أعيش. ثم قلت لنفسي لعله بالفعل يعرف أين أعيش إن كان من استأجره هو أليك أو باتلوف. وقبل أن أقرر ما سأفعل، ألقى الرجل عود الثقاب واستدار ليسير في الاتجاه المعاكس. شاهدته يمضي ثم لا يلتفت ولو لمرة واحدة، وعندما سلكت طريقًا ملتويًا إلى شقتي، لم أرَ أو أسمع أي شخص خلفي. لو أن هذا الرجل كان يتتبعني، فقد حصل على مبتغاه بالفعل، وعرف ما يريد.

أمضيت اليوم التالي في وزارة التجارة، متيقظةً لكل وجه مررت به في الطريق والعودة. وفي أثناء عودتي إلى المنزل في وقت متأخر من بعد الظهر، رأيت الجندي الأبتر قد عاد إلى زاويته، فطرحت بعض العملات في كوب يضعه إلى جانبه.

فشكرني دون كلام، هو لم يتكلم قط من قبل، حتى إني سألت نفسي إن كان حلقه مصاب أيضًا، فقد سمعت قصصًا مروعة عن الغازات السامة. كانت الأختان بلانشارد قد أخرجتا كرسيين لتتشمسا، فلوّحتُ لهما سريعًا، متجنبةً سعيهما للحديث. عندما دخلتُ، وجدت ملاحظة مقتضبة من «لي» في صندوق البريد: «عدت إلى باريس. يرجى إعلامي إذا كنت هنا هذا الأسبوع».

شعرت بمزيج من الفرح والتخوف. لم أرَه منذ قُبلتنا في ذلك الشارع الخلفي المرصوف بالحصى. رحت أفكر في ضوء الشمس في شقة «لي» وفي نقره على الآلة الكاتبة، ونظرة عينيه وهو يخلع قبعته ويميل نحوي. كنت أتحرق شوقًا لتبادل الرسائل معه. أحفظ رقم هاتفه؛ فقد كنت أتصل به من حين لآخر من مجلس التجارة، وكانت الأخوات بلانشارد تسعدان جدًّا بالسماح لي باستخدام هواتفهما مقابل مبلغ صغير.

رحب بي «لي»:

- آنسة شولكينا!

يبدو أنه غير منزعج من الإحراج الذي حدث في لقائنا الأخير.

- أرجو أن تكوني غير مشغولة غدًا.

أعلم أنني يجب أن أنهي هذه العلاقة بسرعة، وبلا تبعات، حتى أحمي «لي» من شكوك أليك. لكن لا أعتقد أنه من الصواب فعل هذا عبر الهاتف. اقترحت أن نلتقي في الثانية ظهرًا، واتفقنا. أنهيت الاتصال ولم أقل إلا كلمات قليلة، لكن داخلي يرتعش.

خرجت لأخبر الأخوات بأنني أنهيت مكالمتي، وسألتْ صغراهن، سيلين:

- هل أنتِ بخير؟

فنظرت الأخت الأخرى، سيليستي بتعاطف قائلةً:

- ألديكِ مشكلة مع رجُلك؟

حدقتُ إليها محتارةً، كيف عرفتْ بشأن «لي»؟ قالت سيلين:

t.me/yasmeenbook

- لا تنزعجي. أيًّا كان من يدفع إيجارك.. فهذا شأنكِ، ولكن إن كان يغريكِ بزعم أنه سيترك زوجته من أجلك، فلا تصدقيه، فهم لا يفعلون ذلك أبدًا.

حينها تذكرت القصة التي رواها باتلوف لمالك المنزل عن رجل إحسانٍ ثري. لا بد أن عائلة بلانشارد الثرثارة قد أخبرت نصف المبنى أنني عشيقة رجل ثري. وفي حين راحت الأختان تستحثانني للبوح بمعلومات عن «صديقي».. أخذتُ أشاهد الجندي في الزاوية، وقد وقف يعدِّل من سترته بحركات متشنجة متيبسة، ووضع محتويات كوبه في الجيب الأمامي، ثم مضى وقدماه تكادان تزحفان فوق الرصيف. وفجأة لفت نظري الحذاء. لقد كان الرجل الذي تبعني في المترو وقبل ذلك في مونبارناس يرتدي بزة بسيطة داكنة اللون من النوع نفسه الذي يرتديه مئات الرجال الباريسيين الآخرين. ولكني، لا شعوريًّا، كنت أجد شيئًا غريبًا، لم أتبين حينها ما هو، ولكني الآن أعرف؛ كان يرتدي أحذية عسكرية بالية، النوع نفسه الذي يرتديه الرجل الذي يجلس منذ أسابيع طويلة في بقعة أراها من شقتي.

كان أول ما خطر على بالي أن أهرول خلفه، فعلى الأغلب كان متوجهًا إلى المترو، وإن أسرعتُ فلربما لحِقتُ به. ثم قلت لنفسي، وماذا بعد ذلك؟ يمكنه أن يسحبني إلى أي مكان في باريس، ومَن يدري أين قد يكون ذلك؟ كنت في غاية التعب، وإن لمحني فسأفقد أي مزية لديَّ. وإتقان الرجل التنكرَ في هيئة جندي متسول يعني أنه محترف. لا يمكن أن أتبعه متابعة عمياء فأخاطر بأن أُرصَد. ولأعرف مَن هو وما عمله.. لا يوجد غيرُ سبيل واحد؛ سيتعين عليَّ أنا أيضًا أن أكون شخصًا آخر.

تقدمتْ نحوي مدام جورنيه لتحييني عندما وصلت إلى منزل "لي" في اليوم التالي ظهرًا.

- لقد عاد من مارسيليا مرهقًا تمامًا، فاحرصي على ألا يشقَّ على نفسه في العمل.

- لا أعتقد أني سأمكث طويلًا.

صعدتُ السلم بخطى ثقيلة وأنا أشد من عزمي مع كل خطوة. لقد كانت القُبلة خطًّا نابعًا من تهور. وحتى لو اتفقت أنا و "لي" على أن نضع الأمر وراء ظهورنا، فلن تكون الأمور بيننا على سابق عهدها أبدًا، فهناك دائمًا هاجس زيارة مفاجئة أخرى من أليك. قطْعُ كل اتصال مع "لي" هو الطريقة الوحيدة لإبقائه بأمان.

فتحَ الباب ورحب بي وهو يبدو كأنه لم ينَم منذ أيام، وبدت ابتسامته متكلفةً، طبقة رقيقة من الأدب. دخلت ورأيت طاولة الطعام مزدحمةً أكثر من المعتاد، وسترةً مجعدةً مطروحةً على ظهر الأريكة، ورائحة الغرفة قهوة بائتة وملابس رطبة.

عرض عليَّ شايًا، وكان من السهل أن أقول نعم.. أن أتخذ مقعدي المعتاد وأقلِّب القشدة والسكر. ولكن إن التزمت الروتين المعتاد نفسه، فلن يكون سهلًا بالمرة أن أمضي فيما عزمت عليه؛ فرفضت بلطف وقلت إنه ليس بإمكاني البقاء.

اتكأ على الطاولة وهو يتمسك بحافتها بشدة كما لو أن المحادثة -على قصرها- قد أنهكت قواه. أحضرتُ معي فصل الكتاب الذي طلب مني أن أقرأه، وعندما وضعت المجلد شعرت بهواجسه تغلي تحت وجهه الذي ارتدى قناعًا من اللامبالاة. قلتُ:

- إنه عمل جيد جدًّا.
- حقًّا؟

رأيت عينيه تشرقان ويستعيد مزاجه الجيد، فقلت لنفسي: «تذكري هذا جيدًا.. ليكن هذا الوجه هو ما تذكرينه منه بعد الآن». وقلت له:

- لديك عينان وصّافتان. أتطلع إلى قراءة الكتاب كاملًا يومًا من الأيام.
- يمكنك أن تبدئي بالفصل التالي إن شئت، فقد أتممته في القطار وأنا في طريقي إلى البيت.

من المهم أن أتكلم بلا عواطف، أن أنهي العلاقة سريعًا.

- لا يمكنني أن أعمل عندك بعد اليوم.

t.me/yasmeenbook

بدا محتارًا أكثر مما بدا متفاجئًا، وقال:

- بسبب ما حدث، بعد (لو دوم) اعتبريني نسيته.

- أنا متزوجة.

كانت الحقيقة حادة كسكين تقطع ما بيننا. تصلَّب «لي» في مكانه وأشاح بنظره. لم أتحمل جرحه، وأنا أعرف أني السبب فيه. بالكاد أتحمل جرحي أنا. قال بلطف:

- وهل زوجكِ، في باريس؟

فهززت رأسي نفيًا. كيف أفسر وجود أليك؟ ذِكره في هذه اللحظة معنويًّا يلوِّث هذه اللحظات الأخيرة. شقة "لي" هي ملاذي الأخير، مكانٌ يبدد ضوء الشمس فيه ما بداخلي من ظلمات؛ فمع "لي" تخرج إلى النور نفسي الأكثر صدقًا، خاليةً من كل ريبة وقلق. كان هذا وهمًا.. لم أكن قط حرةً، حتى هنا.

طفت الدموع كعاصفة مفاجئة. كان بإمكاني أن أمنعها. علم الله أني حافظت على قوتي في وجه فظائع أشد من هذه بكثير، ولكني اخترت أن أتركها تتدفق، لأريَ "لي" عمق أحزاني، ثم قلت والدموع تخنقني:

- سأعود إلى موسكو قريبًا.

ولدهشتي.. شعرت لرطوبة الدموع على خديَّ بشيء من البهجة.

- من الأفضل ألا نرى بعضنا مرة أخرى.

- إن كانت تلك رغبتك!

قالها وكأنما يتحدث على بُعد أميال، مع أن أحدًا منا لم يتحرك من مكانه.

- آسفة.

لو لم أغادر على الفور، لخارت قواي؛ فصدري بالفعل يئنُّ تحت تنهدات أكتمها. استدرت ناحية الباب، ولم يقل «لي» شيئًا. لا أدري إن كان حزينًا لرؤيتي أغادر، أم يشعر بالراحة. كان من المهم أن أستمر في الحركة، أن أتذكر الداعي لتضحيتي. وبعد عشر دقائق من رحلةِ الحافلة، وصلتُ إلى المسرح الذي تعرض فيه الرابطة مسرحيةَ (النورس). كان هناك بواب

يحرس المدخل الخلفي قد علته السآمة، لم يعترض على قصتي وأنا أقول له إني فقدتُ أحد أقراطي بالداخل، خاصة عندما أنهيت كلامي ببضعة فرنكات في يده. لم أرَ أحدًا آخر وأنا أعبر الكواليس، ولا عندما هبطت السلم إلى غرفة الملابس. التقطت أكثر الأغراض التي وجدتها بهرجةً، فستانًا يكشف الصدر مزينًا بالترتر، وحذاءً من جلد التمساح، ومعطفًا مخمليًّا أخضر بياقة من الفراء، وباروكةً من شعر متموج كستنائي. صررتها كلَّها داخل المعطف، ولففتُ المعطف في وشاح وضعته وراء ظهري وأنا أنسلُّ عائدةً من أمام البواب.

كان الجندي المتسول في وضعه المعتاد عندما وصلت إلى المنزل قرب الساعة الخامسة. ظللتُ على الجانب الآخر من الشارع، متعمدةً تجنبه. وما إن صعدتُ إلى الطابق العلوي، حتى بدأت في التنكر. تحت ضوء النهار، بدا الفستان أكثر رُخصًا. أما الحذاء فهو أعلى مما أرتديه عادة، يضغط بشدة على أصابعي. خططت عينيَّ بخطوط كثيفة من الكحل وأثقلت من أحمر الشفاه. كانت المرأة التي رأيتها منعكسةً في مرآة يدي الصغيرة هي النقيض التام للزوجة الشيوعية الرصينة. جريئةٌ وأخطرَ قليلًا، ذلك الصنف من النساء العصريات المتحررات اللائي ينظر إليهن القدامى بعبوس ورفض.

هأنذا وجهًا لوجه مع ماري دوفال.

لم يسبق أن رأيت الجندي المتسول في مكانه بعد غروب الشمس، لذلك قررت أن أبدأ تعقبه في الساعة السادسة. أصغيت لأتأكد من خلو السلم قبل مغادرة شقتي، ثم نزلت على أطراف أصابعي، وتجاوزت باب عائلة بلانشارد المفتوح وأنا أنظر بعيدًا. وخارج المبنى ألقيت نظرة سريعة على الزاوية للتأكد من أن الجندي لم يزل هناك، ثم سرت في الاتجاه المعاكس. واستدرت بحرص وبطء حول البنايات المحيطة، كل هذا وعيني على فريستي، والندم على اختيار الحذاء يملؤني. وأخيرًا جلست في مقهى صغير في شارع السوق الرئيسي، في بقعة يمكنني منها رؤية الجندي إن حركت رقبتي بزاوية مدروسة. وانتظرت وراح شعوري بالملل يزداد وأنا أشرب كوبي الثاني من

t.me/yasmeenbook

القهوة. وقرب الساعة الثامنة، ومع حلول الظلام، لف الجندي بطانيته، وكمه الأيمن الخالي يرفرف إلى جانبه.

سار إلى الشارع ورفع يده مشيرًا إلى تاكسي. وَثبْتُ من مكاني لأتتبعه وقد زال عني ما اعتراني من خمول في انتظاره. جسدي كله ينبض بطاقة غير مألوفة؛ فالآن أنا الصياد، لا الفريسة. أوقفت تاكسي بعد ثوانٍ من دخول الجندي سيارته، وطلبت من السائق أن يتبعها. لم أعرف إلى أي مدى سنمضي ولا إذا ما كانت حفنة الفرنكات التي حشوتها في جيب معطفي ستكفي الأجرة أم لا، إلا أن ما اعتراني من إثارة المطاردة كان كافيًا لئلا أبالي.

وبينما كنا نتحرك ببطء طيلة الوقت، لزحمة الشوارع، أخذت أفكر في الاحتمالات. لم يسبق لي النظر إلى وجه الرجل من قريب، لكنني على يقين أنني لم أرَه مطلقًا في وزارة التجارة أو في أي حدث من أحداث الرابطة. من الذي استأجره ليتبعني؟ يبدو باتلوف هو المجرم الأكثر احتمالًا، جاسوس يراقب جاسوسًا، مع أني كنت أعتقد أنني قد حُزت ثقته. فخلال الأسابيع الستة التي قضيتها بباريس لم أذهب إلى أي مكان أو أقابل أي أحد دون إخباره. هل يمكن أن يكون للجندي صلة ما بـ «لي»؟ لم أجد سببًا وجيهًا ليرغب «لي» في تتبعي، ولكن، حتى «لي» كانت له أسراره؛ اليوميات المخفية مثالًا. لِمَ أُلقِ نظرة أخرى عليها أو أعرف لِمَ وضع اسمي بها؟!

توقف التاكسي الذي نسير وراءه، وكذلك فعلنا، على بعد نصف مبنى. فسألت السائق:

- أين نحن؟

- مونمارتر.

سمعت بهذا الحي، لكنني لم أزره من قبل. عندما تركت السيارة، ومعها تقريبًا كل ما لديَّ من مال، هاجمتني الضوضاء وأضواء الملذات المعروضة مقابل المال. كان هناك مجموعة من الشبان يتصايحون خارج مدخل مضاء بمصابيح وردية في علامة أكيدة على حانة، أو بيت من بيوت المتعة، وعلى

مقربة منه امرأة ترتدي تنورة شفافة تقدم خدماتها بشكل أكثر سفورًا، وقد راحت تنادي زبائنها.

سمعت صوت الأكورديون آتيًا من ملهى ليلي مصحوبًا بأصوات أقدام الراقصين. كانت مونمارتر في كل زاوية منها تَعِدُ بلتبية راغبي المتعة. مرَّت حافلة تحيط نوافذها بوجوه ضبابية مزمومة الشفاه؛ سياحٌ جاؤوا يحدقون إلى مراتع الفسوق. لو لم تكن عيناي مثبتتين على هدفهما، لحذوت حذوهم. راح يمشي أمامي بنشاط، هذه مشية رجل حدد وجهته. لم يعد كُمُّه الأيمن يتدلى إلى جانبه، فالإصابة المُدَّعاة لم تكن إلا جزءًا من التمويه. عندما انحرف عن الطريق الرئيسي، تلكأتُ قليلًا، أحاذر أن أتبعه مبالغةً في الاقتراب منه، حتى انتهى بي الأمر وقد ملت برأسي حول الزاوية. كان الشارع الجانبي الذي اختار سلوكه هادئًا، ولكن غير مهجور تمامًا؛ فبعض النوافذ المضاءة أعلنت بوضوح أن المتعة تُعرَض هنا أيضًا، وإن كان بشكل أكثر تواريًا. وعند منتصف الطريق تقريبًا، دلف الرجل إلى مبنى، كان ضوء المصباح فيه يلمع من خلال الفجوات في الستائر. انتظرت قدر ما أخذت نفسًا أو اثنين، ثم اقتربت. سمعت أصوات موسيقى. لم يكن هناك لافتة بالخارج، وترددت في دخول مكان لا أعرف عنه شيئًا. إلا أنه قد تكون هذه فرصتي الوحيدة لمعرفة من هو هذا الرجل. وأخيرًا، غلب الفضولُ الخوف.

فتحت الباب ودخلت بهوًا صغيرًا، وكان على يميني مباشرة سلم. لا بد أن هذا المكان كان في يوم من الأيام منزلًا خاصًّا. وإلى يساري.. تحوَّل ما كان يومًا غرفةً أمامية إلى مقهى مؤقت، بكراسيّ غيرِ متطابقة وطاولات متناثرة. جلستْ شخوص غير واضحة المعالم اتخذت مقاعدها قبالة الجدران واختلطت في الوسط، لكني لم أتمكن من تبين ملامح أصحابها بما يكفي لمعرفة إذا ما كان الرجل بينهم. وبينما كنت أستجمع قواي لأظل بالداخل، تقدمت نحوي امرأة بخفة، وقالت:

- مساء الخير، حُلْوَتي.

كان صوتها واثقًا تمامًا، ووجهها رغم تجعده حيًّا ودافئًا، شعرها ملفوف، والأسوار تتدلى على معصمها. تابعَت:

t.me/yasmeenbook

- هل ستلتقين بشخص ما؟

لاحظتُ أن المحادثات الدائرة خلفنا تتباطأ، والأعين تتحول نحونا. من الواضح أنه نادٍ خاص من نوع ما، وآخر شيء أريده هو لفت الأنظار إليَّ، فتمتمتُ:

- أنا آسفة.

كيف لي أن أتوصل إلى كذبة مقنعة وأنا لا أعرف حتى أين أنا؟ ابتسمت المرأة ابتسامة من يريد أن يتلقى ردًّا مقنعًا، وقالت:

- لا بد من سبب لوجودكِ هنا.

داعبت خدي تموجاتُ الباروكة لتذكرني بأني هنا بصفتي (ماري)، لا (ناديا)، فهززت كتفي بغير مبالاة، وقلت:

- أخبرتني صديقةٌ أنها تأتي إلى هنا.. وقادني الفضول لأرى المكان بنفسي.

- ما اسم صديقتك؟ فلربما أعرفها.

- أفضِّل ألا أقول.

أعجبها تحفظي وخجلي المصطنع، وقالت:

- مرحبًا بكِ.. وهنا يمكنك أن تتخذي أصدقاء جددًا، إن شئتِ.. ولتبدئي بي. مدام جيرارد.

صاحبةُ المكان، على ما أفترض. ثم، وبكياسةِ مضيفةٍ متمرسة، قادتني عبر الطاولات إلى غرفة مجاورة، كان البار بها في مواجهة المرقص، وموسيقى براسي تصدر من الجراموفون. وراح عدد قليل من الأزواج يقومون بما يشبه الرقص، كل يمسك بيد رفيقته وبالكاد يتبعون الإيقاع.

سألتني مدام جيرارد إن كنت أريد مشروبًا، وقبل أن أجيب، قالت:

- بِرْنُوه.

كان النادل الشاب ذو الخدين الغائرين نحيفًا جدًّا بالنسبة إلى التوكسيدو الذي كان يرتديه، فإما أنه استعاره وإما أنه اشتراه مستعملًا. صب كأسين ودفع بهما إلينا. قالت مدام جيرارد:

- الكأس الأولى علينا في صحتك!

قرعنا الكؤوس، وارتشفتُ رشفة حذرة. كان المشروب مُرًّا، ولكن برودته جعلت مذاقه منعشًا. قالت مدام جيرارد:

- حان وقت التعارف. تعرفين اسمي، لكني لا أعرف اسمك.

- ماري.

- فقط ماري؟

وتلألأت عيناها، وتابعتْ:

- حسنًا، يكفيني هذا. لستِ من باريس، أليس كذلك؟

- لا.. أنا من الجنوب، من مدينة صغيرة لم يسمع بها أحد من قبل.

- وغادرتِها ما إن لاحت الفرصة، فتاةٌ ذكية؛ فجميلة مثلك يهدر الريف مواهبها. أخبريني، لِمَ أنتِ هنا؟ ما شغفكِ؟

- أنا فنانة.

هكذا أجبتُها، ولمَ لا؟ وهيئتي هيئة فنانة بالفعل.

- رائع!

وراحت تنظر إليَّ من أعلى إلى أسفل وكأنها تحدد قيمتي، ثم قالت:

- أأنتِ هنا لأجل مايا؟

حدقت إليها مرتبكة، فقالت:

- مايا دي سيفرين.

وعندما لم أُظهِر أي علامة على أني أعرف من هي، لم يكن منها إلا أن ردت بنبرة ساخرة:

- أنتِ فتاة ريفية! مايا واحدة من أعظم الرسامين في باريس، وهي هنا الليلة، لا بد أن تقابليها.

وجذبتني من يدي قائلةً:

- سأعرفكِ بها.

t.me/yasmeenbook

إنها قوية الذراع بشكل مدهش! سرت وراءها إلى طاولة في الغرفة الأمامية، حيث جلست ثلاث نساء متقاربات جدًّا.. حد الركبة في الركبة. راح عقلي يضع لكل واحده منهن وصفًا عابرًا، فواحدة ضئيلة الحجم، وواحدة أطول وأعرض، ولكن تلاشت هذه الانطباعات السريعة عندما وقعت عيناي على الثالثة، التي نهضت ونحن نقترب، وراحت أطرافها تتكشف مثلَ كَرْكِيَّةٍ تستعد للطيران، أنيقٌ كلُّ ما فيها، من قوسي حاجبيها المثاليين إلى انحناءة شفاهها العنابية، وشعرها إلى وراء، باستثناء خصلات متمردة راحت تتدلل أدنى رقبتها، ترتدي فستانًا حريريًّا أصفر يتماوج على جسدها متى تحركت، وعلى كتفيها تتدلى سترة رجال مسائية.

دفعت بي مدام جيرارد صوبها، وقالت:

- مايا! لقد وجدتُ لنا صديقة جديدة.. فنانة زميلة.

عضَّت مايا على شفتها، في افتتاحية تآمرية، تهدف إلى إطرائي. قلت:

- ماري دوفال.. يسعدني لقائكِ.

مالت مايا ناحيتي، وقبلتني على الخدين. أدهشتني تلك الحميمية المفاجئة، تركتها تقبلني إلا أني لم أبادلها القبل.

- اجلسي.

أمرتني، وقالت:

- أمي، أحضري لنا بعض الويسكي، فلست سكرى كما ينبغي، وأنا أعتزم إنهاء عملي.

هل السيدة جيرارد أمها؟ لا يوجد أي شبه بينهما. انسلَّت رفيقات مايا بعيدًا، كما لو كُنَّ يُطعن أوامر لم تُقَل جهرًا. جلست مايا إلى جواري، تحرك رأسها كفرس سباق عند بوابة الانطلاق.

- اخلعي قبعتكِ، خذي راحتكِ.

وقبل حتى أن أفعل، كانت يدها على حافة القبعة، ترفعها لأعلى، وتضعها على الطاولة، ثم مالت ناحيتي قائلة:

- يعجبني شعركِ، يتطلب صبغه بهذه الدرجة من الأحمر إلى بعض الجرأة.

مدّت يدها إلى خصلات شعري فتراجعتُ، مذعورة من أن تحرف الباروكة عن مركزها. فأومأتْ لي مايا، في اعتراف بأنها لم تعط الأمر ما يكفيه من وقت. جاءت مدام جيرارد ومعها صينية، الزجاجة الموضوعة عليها أمامي بها سائل كثيف فظيع الرائحة. عرضت مايا أن تخففه إن أردت، وأومأتُ بنعم. فأخذت مصفق الخمر الذي جاءت به مدام جيرارد ورشته بالصودا إلى أن كادت زجاجتي تمتلئ عن آخرها. كانت أناملها تعلوها تشكيلة مجردة من الأصفر والأزرق والأخضر، الشائبة الوحيدة في مظهرها الزائف، الجميل. أخذتُ رشفة من الويسكي، أحمل نفسي على شربها أكثر مما أشربها. أعلم أنه عليَّ ألا أخاطر بالسُّكر، تمامًا كما أعلم أن عليَّ ألا أضيع وقتي مع هذه المرأة، لكن لم يكن لديَّ رغبة في التحرك. وتلك هي قوة مايا دي سيفرين.

- أنتِ جديدة في المدينة. يمكنني معرفة هذا من ملابسك.

كنت أعرف، وأنا أسرقها من المسرح، أنها ملابس سخيفة، ورغم ذلك أغاظتني إهانتها.

- تجربين أشياء جديدة، وهذا ما يجدر بك القيام به في الشباب.

كانت الإضاءة أخفت من أن تمكنني من تخمين عمر مايا بدقة، فإن كانت الخطوط الباهتة قد انتشرت حول عينيها، فما زال خداها ويداها ناعمتين. سألتها:

- هل مدام جيرارد أمك؟

- لا لا، هي صاحبة المكان، ولكن كلنا نعدُّها عائلتنا.

وأخذت رشفة صغيرة من شرابها.

- هل سبق لكِ أن ذهبتِ إلى مكان كهذا؟

سألتُ نفسي كيف تجيب ماري سؤالًا كهذا؟ وقررت أنها ستريد أن تبدو واثقة لتغطي قلة خبرتها، فقلت:

- لا، ولكني أريد مغامرةً.

- يا لكِ من فأرة صغيرة شجاعة، أعدكِ، لا أحد منا -نحن القطط- هنا يعض.

أنهت مايا شراب الويسكي الخاص بها في عبَّتين كبيرتين.

- لا يهم من أين أنتِ، ولا مَن كنتِ حين عشتِ هناك. كل ما يهم هو مَن أنتِ الآن، أو من تريدين أن تكوني.

- أريد أن أكون فنانةً، مثلكِ.

- ما أحلاكِ! هل رأيتِ أيًّا من لوحاتي؟

امرأةٌ كمايا قد تغريها الصراحة.

- لا.. لم أرَ أيًّا منها.

فأصدرتْ ضحكة مفاجئة خرجت في نَفَس واحد، وقالت:

- كم ينعشني قولكِ، فقد سئِمتُ تملق المتملقين. هيا، سليني أي شيء تريدينه.

أحسب أن ما أرادته لم يكن إلا دافعًا لتظل تتكلم، وأسعدني للغاية أن أبقي على انتباهها منصبًّا بعيدًا عني، فقلت:

- أريد أن أعرف كل شيء عنكِ.

- لحسن حظكِ أن الوقت لم يزَل مبكرًا.

يمكنني رؤية أن مايا تبحث عن طريقة لتبدأ بها حكايتها. أخبرتني أنها ولدت في لاتفيا، وأن ظروف عائلتها معقدة، عصفت بها تغيرات كبيرة من حيث الثروة، لدرجة أن حياتها تصلح لأن تكون رواية. أم أنها لم تصف الأمر على هذا النحو إلا الآن؟ طيلة طفولتها وهي تُرسَلُ لتقيم مع أقاربَ في برلين ووارسو وستوكهولم، ولم تعرف قط إلى متى ستمكث مع أي منهم، فلم تشعر ولو لمرة بأنها في بيتها. ورغم أني على يقين أن التفاصيل زُيِّنت من أجل إضفاء لمسة درامية، فإن السرد الأساسي بدا صحيحًا.

ظلت مايا تملأ كأسي مرة بعد مرة، حتى لم أعد قادرة على إحصاء كم شربت. ومع كل رشفة، وكل إيماءة تشجيع، رحت أتحول إلى ماري شيئًا

فشيئًا، فبدا وجهي أكثر انسيابية وانطلاقًا، فرحتُ أتنقل بسهولة من القلق، إلى الدهشة، إلى المرح. شعر جسدي كله بالتحول، وأخيرًا تحررت من هوس ناديا بالتحكم في نفسها، ورحت ألف شعري حول أصابعي، وأتمايل للأمام والخلف، قد نالت مايا ما تريد؛ جمهورًا مفتونًا. قالت:

- تزوجتُ وأنا في التاسعة عشرة، وكان بارون دي سيفرين مناسبًا تمامًا لفتاة مثلي.

- لماذا؟

- كان ثريًا بالطبع. ما كنتُ لأقول نعم إن لم يكن كذلك، ووسيمًا بما يكفي لشخص يبلغ من العمر ضعف عمري.

ثم تناولت زجاجة الويسكي مرة أخرى.

- في صحة حساب زوجي البنكي.

أعلم أنه عليَّ أن أكتفي من الشراب، ولكن ما كانت ماري لترفض شرابًا مجانيًّا، أليس كذلك؟ بعد أن قرعنا كؤوسنا، نظرت إلى مايا نظرة حزينة، وقلت:

- لم تحبيه؟

- يكون الحب أقوى ما يمكن عندما يكون بمعزل عن الزواج. دعكِ من هذا، لقد تعبت من الجلوس. هيا نرقص.

وبسرعة مذهلة، نهضت مايا وراحت تجذب ذراعي. كاد كاحلي يلتوي وهي تراقصني عبر الحجرة، فمِلت نحوها أستند إليها. شغّل أحدهم الجراموفون، على أغنية أمريكية «سويت جورجيا براون»، وأرضية المرقص من حولنا حافلة بالأجساد. تذكرت مدرس الرقص وهو يشرح لي رقصة الفالس وشعرت بقهقهات تنبعث من معدتي. نظرتْ إليَّ مايا بإمعان وسعادة وفتحت ذراعيها، فانصهرتُ فيها وقد وجدتُ في قوتها السكينة لنفسي. رائحتها جميلةٌ على نحو غريب، كأميرة من «ألف ليلة وليلة العربية».

رحتُ أشاهد الأزواج وهم يدورون ويهزون خصورهم وأوجههم تعلوها قسمات اللامبالاة والطيش. ولم يلحظ عقلي المنقوع في الكحول أن أغلب

الراقصين نساءٌ إلا بعد مدة، ثم أدركت بعد مدة أطول أن الرجال منهم لم يكونوا إلا نساءً ارتدين بِزّات رجالية. ثم استغرق الأمر مني لحظات أخرى لأستوعب أن مايا تميل من جانب إلى جانب وهي ترقص معي، ولأدرك ما يعنيه هذا، وأني كنت غافلة تمامًا عن طبيعة هذا المكان من اللحظة الأولى.

تملصتُ من بين ذراعيها بحركة بطيئة من أثر الويسكي، وغمغمتُ متأسفةً غير قادرة على التعبير عما يجري بوضوح حتى في عقلي. فنظرتْ إليَّ مايا بعبوس المربية التي لا يعجبها الحال، وقالت:

- إياكِ أن تقولي إنك تشعرين بالغثيان.

- لا، الأمر فقط، لم أعلم... أعني، أنتِ متزوجة.

فضحكت مايا.

- وماذا في ذلك؟ إن كنتُ لا أعجبك فكوني صريحة وقولي.

- أنا لا أُعجَب بالنساء، أعني لا أعجب بهن بهذه الطريقة.

- فهل يمكنكِ إذن أن تخبريني لِمَ أتيتِ إلى هذا المكان؟

- كنت أتبع شخصًا.

- والآن تقولين كلامًا لا معنى له؟

ثم عادت مرة أخرى لحال المربية وقادتني من المرقص إلى المدخل، ولحسن الحظ كان أهدأ كثيرًا، فقد كنت أشعر بالدوار.

- يمكنني أن أخمن أني سقيتك أكثر مما يجب من الويسكي. لمَ لا أستدعي سيارتي وأُقلَّكِ إلى منزلكِ؟

وافقت وأنا أشعر بالتشوش المشوب بالراحة، فتجنب المترو أو الحافلة نعمة الآن. ملتُ ناحية الدرابزين، وذهبتْ مايا للحديث إلى مدام جيرارد. لم أستطع سماع ما تقولان، ولكن نظرة جيرارد المستهجنة كانت تكويني عبر الغرفة. قالت مايا:

- سيأتي السائق عند الواجهة.

وأحضرت لي قبعتي ووضعتها بلطف على رأسي.

بالخارج، صقل نسيم خفيف بشرتي اللزجة. وضعت مايا ذراعها في ذراعي، ووقفنا دون أن نتحدث، وأصداء ليلة من ليالي مونمارتر تتردد خلفنا. توقفت سيارة رينو سوداء أمامنا، وأطل السائق من مقعده لفتح الباب الخلفي. تعرفت إليه على الفور، فقد كان الجندي. فعدت أدراجي ناحية مايا، التي تفاجأت بتصرفي وسألتني:

- ما الأمر؟

فتلعثمتُ.

- لا أستطيع.. سآخذ تاكسي.

- لأجل الله، ادخلي.

لسعتني يد مايا كثعبان راح يلتف حول معصمي، فقدتُ اتزاني وتحركت للأمام وهي تسحبني ناحية السيارة. دخلَت إلى المقعد الخلفي ولم تُرخِ قبضتها على ذراعي فسقطت إلى جوارها. سألتني:

- أين تقيمين؟

نظرتُ إلى سائقها نظرة خاطفة. كان ساكنًا تمامًا ورأسه للأمام، ولكنه كان على مقربة تكفي ليسمع كل كلمة. كنت على يقين أنه لم يتعرّف عليَّ، ولكن هل سيعرف صوتي؟ إن توجهنا إلى شقتي فسيفتضح أمري، ولم يأتِ ببالي عناوين أخرى إلا عنوان السفارة الروسية وشقة "لي"، ولم يبدُ أي منهما فكرةً جيدة. فتحولت إلى مايا ورفعت من نبرة صوتي، أزيده حدةً.

- أريد أن أرى لوحاتكِ.

- الآن؟

- ألديكِ خطط أخرى؟

قلتها بغزل كافٍ لإثارتها.

- ليس لديَّ شيء مهم هذه الليلة.

ونقرتْ على كتف السائق.

- إلى الأستوديو.

لم تكن مهارات الجندي مقتصرةً على المراقبة، فقد راح يجتاح الشوارع الملتوية بسرعة مذهلة، وفي غضون خمس دقائق وصلنا إلى حي من الورش والشقق البالية. مكان لم يمكنني تخيل امرأة ساحرة كمايا به. أوقف الجندي السيارة بشكل مفاجئ. وعندما فتح لنا الباب نظرتُ في الأرض، وعندما خرجتُ نظرت بعيدًا. وخلفي، غمغمت مايا بكلمات قصيرة مقتضبة لم يمكنني تمييزها. لم أدر وجهي إلا عندما سمعت السيارة تبتعد. إلى أين سيذهب؟ وهل ستطلبه مايا لاحقًا ليقلّني إلى المنزل.

أخرجت مايا مفتاحًا نحاسيًّا ملائمًا لقلعة من القرون الوسطى من حقيبة يد صغيرة، وأدخلته في باب خشبي متآكل، ثم في باب آخر، وكلٌّ يصر وهو ينفتح. خطت بثقة في الظلام وأنا أترنح خلفها، ثم سمعتُ صوت طقطقة مفتاح الضوء، وانبعث وهج كهرماني خافت من مصباح على الجدار.

- من هذا الطريق.

كان المدخل الذي دلفت إليه مرصوفًا ببلاط عريض، سمعت قرع الكعوب عليه واضحًا. اقتربنا من باب آخر فتحته بمفتاح ثانٍ له الهيئة المسرحية نفسها. وكجنيّة تتباهى بقواها، حلَّقتْ للأمام وأضاءت المصابيح لتضيء الغرفة التي دخلناها شيئًا فشيئًا.

كانت غرفة هائلة، بسقف بالغ الارتفاع، ومساحة بدت لا نهاية لها. وفي كل مكان، رأيت قماش لوحات الرسم، مستندًا بعضه إلى الحائط، وبعضه مكدس في أكوام على الأرض. وفي المنطقة القريبة مني فقط كانت هناك ثلاثة من حوامل اللوحات، وعلى كل منها لوحة يُعمَل عليها. وعلى يميني، اتكأت مايا على طاولة كبيرة من خشب الصنوبر لطختها قطرات ملونة، سطحها مزدحم بالألوان والفُرَش وقصاصات الورق. سألتني:

- ما رأيك؟

- رائع.

اتجهت مايا على مهل صوب مجموعة من اللوحات تحت صف من النوافذ. كان الظلام في الخارج دامسًا، كما لو كنا في الريف، لا وسط باريس، وقالت:

- هذه ليست أفضل أعمالي بالطبع، وإنما هي القطع التي لم أكملها بعد، ولعلك أكثر اهتمامًا برؤيتي في أثناء عملي.

صدمني قولها، فلم أفعل شيئًا إلا أن أومأتُ. كان الدخول في محادثة يبدو مستحيلًا وأنا مبهورة بالصور الماثلة أمامي؛ صور لنساء قويات مفتولات العضلات، يتلوين في أشكال هندسية. من الواضح أن مايا متأثرة بالفن التكعيبي، ولكن لوحاتها تبدو حيوية بشكل رائع، رغم التناسبات والألوان غير الحقيقية.

- هذه آخر سلسلة من أعمالي. تظهر تباين انحناءات جسد الأنثى مع الزوايا الحادة للرسم الحديث. دائمًا ما يريد المقتنون الحصول على بورتريهات، وهو ما أشتَهِرُ به، ولكن هذه أعمال مخصصة لي أنا.

حاولتُ تخيل واحدة من هذه الصور معلقةً في غرفتي. لو حدث، لتسيّدتِ المكان بأسره.

- أخبريني عن عملك يا ماري.. هل ترسمين بالألوان؟

تذكرتُ حقيبة أدوات الرسم الجلدية التي كانت أمي تحملها، وكانت ملطخة بالألوان من الداخل. تُرى أين هي؟ ثم هززت رأسي، وقلت:

- أُفضِّل الرسم بالقلم.

فناولتني مايا ورقة وصندوقًا من أقلام الفحم، وقالت:

- أريني.

كنتُ متعبةً وثملة بعض الشيء، كما أني لم أعرف بعدُ أي شيء عن الرجل الذي أقلّنا بالسيارة إلى هنا. يجب ألّا أضيع المزيد من الوقت. ورغم ذلك، تلمستْ يدي الأقلام، تلمسًا تلقائيًّا تقريبًا. دائمًا ما يمنحني الفن السكينة، وشعرت بانقشاع التوتر من رأسي وجسدي مع الخربشات الأولى. ليست لديَّ فكرة محددة، فقط أحرك القلم على صفحة الورقة. ثم أزيد الخطوط سمكًا عند القاع وأظللها في اتجاه الخارج عند الأعلى؛ شجرة. رسمت غصنًا على اليمين، ثم آخرَ على اليسار، وأخذت الخطوط السريعة الخفيفة تعطي انطباعًا

كالأوراق. ثم استبدلت بالقلم قلمًا أثقل لأُنشِئ جذعًا قويًّا، أسفله جذور تنشب براثنها في الأرض.

لم تمر إلا بضع دقائق، ولكني انهمكت في الأمر انهماكًا جعلني أحتاج إلى لحظة لأدرك أن مايا واقفة عند كتفي، تنظر إلى الرسم، ثم إليَّ، وليس على وجهها ما أتبين منه رأيها. هي من ذلك النوع الذي لا يجامل أبدًا، مهما أعجبها من أمامها. تحرَّقتُ للحصول على استحسانها. وأخيرًا قالت:

- طفولية.

غاص قلبي في صدري، ولكنها واصلت:

- لا أقصد من هذا إهانةً، توجد براءة في عملك، ومشاعر حقيقية.

وضغطت بأصابعها على أصابعي، قائلة:

- لا يمكنكِ أن تكوني فنانةً دون أن يكون لديك إحساس.

ساورني شعور بالحماسة وهي تطري عليَّ. أردتُ الكلام معها عن تقنيات الرسم وخاماته، أن أشاهدها وهي ترسم بورتريهًا وأن أعرض عليها أن تعلمني، ولكن لست هنا من أجل هذا. فضحكتُ، وخفضت من رأسي على استحياء، وقلت:

- لديَّ من الأحاسيس ما لا يُحصى، وأمي اعتادت أن تدعوني بالمُغرمة بالأولاد، وقد رأيتِ بنفسكِ كيف تصرفتُ بحمق أمام سائقكِ.

- ليس سائقي عادةً، فهو يعمل عند زوجي، وسائقي الخاص مريض. هل ترينه وسيمًا؟

فأومأتُ بنعم.

- رينيه جاد جدًّا بالنسبة إلى فتاة مثلك.

رُحتُ أهز رأسي وهي تتكلم، أقيِّم هذه المعلومات الجديدة. اسم هذا الجندي إذن هو رينيه. وهو يعمل عند بارون دي سيفرين، فلماذا إذن يتبعني؟ ومايا، وإن كانت أكثرت من الكلام معي تلك الليلة، إلا أنها لم تخبرني الكثير عن زوجها. سألتُها:

- هل سيعود؟ أنا محرجة جدًّا من السخف الذي تصرفت به أمامه.

- أخبرت رينيه أني لست في حاجة إليه هذا المساء، فأنا عادة ما أقضي ليلتي هنا عندما أعمل. إن شئتِ البقاء هنا الليلة فمرحبًا بكِ.

ثم اقتربَت أكثر، وابتسمت ابتسامة مزعجة، وراحت أصابعها تتحسس خدي وتنزلق إلى رقبتي. شعرتُ بالإغراء للحظات. كيف يكون إحساسكِ عندما تغويكِ امرأة كمايا دي سيفرين. ولكني تملصت منها مرة أخرى، وابتعدت متأسفةً. لا يمكنني تحمل المزيد من التعقيدات، ولكن أيضًا لا أريد أن أرحل. أردت أن أشعر، لمدة أطول قليلًا، أني كنت جزءًا من عالم مايا الغريب. قالت ساخرة:

- تُفضِّلين الرجال، حسنًا.. لديَّ غرفة ضيوف، هلّا أخذنا راحتنا؟

خلعت مايا حذاءها، وخلعتُ حذائي، وشعرت بالراحة للخلاص من عذاب قبضتها. صبَّت لنا كوبين من الماء وقالت:

- علينا أن نبقيكِ مستيقظة.

وبينما كنا نجلس على طاولتها، أخذت تقلب الصفحات في بعض المجلات الفنية وتُعرِّفني بأعمال بيكاسو وماتيس. ما زلت أنوي أن أعرف المزيد عن زوجها، ولكني لا أجد فرصة ملائمة. دلتني إلى السرير في نحو الثانية صباحًا؛ عندما ثقُل رأسي وانطبق جفناي من الإرهاق. خلعتُ ملابسي إلى قميص النوم، وتمنيت أن أزيح عني الباروكة الخشنة، ولكن ماذا لو دخلت عليَّ مايا لتجدني دونها، فقررتُ أن أبقيها عليّ.

استيقظت في الصباح جافة الحلق أشعر بالدوار. وبعد أن أسرعتُ إلى ارتداء ملابسي، فتحت باب غرفتي إلى الأستوديو. أجفلني ضوء الشمس المتدفق عبر النوافذ. كانت مايا واقفة في الغرفة ويداها على خصرها، تفحص إحدى قطع قماش الرسم. رداؤها الأحمر المطرز يجعلها تبدو كفتاة ليل صينية، شعرها معقوص إلى الوراء بوشاح متعدد الألوان، تتدلى حافاته على رقبة ملكية رائعة.

- استيقظتِ! جيد.

لاحظتُ، وأنا أسير ناحيتها، تلك التفاصيل التي حجبها ظلام الليلة الماضية. فألواح الأرضية العريضة تعلوها خدوش وبقع عتيقة، وما بدا تحت ضوء المصباح الخافت مشعثًا بشكل ساحر، لم يكن إلا فوضى. ولكن عدم النظام هذا دليل على أن هذا المكان استوديو عمل حقيقي، لا مكان للاستعراض. وكان الجانب الأيسر من اللوحة التي تعمل عليها مايا مغطًى بكتل من اللون الأرجواني الداكن والأخضر فيما يوحي بأنه منظر مشؤوم من مناظر المدينة، والأيمن لم يكد يُلمَس بعدُ، إلا من علامات قليلة بقلمٍ رصاص. سألتني:

- ما رأيكِ؟ أعمل عليه منذ شهور، وأنا عالقة به.

- أخبرتُكِ؛ لستُ رسامةً.

- لستُ في حاجة إلى خبير. فقط أخبريني برأيك. ولا يعني هذا أني سآخذ بنصيحتك.

- جيد جدًّا.

تنهدت مايا بانزعاج مبالغ فيه، فحاولت مرة أخرى، وقلت:

- تعطي انطباعًا بعينه، انطباعًا بالظلام والخطر.

وضعت مايا كفها على قطعة القماش الفارغة، كما لو أن بمقدورها أن تطبع رغباتها على سطحها.

- أريد أن أتجاوز الصورة، أن أصنع عملًا يروي قصةً، دون استخدام صور محددة. هل تعتقدين أن هذا ممكن؟

- ليس على الفنان أن يحصر نفسه فيما يراه ممكنًا.

فنظرت إليَّ مايا بابتسامة يشوبها الحزن، وعدلت وشاحها.

- أخبريني بالسبب الحقيقي لمجيئك إلى النادي في الليلة الفائتة؟

أربكني التغيير المفاجئ للموضوع، ورأيت من تعبيرها وتصميمها أنه فخ صيغ بعناية، فقلت لنفسي: فكري مثل ماري، ماري البريئة الفضولية، فقلت:

- سمعتُ عَرَضًا بعض النساء يتحدثن، نساءٍ مثيرات، فأردتُ أن أرى المكان الذي يذهب إليه هذا النوع من النساء.

- هل تعلمين أن مدام جيرارد توافق على كل عضو شخصيًّا؟ وتشترط ألا نتحدث عن ذلك علانية أبدًا؟

لا بد أنها تعرف أني أكذب، والتزامي الصمتَ الآن خير لي من أن أتعثر في المزيد من القصص المريبة، فحدقتُ إلى عينيها كما فعلتْ، وقبلتُ تحديها الصامت. قالت مايا:

- أنتِ شجاعة حقًّا، أُسلِّم لك بذلك. دعيني أخمن؛ أردتِ ألّا أوصلكِ إلى منزلك البارحة لأنكِ تعيشين في غرفة مستأجرة كئيبة لم ترغبي أن أراها، وربما تعطين المالك بعض الامتيازات مقابل إيجار أقل؟ لن أصدر عليكِ حكمي بناءً على ذلك.

اشتطتُ غضبًا، وقلت:

- أُفضِّل النوم في الشارع على مثل ما تقولين.

- حُلْوَتي! كلنا نفعل ما يتعين علينا فعله، ولكن الأمر يكون أقل قذارةً إن كان لديكِ راعٍ.

ما نوع العرض الذي تطرحه؟ قضاء المزيد من الوقت مع مايا من شأنه أن يمنحني فرصة للتحقيق في أمر رينيه الغامض، ولكن كيف يمكنني تبرير هذا التغير الجديد لباتلوف، ناهيك بأليك؟ كما أنه حتى الآن لا يمكنني استبعاد أن أحدهما هو من عين رينيه ليتبعني. قالت مايا:

- لديكِ موهبة حقيقية. أنا والبارون نستضيف حفلة ليلة السبت، وأود أن تحضري. وليس الحصول على إعانة من زوجي بأمر شاق، ما دمتِ تعرفين كيف تحظين باهتمام رجل أكبر منكِ سنًّا.

كتبت مايا عنوانها على قصاصة من الورق وسلمته إليَّ، ثم نظرت مرة أخرى إلى رسوماتها. أعرف تلك النظرة، رأيتها على وجه أمي ما لا يحصى من المرات، مباشرةً قبل أن تهشني عنها لتتمكن من العودة إلى العمل. فقلت:

- عليَّ أن أذهب الآن. هل توجد محطة مترو قريبة؟

لم يكن لديَّ من مال إلا ما يكفي للأجرة.

- عند محطة الشرق، استديري يمينًا عندما تخرجين وسيري قدر أربع بنايات. هل أراكِ يوم السبت؟

سيعني ذلك ليلة أخرى من الأرجحة في حذاء بالغ الضيق، تحت باروكةٍ شائكة. سيعني ذلك مغازلة زوج امرأة هي من تهديني إليه. ورغم هذا كله قلت:

- لن أُفوِّت هذه الفرصة أبدًا.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

لندن
1938

إلى: مدير جهاز المخابرات السرية

إشارةً إلى مناقشتنا الأخيرة للقضية، كنت أحقق في محل وفاة «ماري دوفال». نظرًا إلى أن طريق تيتشل لا يؤدي إلى أي مكان ولا يتفرع عن أي مكان ذي أهمية خاصة، فإن الاستنتاج الواضح هو أن الآنسة دوفال ذهبت إلى هناك لمقابلة شخص ما.

قضيت أنا ورجالي الأسبوع الماضي في استجواب كل من يعيش في دائرةٍ نصف قطرها ثلاث بنايات من مكان الحادث، وكادوا يجمعون أنهم لم يروا أو يسمعوا ما يريب في الليلة المعنية. كما كشفت التحقيقات الإضافية في سجلاتهم عن عدم وجود أي صلات واضحة بروسيا أو الحكومة البريطانية أو الجيش البريطاني، ولا بأي جهات أخرى تجعلهم أهدافًا للبوليس السري السوفييتي.

وأكَّدت السيدة جورج ويذربي تصريحاتها السابقة للشرطة، بأن المرأة ماتت فور وقوع الحادث. ومع ذلك، أخبرتنا أيضًا أنها تذكرت أنها رأت حينها رجلًا يرتدي معطفًا وقبعة أسودين، يحوم بالقرب من موقع الحادث (انظر نص المقابلة المرفق). كما تقول إن الرجل حاول اجتياز الحشد للاقتراب من الضحية، لكنه اختفى بعد وقت قصير من وصول سيارة الإسعاف. ونظرًا إلى أن السيدة ويذربي أثبتت أنها شاهد موثوق به، فإن روايتها تدعم شكوكنا في أن وفاة الآنسة دوفال لم تكن مصادفة. فإذا كانت قد استُدرِجت إلى هذا المكان لتُقتل، فمن المحتمل جدًّا أن يكون قد أُرسِل أحدهم لتأكيد وفاتها. سأواصل أنا ورجالي في التحقيق مع الشهود المحتملين الآخرين وإطلاعكم على تقدمنا.

– روجر

باريس
يوليو 1926

أعطيت باتلوف نسخة منقحة من أحداث ليلتي مع مايا في اجتماعنا التالي، وسألته:

- ماذا تعرف عن بارون دي سيفرين؟ لماذا يرسل خلفي من يلاحقني؟

أخذ باتلوف قضمة من طعامه ومضغها ببطء مزعج. مَن يرانا مِن بعيد قد يحسبنا أبًا وابنته يستمتعان بوجبة رائعة.

- لكنني كنت على قرب يكفي لأن أرى عينيه تزدادان حدةً. إن خلف هذا الكرش الممتلئ والبسمات العذبة يكمن رجل خطِر.

- هو رجل غني. عائلته لديها بعض المصانع، استغلال رأسمالي نموذجي. لعله مهتم بكِ بسبب اتفاقية التجارة.

- لا أفعل شيئًا إلا ترجمة بعض الوثائق.

- ربما يريد معرفة إذا ما كنتِ ستأخذين هذه المستندات معك إلى المنزل، وأن يعرف إذا ما كان بإمكانه أن يرشوك ليتسنى له إلقاء نظرة مبكرة عليها. فهذا يعطيه مزية تنافسية.

- أود الذهاب إلى الحفلة، بصفتي (ماري). سأجد مبررًا للتحدث معه واكتشاف ما يمكنني أن أعرفه من معلومات.

- يمكنكِ الذهاب بشرط ألا تهدري الليل كله في الرقص.

لم أتبين أيناكفني أم يحذرني، وواصل:

- عملكِ هذا مع البارون يشتت انتباهكِ عن مهمتك. وعلى ذكر مهمتك...

تناول من الشاي رشفة طويلةً مزعجة، يستمتع بانتباهي وقد أعرته إياه كلَّه، وأكمل:

- لقد سُوِّيت مسألة (الوطني) تلك.

- ماذا تقصد؟

- اكتشفوا مَن هو؛ نائب مفوض للزراعة، وقد أُعدِم أمس.

رفعتُ الكوب إلى فمي أكسب بعض الوقت، فبللت شفتي قطرة من سائل بارد. «هذه أخبار جيدة»، هذا ما قلته لنفسي؛ فالآن ميخائيل وأصدقاؤه لم يعودوا مُعرّضين للخطر، فلن يخاطروا بحياتهم من أجل خطة لا حظَّ لها من النجاح. ومع ذلك، فشعوري بالارتياح هذا يشوبه خيبة أمل أيضًا، فذلك (الوطني) كان قد أعطاني بارقة من أمل، وجعلني أومن بأن الأحوال قد تتغير.

حافظتُ على قسمات وجهي ساكنة في حين واصل باتلوف:

- ونظرًا إلى أنكِ لم تجدي أي دليل على الثورة المضادة في الرابطة، فقد انتهى عملكِ هنا.

فسبقتُ بالكلمات التي أعرف أنها على وشك أن تقال:

- سأعود إذن إلى موسكو.

- لستُ أنا صاحب الكلمة في هذا الأمر، ولكن أحسب أن هذه الأوامر ستصل إليَّ عاجلًا. وفي غضون ذلك، فلتستغلي وقتكِ هنا قدر استطاعتكِ. اذهبي إلى تلك الحفلة، ولكن لا تضعي نفسك في مخاطر غير محسوبة. فسيكون الأمر محرجًا، على أقل تقدير، إذا تم تداول أنباء عن أن رفيقة سوفيتية تصاحب سافلة كمايا دي سيفرين.

«سافلة».. ظلت تلك الكلمة عالقةً في ذهني عندما وصلت إلى قصر البارون دي سيفرين المهيب بعد بضع ليالٍ. ما نوع الحفلة التي كنت على وشك الدخول إليها؟ خفَّت حدة توتري بعض الشيء عندما اصطحبني بواب مبجَّل إلى قاعة دخول دائرية، تعلوها قبة أليقُ بكنيسة. سمعت ضحكًا وطنينًا من عشرات المحادثات آتيًا من غرفة مجاورة، حسنًا، هذه أصوات طبيعية بما يدعو إلى الاطمئنان.

نظر إليَّ البواب بتفحص، لكن لم يُطِل نظرته، وأصدر موافقةً صامتة على ملبسي. أنفقتُ أكثر من نصف ما تبقى من فرنكاتي على فستان قرمزي، عليه تطريز أسود عند الحافات وحول العنق، ووضعت أحمر شفاهٍ بدرجة أكثر لمعانًا وإشراقًا، وحلَّقتْ عينيَّ بخطوط كحل سميكة. سألني البواب:

- بأي اسم أعلن حضور السيدة؟

فابتسمت ملء فمي، وقلت:

- ماري دوفال.

قادني البواب إلى قاعة استقبال كبيرة تعزف فرقة جاز في إحدى زواياها. هناك ما لا يقل عن مائة ضيف، تحيط بوجوههم سُحب من دخان السجائر. غرفة لها أبعاد قصر تاريخي، بنوافذَ عاليةٍ ومدفأةٍ ضخمة، ولكن الأثاث عصري بدرجة مدهشة. الأرضية من البلاط الأبيض والأسود، والطاولات الجانبية المطعمة بالمرايا تعكس الضوء القادم من مصابيح الكروم. وكانت هناك لوحة لامرأة أمازونية، عرفت على الفور أنها من أعمال مايا، تحدق إلى الجمهور بغير اهتمام.

وقف البواب خلف رجل أسود الشعر وتنحنح. وعندما استدار الرجل، أدركتُ أنه لم يكن إلا مايا، مرتدية توكسيدو، و «ماكياجًا» أنثويًّا صارخًا.

- ماري! لكم هو رائع أن أراكِ، فقد سئمتُ من التحدث إلى الأشخاص العجائز أنفسهم.

كنتُ قد قررتُ أن تكون ماري متحمسةً، ولكن خائفة، فقلتُ:

- هل كل مَن هنا فنانون؟

فضحكتْ مايا.

- هكذا يظنون! لا يكاد واحد منهم يجني من الفن ما يقوته. وبالطبع، لذا هم هنا؛ ليشربوا على نفقتي.

- أنا على يقين أن هذا ليس هو السبب الأوحد.

- يا لحلاوتكِ! تعالَي، أريد أن أتباهى بكِ قليلًا.

تقمصتُ دوري، فصوتي كهديل الحمام ورموشي ترتجف، فأرةً ريفيةً تزعجها رذائل المدينة. قدَّمتني مايا على أنني واحدة من اكتشافاتها الجديدة الواعدة. طريقةٌ بارعة لتُثني عليَّ وعلى نفسها في الوقت ذاته. أدارَ السُقاة كؤوسَ الشمبانيا على صوانٍ فضية، وكنت كلما عُرِضَت عليَّ كأسٌ أخذتها. فقد قررت أن تكون ماري ممن يسرفون في الشراب ويتباهون بذلك. تظاهرت بالاهتمام بمناقشةٍ عن طلاء الأظافر مع امرأة شابة قوية، ثم رحت أهز رأسي وأنا أستمع إلى محاضرة عن تدمير السينما لفن المسرح. تناولت رشفة من الشمبانيا تلو الأخرى.

كانت مايا تتحدث إلى شخص ورائي، ثم أمسكت بيدي فجأةً، وقالت:

- حان الوقت لمقابلة زوجي. إنه يقبع في الزاوية عابسًا كالمعتاد.

بدا كما لو أن الغرفة قد صارت أعلى ضجيجًا، وتمددت الوجوه من حولي فتباعدت أطرافها، وبداخلي وحولي طاقة كبيرة من التوتر، تلك الطاقة التي تجتاحُ كتيبة قبل المعركة.

كان بارون دي سيفرين جالسًا على كرسي بذراعين قديم الطراز، قطعةُ الأثاث الوحيدة التي تنسجم مع المنزل، في تعبير عن تحدي الزخارف، تمامًا كالرجل نفسه، فهو في منتصف العمر، يرتدي بزةً رمادية رصينة، وقد زمَّ شفتيه النحيفتين في تجهم مستنكر. لم ينهض من مكانه عندما قدمتني مايا إليه، ولكنه قبَّل ظهر يدي عندما مددتها لتحيته، لفتة لباقةٍ يُرجى منها إثارة الانبهار. قلت بأنفاس تلهث تقديرًا:

- لكم يسرني لقاؤك.. إنها حفلة جميلة.

فقالت مايا:

- ماري التي أخبرتكَ عنها. لا مالَ لديها، فقصَرتْ نفسَها على الرسم بقلم الرصاص. أريد أن أرى ما يمكنها فعله بمجموعة من الألوان وبعض قماش الرسم المعتبر.

أخذ البارون نفسًا من سيجارته، يمصها مصًّا، ثم قال لزوجته:

- معكِ ما خصصته لكِ من مال، استخدميه كما تشائين.

- اعتقدتُ أنك ستكون أكثر سخاء إن علمتَ على مَن أُنفِقه.

فقلت بحماسة:

- أنا أحب أعمال مايا.

على أمل أن يخفف الإطراء من التوتر الواضح بينهما.

ثم واصلت:

- فزوجتك موهوبة للغاية.

- لزوجتي مواهبُ كثيرة، لا صلةَ لمعظمها بالفن.

حدقت مايا إلى زوجها، في رد فعل على ما يبدو أنه خلاف طويل الأمد بينهما، ثم حلَّقت بذراعها ووضعتها على كتفي، وقالت:

- دائمًا ما يكون سيئ المزاج في البداية. سيكون أكثر لطفًا بعد تناول عدة كؤوس من الشراب.

أخذتني من أمامه وانطلقت، وراحت تشرح:

- لقد طلبَ منه نصفُ مَن هنا بالفعل دعمَ مقالاتهم الأدبية أو مساعدتهم في استئجار مسرح، والنصف الآخر يستجمع شجاعته ليحذو حذو النصف الأول. وهو يرضى بذلك لأن تصرفاتي الغريبة تجلب منافع معينة.

كانت أنفاسها دافئة لدرجة أنني شعرت أنها تتكاثف على رقبتي. ثم قالت:

- أنتِ نوعه المفضل، بكِ ما يكفي من البراءة. لا يتطلب الأمر كثيرًا لإسعاده، وإن استطعتِ أن تسعديه فلربما استأجر لك شقة، أو يدفع لكِ ما يكفي لإقامة عرض.

هل كانت هذه هي الطريقة التي يدعم بها أصدقاءُ مايا أنفسهم ممن يتسمون بالفنانين؟ تساءلتُ عن عدد النساء اللواتي «أسعدن» البارون.

- لن ينتظر منكِ الكثير، إذا كان هذا ما يقلقكِ؛ فهو لا يمضي في السرير إلا دقائق معدودة، وحتى هذا لا يحدث إلا عندما تعمل أشياؤه جيدًا، وهو يفضل المشاهدة.

لم أسمع قط عن زوجة تتحدث بهذه الطريقة عن زوجها. فسألتها بتردد:

- وهل يشاهدكِ؟

ضحكت مايا، وقالت:

- كمكافأة خاصة فقط، عندما يقوم بعمل سخيّ؛ كأن يدفع تكاليف إقامة حفلة كبيرة.

وصوَّبتْ عينيها على عينيّ، وحِدَّة اللحظة تسحبني نحوها. ثم قالت:

- هل صدمتكِ كلماتي؟

وكانت بالفعل تعرفت الجواب.

- آهٍ يا ماري! ما زلتُ أنسى كم أنتِ صغيرة.

اندلع احتجاج غير متوقع، من ناديا وليس من ماري، فقلتُ:

- لا أشعر أني صغيرة.

- أتمنى أن تري نفسكِ كما أراكِ.

شعرتُ بالعرق عند حافة الباروكة، وتُقتُ إلى كأس أخرى من الشمبانيا، رغم أني كنت أشعر بخفة في رأسي بالفعل. ثم قالت مايا:

- لقد نشأتِ في أسرة صالحة، علَّمتكِ الأخلاق الحميدة. لقد كنتِ صالحة طوال حياتك، ثم تغير شيء ما، لا أعرف ما هو على وجه التحديد، ولكن لعلكِ تخبرينني في يوم من الأيام. لم تعودي تريدين أن تكوني ابنةً مطيعةً، تهدر حياتها في بلدة صغيرة. إنكِ تتوقين إلى شيء أكبر.

كانت الضوضاء حولنا شديدة، من كل ناحية، ولكن صوت مايا اخترق الصياح واجتاز الضحكات المزعجة. كانت طبقتي الخارجية الواقية تذوب، لتكشف عن حقائق لم أكن أريدها أن تراها. ثم تابعت كلامها:

- تحاولين بكل ما أوتيتِ من قوة إثبات نفسك، لكن لا تزالين مذعورةً. إن أردتِ أن تكوني فنانةً حقيقيةً، فلا بد أن تكوني حرةً.

- حرة.. فأنام مع زوجكِ؟

وفي عقلي، صامتةً: «حرة في خيانة زوجي أنا؟»، فضحكتْ ضحكة عميقة، وشريرة:

- أنا لا أتحدث عن البارون.

مرَّتْ بإصبعها على طول ذراعي، مخلِّفةً إحساسًا مؤثرًا. كانت فقاعات الشمبانيا قد هاجرت بطريقة ما إلى مجرى الدم مني، تتجمع وتفرقع، وتزرع بي قابلية للتهور، فقلت لنفسي: ولِمَ لا؟ وأنا أحدق إلى عيون مايا المغناطيسية. كم سيكون شعورًا مريحًا أن أتنازل عن السيطرة. ثم قالت:

- كثير من الرجال هنا يمكنهم تحريرك من قيودكِ، ولا مانعَ لديَّ أن تستخدمي غرفةً من غرف النوم بالطابق العلوي، إن وجدتِ من يثير إعجابكِ.

حاولتُ ألا يظهر الإحراج على وجهي. ثم قالت:

- صديقي أندريه يقسم قسم العزوبية كلما بدأ منحوتةً جديدةً، أما أنا فأجد القبلات مُحفزًا لإنتاجيتي. لم نُخلَق لنكون نُسّاكًا يا عزيزتي.

كان البواب يحوم في الجوار، وخلفه حشد من الضيوف. وقالت آمرةً:

- هيا، استمتعي بوقتك.

ثم مضت إلى معجبيها الذين وصلوا للتو.

أُدرِك أنه عليَّ أن أعاود محاولة اجتذاب البارون، لكن لم يرُق لي ما قد يحدث، ولم يكن باستطاعتي التفكير في طريقة ذكية لبدء محادثة مع شخص تعامل معي بالفعل تعاملًا فظًّا. ربما لو خالطتُ رفاق الحفل بعض الوقت لعرفت المزيد عنه منهم.

انسلَّ إلى أمامي رجل يرتدي حُلةً قرمزية رائعة وربطة عنق مقلمة. ممثلٌ، على ما أخبرتني مايا عندما قدمتنا إلى بعضنا بعضًا، لكنني لا أتذكر اسمه. وسيمٌ في عبوس، بشكل يوحي بأنه متخصص في الدراما لا في الكوميديا. قال:

- كأنّكِ تائهة.

قالها بنبرة ممثل قدير، يُجوِّد في الأداء. فقلت:

- إن الحفلة مزدحمة للغاية.

- وأنتِ امرأة جميلة، يجب أن ترقص.

كان قبول عرضه أسهل من البحث عن مبرر للرفض، وعلى الأقل سيمنحني الرقص ما أنشغل به إلى أن تأتي مايا وتأخذني لنفسها، أو إلى أن يكون البارون قد شرب القدر الذي يعتدل معه مزاجه. جذبني الممثل إلى كتلة الأجساد الراقصة الأقرب للفرقة، حيث راح صوت الأبواق الحاد يضرب جمجمتي. أمسكَ أصابعي بين أصابعه بقوة، ثم أرخى قبضته، ثم أمسكها بقوة مرة أخرى. كنا كواكبَ تدور في مدارات بيضاوية. رحت أتخبط في مرافق ومؤخرات رفاقي من المحتفلين ونحن نتحرك أسرع فأسرع، وكم كانت دهشتي عندما أدركتُ أني حقًّا كنت أستمتع بوقتي.

تحركتُ مع إيقاع الموسيقى، فلم تكن مَن تتحرك هي ماري، كما لم تكن أيضًا ناديا. كنت أضحك على اللاشيء، وأطوِّح رأسي إلى الوراء، وعظامي قد صارت مطاطيةً مطواعة، والعرق ينسال عند فتحات الذراع. الحشد من حولي ضبابي، ولكن في قمة الإثارة، ونبضات القلوب متناغمة مع موسيقى الجاز. تذكرتُ أمي بعَبَرَاتٍ خفية. كم كانت ستحب كل هؤلاء الأشخاص الجامحين غريبي الأطوار. لو كنا قد غادرنا روسيا في بداية الثورة، فلربما انتهى بنا المطاف في باريس ودُعينا إلى حفلات كهذه. وأدركتُ جافلةً أن ماري هي الشخص الذي كان يمكن أن أكونه.

تباطأَتِ الموسيقى، وراحت أصابع الممثل تتحسس مفاصل أصابعي. مال إلى الأمام، وهو يمسح خده في وجهي، مثيرًا دوامةً غير منتظرة من الشبق.. وصورةً مباغتةً لـ «لي».

سحبتُ نفسي مبتعدة وهززت رأسي، وأذعن الممثل لنفرتي، كأنه يقول: كان الأمر جديرًا بالمحاولة ولا ضرر إن لم تفلح.

شققتُ طريقي خارجة من بين الراقصين. أخذت كأسًا أخرى من الشمبانيا لتشجيع نفسي، ورأيت مايا تُلوِّح لي لجذب انتباهي. لم أُلقِ نظرة فاحصة على الرجل الذي تقف معه إلا بعد أن أفسحت مكانًا بمرفقي للمرور بين كتلة أخرى من الناس. وجهه لطيف، ولكنه عاديّ؛ شعر بني، وعيون بنية، وحتى ملامحه كذلك، ذلك النوع الذي يذوب فلا تتضح معالمه إن كان وسط حشد من الناس. قالت مايا:

- ماري، أود أن تقابلي رينيه.. هو من أوصلنا إلى الاستوديو الليلة الماضية، أتذكرين؟

هل سيتعرف إليَّ وأنا قريبة منه إلى هذا الحد؟ تصنعتُ الخجل، وهززتُ رأسي هزةً جعلت خصلات الباروكة تغطي جانبًا من وجهي.

- تسرني رؤيتك.

- رينيه بطل حرب، اجعليه يخبرك بكل شيء عن ذلك.

كانت كلمات وحركات مايا متقطعة، أبطأها الكحول، وتابعت:

- ولهذا فهو حارسي الشخصي المفضل. لا يمكنكِ تخيل ما أجذبه نحوي من مشكلات.

ارتشفتُ بعض الشمبانيا وأنا أحاول تجنب النظر إليه مباشرةً. كان حذاؤه من الجلد الأسود، وقد لُمِّع لتوه. لا يرتدي الليلةَ حذاءه العالي.

- تعارفا.. سأعود حالًا.

دفعتني مايا بكتفها وهي ترحل حتى لكدت أن أسقط في اتجاه رينيه. التحدث إليه مخاطرة، لكنه أيضًا أفضلُ فرصةٍ لي لمعرفة المزيد عن البارون، فقلت:

- بطلُ حربٍ؟ احكِ لي.

- لم يكن ثمة أبطال.

كانت التدريبات العسكرية لم تزل حاضرةً في جسده وصوته. رابط الجأش بشكل صلب. أدنى رينيه فمه من أذني، واخترق صوته ضجيج الحفلة، قائلًا:

- أعرف من أنتِ.

لقد اختار أن يُفصِح عن نفسه، ولا فكرة لديَّ لِمَ قد يفعل هذا؟! فقلت:

- لماذا تلاحقني؟

فتمتم:

- ليس هنا.

وأشارَ برأسه صوب مدخل في مواجهة مدخل الباب الرئيس، حيث كانت مايا تتوسط معجبيها، فتبعته، وطرحت عني مشية ماري المتأرجحة واستبدلت بها أخرى خفيفة يقودها الحزم. عندما فتح رينيه الباب، كاد يصطدم بنادل يحمل طبقًا من المقبِّلات، وسمعت ضوضاء مطبخ في الجوار. قادني عبر رواق إلى حجرة مظلمة مليئة بأرفف الكتب؛ مكتبة ملأى بمجلداتٍ يبدو من حالتها أنها لم تقع في يد قارئ من قبل.

أشعلَ مصباح مكتب، فكانت إضاءة خافتة، في مستوى الخصر، فظلت الأوجه غير واضحة إلى درجة كبيرة. هل أخطأتُ بمجيئي مع هذا الرجل منفردةً، إلى مكان لن يسمعني فيه أحد إذا ما صرخت. فرشفت آخر ما تبقى في كأسي، وأصابعي تمسك بجذع الكأس كطوق نجاة، ثم تصنعت عدم الاكتراث وقلت:

- فمن أنا إذن؟

- زوجة ألكسندر سيميلكوف.

الأمر أسوأ مما توقعت إذن. فباتلوف هو الإنسان الوحيد في باريس الذي يعرف بشأن زوجي، أو هكذا كنت أظن. هل باعني باتلوف؟ ولماذا؟ وكقاض يبسط الأدلة، واصل رينيه:

- لا يأتي أحد إلى فرنسا كجزء من وفد تجاري سوفييتي إلا ويُدقَّق في أمره، وأنتِ مذكورة في الوثائق الرسمية باسم ناديا شولكينا، ولم يأخذ الأمر كثيرَ نبشٍ لتبين أن امرأة بالاسم ذاته تزوجت ألكسندر سيميلكوف سنة 1922. في الواقع ليس هذا بسر في موسكو. وقد ارتابت المخابرات الفرنسية أنكِ أُرسِلتِ إلى هنا لتولّي مهامه القذرة.

- أنت تعمل إذن مع المخابرات الفرنسية.

لم تتغير تعبيرات وجه رينيه، وقال:

- نحن نتحدث عنكِ، لا عني.

- أنا مترجمة، يمكنكَ أن تستعلم من وزارة التجارة...

- أنتِ لا تقضين هناك إلا ساعات معدودة كل أسبوع، ولديَّ سجلات بكل تحركاتك، فلا داعي للكذب.

ثم اقترب مني خطوة، وقال:

- أخبريني بالسبب الحقيقي الذي من أجله جئتِ إلى باريس.

بوضوحٍ وعزم حفزهما الشعور بالخطر، عرفت أن عنصر المفاجأة هو سلاحي الوحيد، فكسرت زجاجة الشمبانيا على المكتب، ووضعت عنق الزجاجة على رقبة رينيه. وضغطت الحافة المسنّنة على عنقه، وأدركت من أنفاسه السريعة اللاهثة أني قد حققت هدفي، فهو الآن خائف. قلت مُقِرَّةً:

- أنت قوي، ولعلك قادر على التغلب عليَّ، ولكن إن تحركت أدنى حركة، فسأجز رقبتك. قد يقتلك هذا، وقد لا يقتلك، وربما لا يترك إلا ندبة قبيحة.

يعرف الجندي الذكي متى يتعين عليه أن يقوم بانسحاب استراتيجي، فرفع رينيه يديه مستسلمًا، وقال:

- عملتُ مع المخابرات في أثناء الحرب، ومنذ ذلك الوقت وأنا أقدم خدماتي لمن يدفع أكثر. والآن البارون هو من يدفع أكثر.

فسحبتُ الزجاجة عن عنقه ببطء، وضممت ذراعي أتهيأ للركض. تراجع رينيه قليلًا للخلف، تاركًا مسافةً أشعرتني بالأمان. وها نحن أولاء الآن متساوون.. نتفاوض، على الشروط. قال:

- كان للبارون أعمال في روسيا.. قبل الثورة، وفقدَ الكثير من أمواله، وطبيعي أن يبحث عن طريقة لاستردادها.

- من خلال الاتفاقية التجارية؟

- من خلال كل سبيل ممكن. ولديَّ أصدقاء في المخابرات الفرنسية، أخبرني أحدهم أن زوجة زعيم بلشفي أتت إلى باريس تحت اسم مستعار. كنت أعرف أن البارون يحاول أن يسترد استثماراته الروسية، فقدمت له عرضًا؛ أن أعرف كل شيء عنكِ، ويستخدم هو ما أقدمه له من معلومات على النحو الذي يشاء.

- يريد أن يعرف إذا ما كنتُ مستعدة لقبول الرشوة لأفصح عن شروط الاتفاقية التجارية لكي يتربح هو منها.

ارتعش فم رينيه كأنما يوافقني على ما أقول، وتابع:

- كانت هذه هي التعليمات التي صدرت لي، فعرفت أين تعيشين، ومَن تزورين، واكتشفتُ أنكِ تقضين أغلب وقتكِ مع الأرستقراطيين الروس، وكاتب بريطاني. فسألت نفسي لماذا.

- وأنا سألت نفسي أيضًا لماذا يلاحقني في أرجاء مونبارناس جندي جريح، اعتاد أن يتسول قرب زاويتي. لستَ جاسوسًا جيدًا كما تظن. لم ألتقِ بمايا إلا لأني تبعتكَ إلى نادي مدام جيرارد.

فأومأ رينيه إيماءة صغيرة يُقِرُّ لي بإحراز نقطة لصالحي. سألته:

- لمْ تتعرف عليَّ تلك الليلة، أليس كذلك؟

- نعم.. ولكن البارون يطلب مني أن أتفحص كل مَن تصادقه البارونة، ولا يوجد أي سجل باسم ماري دوفال يلائم أوصافكِ، لذا قررت أن

أراقبكِ الليلة. ثم لم يستغرق الأمر مني طويلَ وقتٍ لأعرف من أنتِ على الحقيقة.

- والآن، واجهتَ مدام سيميلكوفا الغامضة.

خلعتُ الباروكة، وأجريت أصابعي في شعري، وفروة رأسي ترتخي ارتياحًا.

- سأعود إلى موسكو قريبًا، فلتخبر البارون أني لن أستطيع مساعدته.

- ولكنكِ لم تخبريني لِمَ تُرسَل زوجة رجل مهم كل هذه المسافة إلى باريس لترجمة بعض العقود. فهل كانت لكِ أسبابكِ الخاصة؟ ربما لم شمل عائلي؟

لا بد أنه يوجد كشف حساب، في مكان ما، بكل تلك المرات التي زرتُ فيها شقة ميخائيل، كل تلك المساءات التي قضيتها مع أعضاء الرابطة. فتابع رينيه:

- أخبري زوجكِ أن البارون رجل عملي. نعم هو ليس شيوعيًّا، إلّا أنه يُفضِّل العمل مع حكومة البلاشفة على العمل ضدها.. خاصة عندما يمكن للطرفين أن ينتفعا.

وأخيرًا فهمت؛ ليس من السهل أن يتصل البارون بستالين لإتمام العمل، ولذلك فقد قدَّم عروضًا من خلال أناس مثل رينيه ومثلي، من التابعين غير ذوي الأهمية. لقد ضاعت الكثير من الأرواح من أجل ما يبدو قضايا كبرى، ولكن -وفي الحقيقة- لم يكن للأمر علاقة بغير المال. مساومات دنيئة بين زعماء يقولون في العلن شيئًا وفي السر شيئًا آخر.

تركتُ رينيه، فلم يعد لدينا ما نتكلم عنه، وخطوت متثاقلة إلى خارج المكتبة وعدت إلى الحفلة أدفع نفسي بين الحشود، خلال أجساد متلاصقة، وأيادٍ ممدودة، وأصابع متشابكة. تحركتُ عبر سحب ضبابية من النزوة والحنين، وأحاديث لم تكن إلا همهمات لا تبين. رأيت امرأةً تسحب رجلين

خارج الغرفة، وأوجههم تبرق ترقبًا، وتذكرت ما قالته مايا عن غرف النوم بالطابق العلوي، وعن أنه ما كان لي أن أعيش حياة النساك.

في كل الزوايا كان هناك أشخاص يتحررون من القيود، ويفعلون ما يريدون. فلِمَ لا أفعل مثلهم؟ هذه المرة فقط.

قلت لنفسي: إن القدر هو مَن جعل «لي» يعيش على مقربة من هذا المكان. وعندما غادرت القصر، يمّمت وجهي صوب شقته، أُمضي قرارًا اتخذه جسدي. ولم تطفُ مخاوفي إلا عندما اقتربت. فـ «لي» قد يكون بالخارج، وقد يكون مع امرأة أخرى، كما أنه قد يفتح الباب بدهشة خجلة، وهو يسد الباب لئلا أرى مَن غيري بالداخل. ورغم ذلك لم أتوقف.

عندما وصلت إلى منزله، وجدت عقبةً لم أحسب لها حسابًا، فأبواب الفناء مغلقة بمفاتيحها. أسندت ظهري إلى الحائط أريح قدميَّ المتعبتين ريثما أقرر ما أفعل. يمكنني أن أطرق باب مدام جورنيه وأطلب منها أن تدخلني، ولكننا تقريبًا في منتصف الليل، ولعلها نائمة، فما عذري في إيقاظها؟ هل أزعم أني أنا و «لي» نعمل في هذا الوقت من الليل؟ ربما تكون الأبواب الموصدة نعمةً منعتني من التصرف تصرفًا أحمق.

أقبلَ رجلٌ يرزح تحت بدن ثقيل عبر الشارع، أمامي مباشرة، وتوترت غريزيًّا. كان يرتدي قبعة لاعب بولنج وحلة رجل أعمال، ووجهه، عندما اقترب إلى حد يمكن تبينه، وجه غير مألوف لي، تتدلى من أحد أصابعه حلقة مفاتيح، لا بد أنه يسكن هنا. قال بجدية:

- هل أنتِ في حاجة إلى مساعدة؟

ها هو القدر يعرض عليَّ فرصة ثانية.

- أنا هنا لأرى السيد كوبر.

- الرجل الإنجليزي!

ثم نظر إليَّ من أعلى إلى أسفل، معجبًا بقوامي بغير مداراة، وقال:

- يا له من محظوظ.

واضح من الطريقة التي يحدق بها إليَّ أنه يحسبني عاهرة. سرى شعور بالعار من صدري إلى خديّ والرجل يفتح لي باب الفناء بحركة مسرحية. فهرولتُ أمامه لأتجنب غمزاته، وقدماي ترفضان كل خطوة. وعندما وصلت إلى باب "لي"، أصغيت السمع لحظةً.. فكانت الشقة هادئة. قد لا يكون بالمنزل. لو غادرت الآن فلن يعرف أبدًا أني أتيت إلى هنا. وكذلك، لظللت أسأل نفسي عما كان ليحدث.

طرقت الباب، وسمعتُ صوت كرسي يُنهَض عنه، وجرجرة أقدام متثاقلة؛ ففردت قامتي وشددت من عزمي. فتح "لي" الباب بحذر. وسرعان ما تحول وجهه إلى القلق، وقال:

- هل أنتِ بخير؟

كان حافي القدمين، يرتدي بيجامته، وكنت لأشعر بعدم ارتياح لرؤيته نصفَ عارٍ لو أني لم أنشغل بنفسي وهيئتها. لماذا لم يخطر ببالي أن أنظر إلى نفسي في إحدى النوافذ؟ فأنا أرتدي فستانًا أليق بداعرة من داعرات الشوارع، ووجهي يغطيه تبرج مبهرج رخيص. لم يمكنني إلا تخيل حال شعري بعد ساعات من سجنه تحت الباروكة. لا عجب أن "لي" اعتراه القلق لمرآي. فقلتُ:

- ذهبت إلى حفلة.

ولم أستطع استجماع شجاعتي لأقول: «غادرت الحفلة من أجلك». فهمهم وقال:

- من مظهرك يبدو أن الحفلة كانت إما رائعةً وإما بالغة السوء.

بدا متعبًا ولكن يقظًا ويقف معتدلًا، ثابتًا ثباتًا يُغري. تقدمت ناحيته وقبَّلتُه، صارفة الاندفاعةَ في جسدي بضغط شفتيَّ على شفتيه، وكذلك فَعَل هو، بعزم وقوة، كما لو كان يتمرن من أجل هذه اللحظة بعينها. تحركت أقدامنا من أماكنها وتلامست، والتفّت ذراعاه حول ظهري، وغاص كل منا في

أحضان صاحبه، نلتقط نفسًا متى سنحت الفرصة، واصطك جسده بجسدي، وجسدانا بالباب، فأغلقه ظهري.

كانت القبلات الأولى شرارات أشعلت حريقًا.. صدري ينبض، ولم تستطع يداي التوقف عن الحركة على خديه وكتفيه وخصره. فجأةً سحب «لي» جسده مبتعدًا دون إنذار، ليتركني وقد ارتخى جسدي على الباب، لاهثةً. لم أستطع فك شفرة الألم في تعبيره.

- لا تفعلي.

ولكنه كان رجاءً لا أمرًا.

- لِمَ لا؟

فزفر زفرة كبيرة لعلها كانت ضحكة ينتويها، وقال:

- زوجك، مثلًا!

لا، ما كنت لأسمح لنفسي بالتفكير في أليك، ليس وقبلات «لي» منطبعة على بشرتي.

- لا أحبه.. تزوجته مجبرةً.

ليست الحقيقة كاملةً، ولكنها قريبة منها؛ فما كنت لأخاطر بحياة فاسيلي برفضي طلب أليك للزواج بي. فقال:

- حسنًا، يحتاج الرجل منا إلى إنذار ما، عندما تُغيِّر المرأة رأيها.

ثم بدأ يعودُ شيئًا فشيئًا إلى طبيعته؛ ذلك الرجل الساحر الذي يتخلص من المواقف المحرجة بعرض كوب من الشاي. ولكني لتوي قد لمحت وجهًا آخر منه، ولا بد من استعادة هذا الوجه. فتلمستُ يده، وتركني أمسكها، إلا أنه لم يعتصرها كما اعتصرتُ يده.

- قلتُ لكَ إني كنت في حفلة، فيها كل ما تسمعه عن باريس البوهيمية المنحلة؛ سُكْر، جاز، كلٌّ أسلم نفسه لشهوته، ولم أُرِد سواكَ أنت.

- لا تفعلي شيئًا تندمين عليه.

قالها، وكأن صوته يأتي من بعيد.

- سأندم حقًّا إن لم أفعل.

فاستسلم لي، وأعطاني نفسه. غمغمتُ:

- غرفة النوم.

كنا على القدر نفسه من الإصرار، على القدر نفسه من التحدي، هرولنا إلى سريره، فهمس لي:

- هل أنتِ واثقة؟

فغمغمت، وقد أدهشني تردده:

- طبعًا.

- هل يجب أن نأخذ احتياطاتنا؟

- كل شيء على ما يرام.. لا تقلق.

منحني قبلةً رقيقة، ثم تراجع لينظر إليَّ، وأبعد خصلات الشعر عن خديَّ وتناولها بيديه، وقال برفق:

- ما إن نفعل هذا، فلا رجعة بعدها.

- لا أريد الرجوع.

ثم لم نحتَج لقول شيء.

أيقظني، من بعيد، جرسُ كنيسةٍ يدعو المؤمنين إلى صلاة الأحد. كنت مستلقيةً على جانبي، و «لي» خلفي، وذراعه على خاصرتي فيما يبدو كاستحواذ كسول، أزحت ذراعه بلطف وحذر، فلم ينتبه. كانت غرفة النوم ذات طابع رمادي، كما لو كان كل شيء مرسومًا بقلم رصاص. حتى «لي» بدا أقل حيويةً، قسمات وجهه يعلوها تأمل يكاد يكون حزنًا. كم سيكون لتقبيله مستيقظًا الآن من مذاق جميل. ولكن يوجد ما يجب أن أقوم به أولًا.

تناولتُ ملابسي الداخلية عن الأرض وارتديتها. ورحت، وعيني على "لي" طوال الوقت، أفتح الدرج السفلي في خزانة ملابسه، فانفتح بغير صرير، ورأيت نفس مزيج الأغراض التي فتشتها من قبل، ولكن لم أجد مفكرة الجيب.

تحركت بقدر ما أستطيع من صمت، ذهبت إلى الحمام وغسلت يدي ووجهي. ألقيت نظرة على طاولة الطعام وأنا أمر عبر الغرفة الأمامية، فرأيت ما رتبته بعناية من أكوام آخذًا في العودة إلى حاله القديم. هناك ورق في الآلة الكاتبة، فدنوتُ لأرى علامَ يعمل، وحينئذٍ رأيت المفكرة بارزةً تدعوني للنظر إلى ما بها.

تصفحتها مفتشةً في الأسماء. وجدت اسمي مذكورًا مرارًا، مرةً منها تحت اليوم الذي تناولنا فيه العشاء في (لو دوم). وكان اسم بوريس أيضًا هناك.

- عُدتِ للعمل بهذه السرعة؟

جفلت لسماع صوت "لي"، وسقط دفتر الملاحظات من يدي. كان واقفًا في مدخل الباب يشاهدني. أول ما خطر لي هو أن أشتت انتباهه بالعودة إلى غرفة النوم، خاصةً وهو يبدو مغريًا في حالته المشعثة تلك، ثم قلت لنفسي: لعل هذه فرصتي التي أبحث عنها، فالآن -وبعد ما حدث بيننا- قد يخبرني بالحقيقة. فنقرت على المفكرة، وقلت:

- حسبتُ أن هذا دفتر عناوين، فأردت أن أرى كم امرأةً أخرى تعرفها في باريس.

وتظاهرت بالإحراج، فخفضتُ من رأسي، وقلت:

- لقد اعترتني الغيرة.

فسارَ ناحيتي بقدمين عاريتين وراح ينظر إليَّ.. «لا، إلّا الدفتر»، ولم يبدُ منزعجًا لأني فتحته.

- إنها قائمة بجهات اتصال، للعمل.

- وأنا إحدى تلك الجهات؟

- على نحوٍ ما.

مدَّ يده ليتناول ثوبه عن الكرسي الذي قذفته عليه الليلة الماضية. وبدا كما لو أننا نتحرك في عكس الاتجاه الطبيعي؛ من الاستسلام إلى الحذر. قال:

- لم أرِد الحديثَ عن هذا الأمر لأني متأخر جدًّا في كتابي عن روسيا. أنا أُدوِّن ملاحظاتٍ لمشروع كتابة مذكراتي في باريس، وأحتفظ بمعلومات عمن أقابلهم إلى أن تحين فرصة الكتابة.

- ماذا ستكتب عني؟

- لم أقرر بعد.

اقترب مني حتى ضغطت إحدى ركبتيه على فخذي، أزالت لمسته كل هواجسي، فهو لم يتلعثم ولا بدا عليه أنه يشعر بأي تهديد. يبدو أنه يقول الحقيقة.

- أتودين بعض القهوة؟ ولديَّ بعض قطع الكرواسون اشتريتها بالأمس.

فأومأت بنعم، وقلت:

- عليَّ أن أرتدي بقية ثيابي.

استلقى فستاني الأحمر متكومًا بجوار الباب، يبدو أكثر بهرجةً تحت ضوء النهار.

- خذي هذا.

ولفَّ رداءه حولي وهو يربط الحزام، وعلى القماش بقايا من رائحته، فشعرتُ كما لو أن ذراعيه تغلفانني وتبقيانني في أمان. وقال:

- رائع.. أحبكِ هكذا، ناعسة العينين. قشدة وسكر؟

تناولنا الإفطار معًا على الأريكة وضوء الشمس يلاطفنا بوهجه. وعندما بدأتُ أتعرق، خلعت الثوب، عازمة على ارتداء ملابسي والمغادرة، فلديَّ خطط للعشاء مع ميخائيل، وأعرف أن عليَّ أن أخبر «لي» أن هذا حدث لن يتكرر، حدثٌ بلا مستقبل. ولكن عندما أجرى يديه على طول ظهري، وشعرت بحِرِّ

أنفاسه على عظام ترقوتي، لم أقُل شيئًا. عدنا إلى غرفة النوم نتعثر في قبلاتنا، وقلت لنفسي: ستكون هذه آخر مرة، جائزة أخيرة قبل أن أنهي العلاقة للأبد.

عندما رحلتُ أخيرًا، متعللةً بأن ابن عمي قد انتظرني طويلًا، أدركتُ أن مرتي الثانية معه لم تفعل شيئًا إلا أن زادتني جوعًا إلى المزيد.

كان ميخائيل ينتظرني خارج مبناه، يدخن سيجارةً بأنفاس قلقة. نظر بريبة إلى فستاني الأحمر المتجعِّد، ثم جذبني من مرفقي.

- نحتاج إلى الحديث على انفراد.. بعيدًا عن أمي وعن الآخرين.

فتبعتُه إلى ضفة النهر في صمت. السياح يروحون ويجيئون على الجسر المواجه لنا، كنملٍ يسير على المسار نفسه. دارت عينا ميخائيل يمنةً ويسرةً، كمن يتوقع الخطر، ثم تحدث بصوت خفيض، بالروسية، قائلًا:

- (الوطني) قادم إلى هنا.. إلى باريس.

- ولكنه مات.

أحسست بارتباكة في معدتي؛ إذ أدركت خطئي، فباتلوف هو من أخبرني بهذا، والآن سيتساءل ميخائيل كيف عرفتُ بالنبأ. لكن، ولحسن الحظ، كان اهتمام ميخائيل منصبًّا على إكمال قصته، فتابع:

- أُعدِم مسؤول في الحزب بتهمة الخيانة، ولكن الدليل ضده كان دليلًا ملفَّقًا، لا أعرف مَن لفقه له. ما يهم الآن هو أن ستالين يظن أن المشكلة قد حُلَّتْ. والآن يمكن لـ (الوطني) الحقيقي أن يُتِمّ عمله، دونَ أن يرتاب به أحد.

هل الرجل الآخر بريء، أم متورط في مؤامرة أخرى؟ كانت الخيوط أشد تشابكًا من أن أستطيع حلها. تابعَ كلامه:

- سنلتقي به في غضون أسابيع قليلة، حينها ستكونين أنتِ في موسكو، لذا نحتاج إلى طريقة للتواصل. سيكون من المهم أن يكون لدينا شخص نثق به داخل روسيا.

أو ربما لا أُضطر إلى العودة لروسيا بحال من الأحوال. فلو أخبرت باتلوف أن (الوطني) لم يزل حيذًا، فلربما تركني أليك هنا لأجد المزيد من المعلومات. ليس عليَّ أن أخبرهم أنّ (الوطني) قادم إلى فرنسا، ولا أن ميخائيل متورط في الأمر. بل يمكنني أن أقول لباتلوف إني بدأت نسخ مفكرة «لي» لأجد ما يبرر لي مواصلة رؤيته، أيضًا. إن أسعفتني مهارتي بالكذبات الملائمة، فبإمكاني أن أحمي الرجلين اللذين أحبهما، كليهما.

بل قد يتسنى لي أن ألتقي بـ (الوطني) نفسه. هل هو ضابط في الجيش، كما يشك ميخائيل؟ فلا يمكن إلا لرجل ذي خبرة عسكرية أن يكون على القدر الكافي من الجرأة لإشعال ثورة ضد البلاشفة، وجعْلِ الناس يؤمنون بإمكانية انتصاره. لا بد أن يكون قائدًا بالفطرة، شخصًا يجذب الناس إليه. ولو كان من أسرة معروفة فلن يعاني نقصًا في المعارف بجالية المهاجرين الروس، كما لن يعجزه التوصل إلى تمويل أجنبي.

لم يمكنني التوقف عن التساؤل والقلق، هل يمكن أن يكون (الوطني) هو أخي، فاسيلي؟!

لندن
1938

إلى: السيد يِفْيجِني روستوف، مفوض الشؤون الخارجية.

من: كريستوفر هاول، مستشار الشؤون الخارجية، سفارة بريطانيا العظمى بالاتحاد السوفييتي.

سيدي العزيز..

أكتب ردًّا على طلبكم في الثالث من يوليو، بوضع جثمان السيدة المعرَّفة بماري دوفال في عهدة المسؤولين السوفييت كي يُعاد الجثمان إلى عائلتها لدفنه. أُقدِّر أيضًا الحاجة إلى السرية، بالنظر إلى هويتها كزوجةٍ لأحد مسؤولي الحزب الشيوعي. لم أكن أدري أن الزوجات المفضلات بإمكانهن تسلم أذونات خاصة لرحلات التسوق بالخارج، وأتفهم الحاجة إلى استعمال أسماء مستعارة لعدم إحراج الحزب.

ورغم أنكم اقترحتم أن يُسمح لأحد نظرائكم بالسفارة السوفيتية بفحص الجثمان لتأكيد طبيعة الوفاة، فنحن واثقون تمامًا بما خَلُصَتْ إليه شرطةُ ويستمينيستر من أنها ماتت في حادثة سيارة غير مرتَّبة.

وما إن أُكِّد سبب الوفاة حتى حُرِق الجثمان ودُفِن. وأُرفق في خطابي تفاصيل المقبرة ليتسنى لكم التواصل مباشرة إذا احتجتم إلى نبش القبر. يُرجى إيصال تعازيّ لزوجها، السيد سيميلكوف.

باريس
يوليو 1926

فجأة لم يعد لديَّ ما يكفي من الوقت؛ فقد تضاعفت حصتي من عمل الترجمة، إذ أوشك التصديق على اتفاقية التجارة الروسية- الفرنسية، وراحت الوثائق تتحول إلى أكوام على مكتبي، ما إن ينتهي جزء حتى يحل محله آخر. وبعد أن أخبرت باتلوف بشأن خطة البارون دي سيفرين لرشوتي، ازدادتِ الإجراءاتُ الأمنية وأخذ المسؤولون السوفييت يراجعون عملي مرة بعد مرة. وكنت متى لاحت فرصة ألتقي بميخائيل لأعرف المزيد عن زيارة (الوطني) السرية. وبعد كل لقاء، أُفرِز ما عرفته لأخرج منه بمقتطفات يمكنني استخدامها لإبقاء باتلوف مهتمًّا دون أن أضر بمسعى (الوطني). لم يكن لديَّ الكثير لأشاركه معه، حتى وإن أردت، فلم أعرف في أي يوم يُتوقع حضور (الوطني)، ولا خط سيره إلى فرنسا، ولا بأي هيئة سيتحرك طول الطريق. لا يمكن لروسي بارز أن يتسلل خارجًا من البلاد عن طريق سرقة بعض الملابس من مسرح ما.

ووسط هذا النشاط المحموم، لم أجد مكانًا أشعر فيه بالسكينة إلا مع "لي". تعاملتُ بقدر ما أستطيع من الصراحة معه في مثل هذه الظروف. أخبرته أني لا أعرف كم تبقى لي من الوقت في باريس، وأن علاقتنا مآلها إلى الزوال. وكل ما استطعت عمله هو الاستمتاع بكل ليلة نقضيها معًا. كنت أتحرك بين هوّيات ثلاث؛ رفيقة سوفيتية مخلصة، ومتآمرة سرية، وامرأة عاشقة. وكانت أُخراهن هي الوحيدة التي أشعر أنها حقيقية.

أعطاني "لي" مفتاحًا لمنزله، لأتمكن من الدخول بعد أن تُغلق مدام جورنيه البوابة. كنت أغادر قبل فجر اليوم التالي، محرومةً النوم، شديدةَ العصبية. انطلقت في أيامي أعيش على القهوة، أعصابي دائمًا منتبهةً، أفكر

مرتين قبل كل قول وعند كل ملاحظة. هل أصبحت ابتسامة باتلوف أكثر برودًا؟ أم أنَّ جدية ميخائيل المتزايدة تعني أنه يشك في ولائي؟

كنت أنا و «لي» حريصَين، فنادرًا ما نخرج معًا في الأماكن العامة، وإن فعلنا، فلا يلمس أحدنا الآخر. لم يعد رينيه يقبع عند الزاوية متسولًا في هيئة العسكري المصاب، ولكن لا يعني هذا أنه لا يوجد من يراقبني. كما أني لا أعرف متى قد يقوم أليك بزيارة مفاجئة أخرى.

عندما وُقِّعت اتفاقية التجارة أخيرًا، دُعيتُ إلى ترجمة حفل الاستقبال. كنت منهكةً، أكاد أقف على قدميَّ نائمةً، والأصوات من حولي طنينُ ذباب. وقفت خلف مبعوث سوفييتي، أتمتم في أذنيه، في حين راح نظراؤه الفرنسيون يلقون خطبًا أنيقة عن عودة الصداقة بين البلدين. وعبر الحجرة، رأيت البارون دي سيفرين، وكان أكثر مرحًا مما رأيته في حفلة مايا. لا شك أن الصفقة تروق له. لم تكن مايا هناك، ولا مفاجأةَ في ذلك، فما كان لمناسبة خانقة كهذه أن تروق لها. أحضر لي باتلوف زجاجة من خمر وأصرَّ أن نشرب احتفالًا بالحدث.

- لقد أسعدني العمل معكِ.

فانتقلتُ قربه وخفضت صوتي:

- هناك مزيد من العمل. سأتناول العشاء مع عضوين من أعضاء الرابطة قريبًا، أعتقد أنهم يكادون أن يخبروني بشيء كبير.

- أعتقد، للأسف، أنه سيتعين عليكِ إلغاء خططكِ، فالمفاوضون راحلون غدًا، وستستقلين معهم القطار المسائي المتجه إلى برلين.

آلمتني معدتي، وسألته:

- لِمَ؟

فنظر إليَّ نظرة استخفاف، وقال:

- مثل هذه القرارات تُتّخذ عند مستوى أعلى.

فهمت ما يعني؛ أليك هو من يستدعيني للعودة للبلاد. فقلت:

- ولكن غدًا! هذا قريب جدًّا...

- حسنًا، سيتوقفون في ألمانيا لبضعة أيام قبل أن يعودوا إلى موسكو؛ ما قد يعطيكِ بضعة أيام في باريس، قبل أن تنضمي إليهم في برلين، إن كان هناك ما تحتاجين إلى الاهتمام به؟

واتسعت ابتسامته. هل يعرف بشأن "لي"؟

- أعتقد أنكِ ستحتاجين إلى التسوق، اشتري بعض الفساتين لتغيظي صديقاتكِ في روسيا.

- أنا ممتنة لك.

ومنحتُه النظرة الخجلة التي أعرف أنه ينتظرها. زاد باتلوف درجة التشويق بنقر إصبع على خده، وقال:

- همم، ما رأيكِ بالأربعاء القادم؟ سيمنحك هذا أسبوعًا.

لم يكن هذا ليكفي أبدًا، وحتى لو منحني شهرًا، بل لو سنة، ما كان هذا أيضًا بكافٍ. ولكن، من ابتسامة باتلوف الراضية، يمكنني أن أخمن أنه يرى ما منحنيه عرضًا بالغ الكرم، فلا يوجد ما يُرجى من التفاوض.

بدأ العد التنازلي للرحيل.

عندما وصلتُ إلى المنزل وجدت ملحوظة من "لي":

«قابليني على العشاء في (لو دوم) إن لم تكوني مشغولة».

كان هذا أول مكان نحظى فيه بمحادثة حقيقية، وبعدها بوقت قصير، حظينا بقبلتنا الأولى. كان الشعور بالحزن على أشده داخلي، وخَاطِرُ عودتي إلى هذا المكان بالذات بدا قسوةً بالغة، فسيذكرني بكل ما أنا على وشك التخلي عنه. ولكن "لي" يستحق أن يعرف أني على وشك الرحيل، وتأجيل إخباره لن يهون من الأمر.

غيرت ملابسي، وارتديت فستاني الأحمر الذي ارتديته في حفلة مايا، رجاء أن تمنحني وقاحتُه مزيدًا من القوة لما أنا مقبلة عليه. مشيت في بوليفارد

مونبارناس بخطى ثقيلة، يبطئها إحساس متزايد بالهلاك. هل عليَّ أن أخبر "لي" فورًا؟ أم أستمتع بالوجبة أولًا وأرجئ الأنباء السيئة؟

استحضرت ابتسامةً مشرقةً عندما رأيت "لي" على طاولته المعتادة، يقرأ في جريدة. حييته، ووقف وأنا أقترب منه، فقال:

- لكم يسعدني مجيئكِ.

يعرف القواعد جيدًا؛ لا تقبيل، ولا ملامسة. ومع ذلك فالترقب ما زال سيد الموقف في كل مرة نلتقي.

- لقد أكلتُ بالفعل، ولكن فلنحضر لكِ بعض الطعام.

لوَّح "لي" بيده، وظهر هنري بكفاءة معهودة. طلب منه زجاجة من النبيذ، ثم سألني:

- أتريدين البط؟

فهززت رأسي وقلت:

- سلطة (نيس).

- هل أنتِ بخير؟ تبدين محترّة؟

- إنه الجو. كل ما أرغب في فعله الآن أن أجلس في حمام بارد.

فهمس "لي":

- ما أسهل ترتيب أمر كهذا! في شقتي.

وابتسم ابتسامةً تشبه ابتسامته الشريرة، تلك التي يبتسمها عندما نكون وحدنا. بدا رحيلي الوشيك كحاجز زجاجي عالق بيننا، يعوقني عن الاستمتاع بمناغشته. إن أخبرته الآن بما أنوي، فعليَّ أن أحافظ على رباطة جأشي، فالبكاء ممنوع. فقلت بلا مقدمات:

- لقد استُدعيت إلى موسكو، وسأرحل يوم الأربعاء القادم.

أسند «لي» ظهره إلى الكرسي، وراح يعدِّل من تعبيراته. لا مزيد من المناغشة، لا مزيد من السعادة.

- لو كان الأمر بيدي...

ثم لم أعرف بمَ أختم جملتي تلك. لماذا أقول ما أريد إن لم يكن بإمكاني فعله؟! فقلت:

- آسفة.

كان ينبغي لتحفظ «لي» أن يجعل الأمور أهون. ولكن انتابني شعور أسوأ، كما لو أنه قد رضي بالفعل بالوضع، فتخلى عني. جاء هنري بالنبيذ والسلطة، ولم أشعر برغبة في مس أي منهما. كان عليَّ أن أنتظر قبل أن أقول ما قلت، أن أستمتع بابتسامات «لي» قبل أن أصدمه.

صبَّ "لي" النبيذ لكل منا، مُترِعًا الكأسين، وأخذ عبَّةً سريعة قوية، مثلما يشرب الويسكي.

- كل ما في الأمر أني كنت سأقدم لكِ عرضًا. حقًّا الجو حار جدًّا -كما كنتِ تقولين- وكل مقتدرٍ يغادر باريس في الصيف، فرأيتُ أنه سيكون من الرائع أن نهرب منها لمدة.

- نهرب؟ إلى أين؟

- لمدام جورنيه، ابنةُ عمٍ تؤجر غرفًا في مزرعة لها، خارج (نيس). وهي تجني من السياح ضعف ما تجنيه من زراعة الخضراوات، خاصة وقد أصبحت الريفيرا وجهة سياحية شهيرة. كنت سأسألك إن كنتِ تودين الذهاب إلى هناك في أغسطس.

قصدَ بتقديم هذا العرض أن يكون لطيفًا، ولكن لم يزدني عرضه إلا أسًى. لماذا تخبرني به وأنت تعلم أني لا أستطيع أن أقبله؟ ثم تحدث بعجلة، تسبق كلماته أفكاره، قائلًا:

- قد يكون لديكِ ما يكفي من الوقت قبل الرحيل. فإن أخذنا القطار الباكر صباح غدٍ فسنصل قبل العَشاء.

ثم راح يعد على أصابعه، وقال:

- يمكننا أن نحظى بأربعة أو خمسة أيام.

- غدًا صباحًا؟ هذا قريب جدًّا.

- لمَ لا نذهب والفرصةُ قائمة؟

قلت لنفسي: ليلةٌ أخيرة واحدة مع "لي". لطالما كان هذا وعدًا لا آخذه إلا لأنكثَه. مد يده عبر الطاولة يلتمس يدي، ولم أصده، أو أهز رأسي، أو أخشى أن يرانا أحد، لم أعد أبالي. فقبضت يدي على يده، وسكَّن اتصال راحتينا هواجس راحت تدب فيَّ دبيب النمل. منهكةٌ أنا، عاطفةً وجسدًا. سيمنحني عرضه هذا فرصة أخيرةً للسكينة قبل العودة لحياتي مع أليك. وأيضًا هو سبيل لتأجيل وداعي له. لا حاجة لأن أخبر باتلوف أو ميخائيل، أو أيًّا من كان. سأنسلُّ بعيدًا في مهمة لا تخص أحدًا سواي.

لا شيء يسير بسرعة في قرية ألدون؛ لا الحمير التي تأتي بالغلال من المزارع، ولا حفنة الزائرين المتسكعين بمقهى البلدة الوحيد. لا برجَ هناك تعلوه ساعة تحصي الدقائق. بعد اللهاث في طرقات باريس لأشهر طويلة، ها هي ساعات الحرية تمتد أمامي كسراب تحت شمس حارقة. توقف الزمن.

المزرعة التي مكثتُ فيها أنا و "لي" عبارة عن مبنًى مدهون بالجير على مسيرة عشر دقائق من البلدة. ورغم أنه قدمني على أنني زوجته، وقال إننا قد تزوجنا حديثًا، فإن مضيفتنا -مدام جورنيه أخرى- لم تنظر في يدي بحثًا عن خاتم، وأرضاها بشكل كافٍ مظهرنا المحترم.

قادتنا إلى غرفتنا بالطابق العلوي، بها سرير مزدوج تحت الجزء الأدنى من سقف مائل. اكتسى المكان بشيء من الجدية بفضل الأثاث الخشبي الداكن والحوائط الجيرية، ولم يخفف من جديته إلا شراشف، زرقاء وصفراء. قال «لي»:

- عيش خشن.

وهو يلف ذراعه حول خصري، متابعًا:

- هل تتمنين لو أننا مكثنا في مكان أكثر بريقًا؟

فقلت:

- غاية في الكمال.

كنت بالفعل قد بدأت أشعر براحة الصمت المحيط بنا، فلا ضوضاء سيارات، لا شِجارات على أرصفة الطرق، ولا مراقبة. انتحى "لي" جانبًا، إلى حقيبته، وقال:

- أحضرتُ لكِ هدية.

وأخرج صندوقًا مسطحًا طويلًا من الألوان المائية وكراسة رسم، مربوطين بشريط أحمر.

- قلتِ إن أمك اعتادت الرسم، فقلت قد تودين أن تجربي الأمر. يُفترض أن الضوء جيد في الجنوب، أليس كذلك؟

عندما يُحرم المرءُ الحبَّ أزمانًا، تصبح أدق الإشارات تصريحاتٍ كبيرة، فاغرورقت عيناي بالدموع، ورحت أتظاهر بالعبث بالفُرَش لكيلا يراني.

- لم أرسم منذ زمن، فلا تتوقع أن آتي بالعجائب.

- لا أتوقع أي شيء، بل لستِ في حاجة إلى أن تريني شيئًا.

فتحتُ الكراسة وأجريت أصابعي على الورق الخشن. عقدت عزمي على ألا أنزعج لضيق وقتنا معًا. سأعيش كل لحظة بكل ما فيها، ممتنّةً لكل واحدة منها.

كل تلك الساعات التي أمضيناها معًا في شقة "لي"، كلٌّ في شأنه ولكن في صحبة الآخر، قد جعلتنا نتأقلم على إيقاعاتنا. فبدأنا كل يوم بالقهوة والمطالعة، راضين بالصمت المشترك. وبعد ذلك، نستكشف مسارات عربات الكارو والحقول وراء المزرعة، حيث يقطف هو الزهور البرية، وأعثر أنا على بقعة ظليلة لأجلس وأرسم. وكان "لي" واحدًا من موضوعاتي المفضلة، فحتى في سكونه، يشع نورًا.

وفي آخر يوم لنا، أخذنا الدراجة إلى شاطئ (بُولْيي سير مير)، حيث شمر وأمسك بذراعي يحثني على الخوض في الماء. ثم سحبني، وسحبني، حتى ابتلَّت ركبتاي. ملأتُ كفي ماءً وقذفت به في وجهه، ممازِحةً لِأُبعده، وسرعان ما كنا طفلين يتراشّان بالماء، في معركة ما انتهت إلا وقد أخذ اللهاث منا كل مأخذ. شهقت قائلة:

- هل كنت تصنع هذا مع أخواتك؟

فتوقف "لي" وحدق إليَّ:

- ماذا تعنين؟

- تلعب هكذا في الماء معهن.

وظللت أبتسم، غير مدركة ما الذي أزعجه مما قلته.

- ما كان أبي قط ليسمح بهذا.

تلاشت خفة "لي"، رغم أنه لم يجِب عن أسئلتي. وعاد إلى الشاطئ ثقيلَ الخُطى، وراح ينفض الرمل عن ساقيه.

- فلنعد إلى المقهى الذي مررنا به، سأشتري لكِ آيس كريم.

أحسست أن هناك كآبة تحوم، وكان «لي» غير قادر على الهرب من ظلالها.

يحل الظلام سريعًا في الريف، وتنام ألدون عند غروب الشمس. كنا نقضي المساء في غرفة النوم، تحت الإفريز؛ مكانٌ لم أكن لأختار سواه حتى ولو أحاطت بنا المطاعم والملاهي الليلية. وفي هذه الليلة الأخيرة، استلقى "لي" وذراعه مفرودة على الوسادة ورأسي على ذراعه عند كتفه. كنت بالفعل مرعوبةً من توديعه، وكان إدراكي أني أجرحه –حتى ولو غير عامدة– يزيدني ندمًا. قلتُ، برقة ومن غير أن أنظر إليه:

- اليوم على الشاطئ، قلتُ شيئًا أزعجك...

- ليس ذنبكِ.

- فما الخطب إذن؟

- لا علاقة للأمر بكِ. كل ما هنالك أنك ذكرتِ أختيَّ، فذكَّرتِني.. آخر عهد لي بالشاطئ كنت فيه مع أمي.

رحتُ أصغي إلى إيقاع أنفاسنا، وكانت أنفاسه أسرع من أنفاسي، وأكثر اضطرابًا. قلت:

- ذكريات كهذه لا تتسلل إليك إلا عندما لا تكون مستعدًّا لها.

- كانت هذه آخر مرة أشعر فيها بالسعادة كطفل صغير. وأنا وأمي نتراشّ بالماء بجوار رصيف برايتون بيير البحري.

التزمتُ الصمت، فقد أصبحتُ أعرفه جيدًا، ولن يكون للإكثار من الأسئلة الآن من أثر إلا أن ينسحب خلف درع من المزاح اللطيف.

- أخبرتكِ من قبل أن أبي أرسلني إلى مدرسة داخلية. لا يمكنكِ أن تتصوري فظاعتها. كنت في الثامنة من عمري فحسب، وكنت في حداد على أمي، وفي أول ليلة لي بها ضُرِبت بالعصا لأني كنت أبكي.

كان يسيرًا تخيُّل نسخة أصغر وأكثر صبيانية من «لي». وتألم قلبي من أجله.

- يقول الناس إن الشيوعيين لا يحبون العائلة، فقولي أنتِ لي لماذا يعتقد البريطانيون أنه من التمدُّن أن يُربّي الغرباء أطفالهم؟ وفي مكان مصمم لجعلهم يعانون؟ كنت سأذهب إلى المدرسة في الوقت المناسب حتى لو كانت أمي حية، ولكنها كانت ستعتني بي، ما كانت أبدًا لترسلني إلى هناك.

تلا ذلك صمت طويل، حتى حسبتُ أنه لا يريد الإفضاء بالمزيد، فانتقلت على جنبي لأضع ذراعي على صدره، فقربني إليه أكثر ورحت أنظر إليه كفتى صغير وحيد.

- اختار أبي مكانًا بعيدًا في يوركشاير، كان في الواقع أقرب إلى مخيم عسكري، وكنت على يقين أني سأموت هناك.

تذكرتُ دروسي مع فيلدز، وأمي تدخل علينا فقط لتقبلني، وأبي يبتسم مفتخرًا عندما يعلم بالتقدم الذي أحرزه في دراستي. لقد كان حبهم يطوقني، لا تراه الأعين، ولكن لا محل للشك فيه. لم أُقدِّر قط حجم رعايتهم وحمايتهم لي في صغري. ربما هذا ما جعلني قويةً بما يكفي لتحمل ما حدث لي فيما بعد.

مرَّرتُ يدي على جانب صدر "لي" متتبعةً بروز أضلاعه، كما لو كنت أضمد جراح ماضيه، وقلت:

- لستَ مُضطرًّا إلى الكلام، ولكن يمكنك أن تفعل إن أردت.

وفَعَل؛ فراحَ يصف أوقات البؤس التي مر بها؛ العينات الهزيلة من طعام يكاد ألا يصلح للأكل، وكيف أنه كان ينتشل قطع الثلج من مياه الحمام في الشتاء. ذكرَ تدريبات السير تحت المطر، والعصا التي كانت أداة للعقاب على قائمة لا نهائية من المخالفات كالحديث بصوت عالٍ، أو قلة الكلام، كالنظر إلى أعلى، أو النظر إلى أسفل، وكالبكاء على الوسادة في الليل. حوَّل الحرمانُ معظم الأولاد إلى متنمرين، أو ضحايا يقبلون معاناتهم في صمت. ولكن "لي" نجح بمعجزة في أن يشق لنفسه طريقًا وسطًا، فقد عوّد نفسه أن يفعل كل شيء بمنتهى الدقة، وأن يضبط نفسه على توقعات الآخرين ومنحهم من الإجابات ما يريدون سماعه.

- نظرتُ إلى نفسي كشخصية اختلقتها؛ (لي العجوز المرح). وحتى الناظر توقف عن معاقبتي بمرور الوقت، لأني كنت دائمًا أشكره بعد العقاب، فلم يعد يجد فيه ما يمنحه الرضا.

- الآن فهمت لمَ أصبحتَ اشتراكيًّا.

- كان الناظر سيرتعب إذا سمع ذلك.

قالها وتحركت شفتاه بنصف ابتسامة سريعة، وشعرت بالراحة وأنا أراه يسترد روح الدعابة. فلم يعد هناك متسع من الوقت، وأريد أن نحاول قدر استطاعتنا أن نشعر بالسعادة. ثم قال بصوت ناعم، وبنبرةٍ اعترافية:

- عندما أتيتِ إلى شقتي، ليلةَ تلك الحفلة، سألتِني إن كانت مرَّتي الأولى.

- لم أقصد أن أسيء إليك.

- ذهبتُ من قبلُ إلى مكان عندما كنت في الجامعة، هذا النوع من الأماكن الذي يدفع فيه المرء للنساء مقابل الرفقة. ولكني لم أدرك كم سيكون الأمر مختلفًا مع شخص أحبه.

ألقى بالكلمات بهدوء تام لدرجة أني لم أكن واثقة أني سمعتها على نحو صحيح، ثم استدار ناحيتي وأمسك بيديَّ بيديه.

- تزوَّجيني.

يمكن للصدمة أن تتخذ أشكالًا عديدة، كأن تتسارع دقات القلب، أو أن تطن الأذن بشدة، ولكن لم يعترِني إلا صمت مطبق، كما لو أن العالم قد توقف، ينتظر ردي. فهمست إليه:

- لا تمزح.

- لست بمازح، فالحصول على الطلاق في روسيا سهل، أليس كذلك؟ لقد ظل الناس يقولون هذا في أثناء زيارتي؛ حقوق متساوية للنساء وللجميع.

- ليس الأمر بهذه البساطة.

ركّز عيناه على عيني:

- أنتِ لا تحبين زوجك.

- نعم.

- ولا تريدين أن تعودي إلى موسكو.

- نعم.

فوضع يديَّ على صدره، كما لو أن قوة شوقه يمكن أن تتحول إلى ملامسة.

- أمضيتُ أعوامًا طويلة وأنا أتساءل عما يجب أن أفعل. فسافرت وكتبت وقابلت أصنافًا من الناس، ولكني لم أصادف قط من شعرت أنه يناسبني مثلكِ. وهذه الأيام المعدودة التي قضيناها معًا أرتني ما أريد؛ حياةً بسيطةً، معكِ. فعندما أستيقظ وأراكِ...

ثم علا وجهه شعور بالضيق، ذلك الشعور الذي ينتاب كاتبًا عندما تعوزه الكلمات، وأخيرًا قال:

- أشعر بالأمان.

فهِمت مراده، فهو أيضًا يشعرني وجوده بالأمان. وكقطع من أحجية، ملأ كل منا فراغات الآخر.

- يمكننا أن نذهب إلى أي مكان تشائين، إنجلترا، أو فرنسا، أو أمريكا، لا يهمني. كل ما يهمني هو أن نبدأ بداية جديدةً، معًا.

هل يمكن هذا؟ ولأول مرة منذ تسلَّمت أمر استدعائي إلى روسيا أرى مهربًا. هل سيوافق أليك على الطلاق؟ لا شك أنه غير متيمٍ بي، كما أن زوجةً بخلفيتي الأرستقراطية ليست في مصلحة وظيفته، بل قد يُرضيه أن أقترح أنا عليه الطلاق واتخاذ زوجةٍ من الدائرة المقربة لستالين، فهو أمر سيعينه على الارتقاء والانطلاق بشكل أسرع في حياته العملية.

ثم تذكرتُ وجه أليك في شقتي، عندما راح يهمزني بأسئلة عن "لي". لعل أليك لا يحبني، ولكنه غيور بشكل خطر، ولو عرف أني أهجره من أجل "لي" فلن يتردد في عقابه، بدافع الحقد، بل ربما يجبرني على مشاهدته وهو يعاقبه. أصابني هذا الخاطر بالغثيان، وكان "لي" يبدو كأنه يذبُل في انتظاري، فقال وقد تصنّع اللامبالاة:

- لا تنزعجي، أعرف أني وضعتكِ في موقف صعب.
- يشُقُّ عليَّ التفسير...
- قلت لنفسي لمَ لا أسألها الزواج.. هذا هو كل ما في الأمر.

كما لو أني كنت على درجة من السخافة تكفي لآخذ عرضه على محمل الجد. ثم قال:

- ما رأيكِ في بعض النبيذ الإسباني. قالت المدام إن بإمكاننا تناول البعض منه في المطبخ.

لم أستطِع أن أتركه يرحل، ليس بهذه الطريقة.

- ليتني أستطيع قبول عرضك، أقسم على هذا.
- أتفهَّم ما تقولين. بعض الأمور لا يدَ لنا فيها.

وبعد ذلك حاولت أن أظهر له عمق مشاعري ويدي تتجول فوق جسده الحبيب الدافئ، وفمي يلتقي بفمه في قبلاتٍ لم تطُل قط. أخبرته أني أحبه، مرارًا وتكرارًا، وأخبرني أن أصمت، وشعرت باضمحلال الثقة بين كل نَفَس ونَفَس. هل يعتقد أني أكذب؟ أني سأفضل أليك عليه، بملء إرادتي؟ وعندما أغلق عينيه مستسلمًا للنوم، ظل عقلي يأسره أمل الهرب. نعم، لن يسمح لي أليك أبدًا بالرحيل، ولكن ماذا لو اختفيت بلا مقدمات؟ يمكنني -عن طريق

بارون دي سيفرين ورينيه- أن أتواصلَ مع المخابرات الفرنسية، وقد تعرِض عليَّ الحماية مقابلَ أن أمدهم بمعلومات عن باتلوف وأعمال السفارة الروسية. يمكنني الهرب إلى إنجلترا مع "لي"، وبدء حياة جديدة باسم جديد آخر. ولكني أعرف أني لن أشعر بالأمان في أي مكان أذهب إليه، فأليك لديه مئات من الجواسيس يأتمرون بأمره، ولن يهدأ له بال حتى يعثر عليَّ. وطلبُ المساعدة من "لي" لن يجلب له إلا مزيدًا من المآسي.

في الصباح التالي، ارتشفنا القهوة بفتور ونحن نحزم أمتعتنا، ثم أقلَّتنا مدام جورنيه إلى المحطة بعربتها الكارو، وانطلق القطار والشمس في منتصف الأفق. لم يكن في عربة الدرجة الأولى رُكاب غيرنا، وحسبتُ أننا سننتهز الفرصة لنتودد إلى بعضنا بعضًا، ولكن عندما اتخذت مقعدًا بجوار النافذة، جلس "لي" في مقابلي، وبيده كتاب. قلت لنفسي: لا حق لكِ في الشعور بالألم، فأنتِ من رفضتِه.

وبينما راح "لي" يقرأُ، أخذت أحدق من النافذة، وكلُّ ميلٍ يفصلني عن سكينة الريف. طقطقتْ عجلات القطار كبندول إيقاعٍ يعد الدقائق قبل أن آخذ قطارًا آخر وجهته الشرق، يعيدني إلى حياة لا أعتقد أن بإمكاني احتمالها.

أخرجتُ كراسة الرسم وقلبت الصفحات. حبّاتُ عنبٍ على تعريشة كروم، شجرة عجوز معوجَّة خلف منزل ريفي، جرفُ صخري يعانق الشاطئ، وجهُ "لي" مرسومًا بدرجات شاحبة من الأصفر والزهري. بدت الصور بالفعل كبقايا مفككة من حلم.. حلم جميل، غير حقيقي.

- هل يمكن أن أرى؟

لم أكن أدرك أن "لي" كف عن القراءة. ناولته الكراسة وراح يدقق في كل صفحة، وأخيرًا اقتطع صفحة بها صورة لواجهة المنزل الريفي، كنت قد أضفت إليها بعض التفاصيل ليبدو المنزل أكثر فتنة مما هو عليه، كتلك اللبلابة تزحف على الواجهة.

- فلتأخذ ما شئت.

- تكفيني هذه للذكرى.

وصلنا إلى محطة أُوسْتِرليتز بعدَ حلول الظلام بمدة. الحر لا يطاق، خاصة وقد اقترن برائحة العرق والدخان. قبل أشهر قليلة وصلت إلى باريس مفعمةً بالأمل، وهأنذا أجر الخطى في بؤس صامت. ما أمرَّها من مقاربة! لوّح "لي" لسيارة أجرة ونظر إليَّ نظرة مربكة وهو يقول:

- إلى أين؟

- يجب أن أذهب إلى المنزل.

فابتسم بمرارة، قائلًا:

- لا أعرف عنوانكِ.

راح سائق التاكسي ينظر إليَّ بنفاد صبر. هل كان "لي" ينتظر دعوة مني؟ غمغمت:

- آسفة.

لأدرك متأخرًا الخطر الذي أسير إليه. قد يكون باتلوف في شقتي الآن، ينتظر تفسيرًا لاختفائي المفاجئ. انسللتُ إلى المقعد الخلفي وأغلق "لي" الباب ورائي. وقلت وهو يبتعد:

- سأهاتفك غدًا.

لا أدري سمعني أم لا.

عندما وصلت، كان المبنى صامتًا، وقد بدا أن الجميع في طريقهم للنوم، حتى الأختان بلانشارد بابهما مغلق. صعدت الطوابق الأربعة وكل خطوة تأكل ما تبقى فيَّ من طاقة. دسستُ المفتاح، وفتحت الباب ببطءٍ كأني لا أريد أن أدخل. هيّأت نفسي لرؤية باتلوف جاثمًا على الفراش، منتظرًا. ولكن الغرفة كانت خالية. كان الهواء بها خانقًا بعد أن ظلت أربعة أيام مغلقة، فأسرعتُ بفتح النافذة، ولكن النفحات الضعيفة من هواء المدينة الرطب لم تجلب كثيرًا من الارتياح. أشعلت المصباح فوجدت الأختين بلانشارد قد دسّا قليلًا من المظاريف تحت الباب.

ملحوظة من ميخائيل، بتاريخ السبت: «من فضلك تعالَي بأسرع ما يمكنكِ».

ورسالة من باتلوف: «حذاؤك جاهز عند صانع الأحذية» -كانت هذه شفرةً يطلب بها مقابلته في المقهى في الصباح التالي من تسلُّم الرسالة- وهو بوضوح ما لم أفعله.

وملحوظة أخرى من ميخائيل، أرسلها اليوم: «يجب أن نتحدث. الأمر مهم جدًّا».

رسالتان عاجلتان من ميخائيل لا يمكن أن يعنيا إلا أنه توجد أنباء جديدة بخصوص (الوطني).

ذهبت إلى الحمام على بسطة السلم، وحمدًا لله لم يكن مشغولًا. فتحت الصنبور لأملأ الحوض لأستحم، وعندما امتلأ غسلت ملابسي المتعرقة في الحوض. كان الجلوس في ماء الحمام البارد مؤلمًا أولَ الأمر، حتى اعتدت برودته فشعرت بصفاء ذهن حاد. رحت أحك جلدي وأنا أعمل على خطتي كما أعمل على جسدي. وعندما انتهيت، ارتديت فستانًا نظيفًا، وعلقت ملابسي المبتلة على حبل خارج النافذة، ونزلت إلى شقة الأختين بلانشارد.

لم أسمع أي صوت يصدر من الداخل. الوقت قارب العاشرة مساءً، وقد تكون الأختان العجوزان نامتا منذ زمن. ردَّت سيليستي على الباب بسرعة، فعرفت أنها لم تكن نائمة. كانت ترتدي ثوب نوم أبيض وشعرها مربوط بمنديل. قالت بتعجب:

- ماري! كنتُ قلقة عليكِ فلم نرَكِ منذ مدة.

- كنت خارج المدينة، في زيارة لصديق. أتمانعين في استخدام هاتفك؟

- بالطبع لا.. تفضلي.

أفسحت لي، ودخلت. لم يكن الجو حارًّا تمامًا كما في شقتي بالدور الأخير، ولكنه لم يزل خانقًا. الهاتف بجوار منضدة في المدخل تمامًا. وعلى ضوء مصباح خافت وحيد، رأيت سيلين تجلس على كرسي ورأسها مستند إلى أعلى الكرسي، وتغُطُّ غطًّا خفيفًا. سألتها:

- هل أنت واثقة أني لن أزعجها؟

- لن تزعجيها، فهي تنام مهما كان ما يحدث حولها.

كان غريبًا بعض الشيء أن تظل واقفة بالقرب مني وأنا أطلب من عامل الهاتف أن يوصلني، ولكني لم أستطع التذمر، فالوقت متأخر ولطف منها أن تدخلني ابتداءً.

رد ميخائيل في الرنة الثانية، بصوت متقطع:

- مرحبًا؟

ولمّا أخبرته أني المتصلة قال:

- أين كنتِ؟

بغضب جعلني أضم كتفيَّ باعتذار صامت.

- اضطررت إلى الرحيل عدة أيام.

فتنفس بضعة مرات بثقل، وأخذت أهيّئ نفسي للأسئلة القادمة: لماذا؟ أين؟ ولكنه قال في عجلة:

- لديَّ أخبار عن صاحبنا.

تسارعت دقات قلبي. إنه (الوطني).

- سيأتي إلى المدينة.. غدًا.

كانت سيليستي قريبة بما يكفي لسماع كل ما أقول، فأبقيت صوتي منخفضًا وأنا أقول:

- بهذه السرعة؟

- يجب أن تقابليه. هل أحضره في زيارة لكِ؟

لم أدرِ أكان هذا طلبًا أم أمرًا، فقلت:

- شقتكَ ألطف كثيرًا. ألن تكون أليق؟

- بلى، ولكنها مزدحمة جدًّا.

بالطبع. يريد ميخائيل أن يحمي أسرته من أي صلة بـ (الوطني)، كما أن اللقاء في العلن مخاطرة كبرى. ويعرف ميخائيل أني أعيش في مبنى متهالك في حي قديم، مكان لن يفكر فيه أحد. إن وافقت، فسأحضر اللقاء وسأتمكن

أخيرًا من رؤية (الوطني) بنفسي. فوافقت، وسألته عن الموعد، فقال بعد الظهر. إلا أنه لم يستطع أن يضرب ساعة محددة.

سبق أن أخبرني ميخائيل أن هناك شبكة من المنازل الآمنة، تشكل حلقات من سلسلة بين روسيا وفرنسا، ولم يعرف أحد ممن ساعد (الوطني) أكثر من الدور الذي يقوم به في الخطة. قلت:

- ليكن غدًا إذن.

وضعتُ السماعة، وكانت سيليستي لا تزال في الجوار، فكدت أصيح في وجهها. ألم يكن بمقدورها أن تتركني ولو لدقيقة واحدة حتى أفكر؟ سألتني:

- هل كل شيء على ما يرام؟

تبدل شعوري من الضيق إلى الخجل، فقد تكون سيليستي مزعجةً حقًّا، ولكن لطالما كانت لطيفة معي. فانتزعتُ ابتسامة، وقلت:

- لقد كان يومًا مرهقًا، سامحيني على إبقائك متأخرًا.

فتمنت لي ليلة سعيدة، ولكن كنت بالفعل في منتصف الطريق للخارج، وقد انشغل عقلي بالأحداث الموشكة. ففي يومين سأستقل قطارًا إلى برلين. وقبل هذا أحتاج إلى لقاء باتلوف لأرى إن كان يعرف أي شيء عن مجيء (الوطني) إلى باريس، دون أن أخبره بما عرفت. كما يتعين عليَّ أن أودِّع "لي" وداعًا نهائيًّا مؤلمًا. وخلال أقل من يوم سألتقي بـ (الوطني) بذاته. كنتُ قد أخبرت نفسي مرارًا أنه لا يمكن أن يكون فاسيلي، ولكن لم أستطع منع نفسي من التفكير في أن دور ميخائيل في هذا الأمر قد يكون أكبر بكثير مما أدرك. لو كان (الوطني) هو فاسيلي، فسيضع ثقته بواحد آخر من آل شولكين، أليس كذلك؟

عندما عدت إلى شقتي، عببتُ كوبًا من الماء الفاتر، ثم فتحت حقيبتي. ها هو الفستان الذي ارتديته على الشاطئ، لم يزل الرمل يعانق أطرافه، وقميص النوم تفوح منه رائحة الخزامى و«لي». ألقيت نظرة أخيرة على كراسة الرسم. لا يمكن أن آخذ هذا الدليل على علّاقتي العاطفية إلى موسكو، لا بد من التخلص من كل ما فيها. فأحرقت جميع الصور في حوض الغسيل الخاص

بي، في طقس مهيب، وشاهدتها وهي تتلوى متلاشيةً في حين كانت ذكرياتي تتمزق. لم تكن السعادة المرسومة في تلك الصور إلا وهمًا. ليس من حقيقة هنا إلا هذه الغرفة القاتمة في باريس.

في تلك الليلة، انجرفت من الإرهاق إلى الأرق. رحتُ أتقلّب وأدور وزنبركات السرير القديمة تصر في عظامي وأكتافي. شعرت بالحنين إلى تلك المرتبة المنتفخة في المنزل الريفي. وددت لو أن «لي» هنا ليضع يده على خدي فيريح عقلي المهتاج. ثم فتحت عيني فجأة لأسمع صياحًا وأبواق سيارات لأسمع المدينة وهي تصحو من نومها.

الجو حار والهواء تثقله الرطوبة، ولن يصل زواري قبل الظهيرة، ولديَّ ساعاتٌ خالية. كان نبضي مضطربًا. قد سلَّمتُ بالعودة إلى موسكو وإلى أليك، ولكن الأشهر القليلة الماضية غيرتني. في معظم سنوات زواجي كنت خائفة أُمثِّل دور الزوجة المطيعة المنسحقة. أما الآن فأعرف أن هناك قوًى تعمل ضد السوفييت، تركت نفسي تتخيل ما قد يحدث لو أُطيح بهم. ربما تصبح روسيا أخيرًا الدولةَ التي يحلم بها خالي سيرجي، مكانًا يُعامل فيه الجميع على قدم المساواة. لقد قرر ميخائيل بالفعل أني سأتجسس لصالحه من داخل الاتحاد السوفييتي، ولكني لم أقرر بعد إن كان الأمر يستحق المخاطرة أم لا. فأصبح الأمر كله هل أثق بـ (الوطني) بحياتي أم لا.

أزحت الغطاء الذي كان يغطي نصفي السفلي، وقعدت. إن كان هذا هو اليوم الذي سيحدد مستقبلي، فمن الأفضل أن أستغل كل دقيقة منه.

بدأت بتنظيف الشقة، وإن لم يكن هذا في حاجة إلى وقت، فليس بها الكثير. صفّفتُ شعري ووضعت أحمر الشفاه، عازمةً على أن أبدو في أفضل هيئة. ثم تركتُ رسالة لباتلوف في السفارة من هاتف الأختين بلانشارد، أقول له فيها إني كنتُ مريضةً ولكن سألقاه في مكانه المفضل على الإفطار في الصباح التالي. لم يزل أمامي ساعات من الانتظار، فقررت أن أتمشى قليلًا لأزيح عني القلق. وكأن المدينة بأسرها قد أبطأت من سرعتها، فالناس يسيرون الهوينى على الأرصفة ومحادثاتهم مكتومة، والمتسوقون في المحال إما متكئون على مناضد الحساب وإما يتسكعون في المداخل. توجهت إلى

النهر ووقفت عند الجسر أشاهد الماء في جريانه، فلطالما أراحني تدفقه، كأن صوته همهمات تُطمئن مشغولي البال. لقرون طويلة وتيارات نهر السين تتدفق في مجرى مقدّر، ولعلي أنا أيضًا ينتهي بي الحال وقد وجدتُ المسار الذي قُدِّر لي.

في طريق عودتي إلى المنزل، توقفت عند أحد المقاهي وطلبت عصير الليمون وطبقًا من عجة البيض. ورغم أني جلست على طاولة ظليلة فإن وجهي كان ساخنًا وساقيَّ تشعران بوخز تحت جواربي. كان بجواري رجلان في منتصف العمر يحملان صحيفتيهما في أوضاع متطابقة، ومجموعة من الرجال المسنين يناقشون سباق الخيل وهم يشربون القهوة، وكاتبٌ هاوٍ ينقش في دفتر ملاحظاته بشكل مسرحي. مَن يرَني سيظن أنه يشاهد امرأة لديها ثقة كبيرة بنفسها، امرأةً تتناول الطعام بمفردها في مكان عام. لن يستطيع أي منهم أن يلحظ مزيج الترقب والخوف والأمل يهدر تحت تلك القشرة الهادئة.

لو.. فقط لو أثبتَ (الوطني) أنه يحظى بدعم الجيش فلربما أقتنع بمساندة قضيته. لو سقط الاتحاد السوفييتي فسيُزج بأليك في السجن أو ينفى، بل وقد يُعدم. لو رحل أليك فسأنال حريتي، وأتزوج "لي". مع أني لست على يقين من هذا بعد أن يعرف حقيقتي.

سِرْتُ على مَهَلٍ، عائدةً إلى شقتي، محاولةً تجنب تلطخ فستاني بالعرق. عندما يكون الجو على هذه الدرجة من الحر عادة ما تجلس الأختان بلانشارد بالخارج، أو على الأقل تفتحان الباب الأمامي التماسًا للنسيم. ولكن بابهما مغلق والسلم صامت، والمبنى بأكمله ساكنٌ، يشاركني انتظار ما سيحدث. فكّرتُ في الاتصال بـ "لي"، بل كدت أطرق باب الأختين، ولكن لم يكن لديَّ أي فكرة عما أقوله له.

كل هذا ولم تزَل أمامي ساعات من الانتظار، فقررتُ أن أشغل نفسي، غسلتُ الملاءات، ثم علقتها حتى تجف، أعددت شايًا وانتظرت حتى يبرد إلى نفس درجة حرارة الغرفة وشربته، في عملية مطوَّلة ملأت بعض الفراغ.

حاولت أن أرسم، ولكن لا شيء بالحجرة يلهمني، وأبتْ مخيلتي أن تتزحزح إلى ما وراء الجدران.

وأخيرًا سمعت وقع أقدام على السلم. قلت لنفسي: لا ترفعي آمالكِ، فقد يكون جارًا عائدًا إلى المنزل.. لا غير. علا وقع الأقدام واقترب، وكانت قوية واثقة. هل هي مشية جندي؟ لن يأتي (الوطني) بمفرده، أليس كذلك؟ كنت أرى أنه سيأتي مع ميخائيل، على الأقل. وقلت لنفسي رغم ذلك، قد يكون من الأسلم لهم أن يتحركوا فُرادى، ليسهل إيجاد مهربٍ إن تعقدت الأمور.

تخيلت فاسيلي واقفًا عند مدخل الباب: أخي الأكبر! تعالَ احمِني.

اقشعر جلدي عندما سمعتُ الطرق على بابي. فتحته، فرأيتُ أليك واقفًا على عتبتي.

زوجي هو (الوطني)؟! أم أن زوجي هنا ليقبض على (الوطني)؟!

ظللتُ صامتةً وعقلي يحاول أن يستوعب ما يجري.

- ألن تدعيني للدخول؟

دفعتني نبرته المألوفة باستمتاعها الساخر إلى التحرك، فرجعت للوراء، وتقدم أليك للأمام. تفحص الغرفة بعينيه. ونظرًا إلى صغر المساحة لم يستغرق وقتًا ليتأكد أننا كنا بمفردنا. قلت لنفسي: اجعليه هو من يتكلم أولًا، لتكتشفي ماذا يعرف.

- يسرني أن أراكِ.. لماذا قدِمتِ إلى باريس؟

جلس أليك إلى الطاولة وفرد يديه متجنبًا ابتسامتي العصبية. شعرت بالخطر يحوم حولنا. لم يكن هذا جزءًا من الخطة؛ ما يعني أمرًا من اثنين إما أن ميخائيل قد خُدِع وإما أني خُدِعت.

- هل أنت جائع؟

وتحركتُ ببطء صوب الباب، متابعة:

- يمكنني أن أُحضر شيئًا من السوق لأصنع لك بعض الطعام.

تحرك أليك برد فعل أسرع مما كنت أظنه قادرًا عليه، واثبًا من مقعده ليمنعني من الحركة، قال:

- ألستِ في انتظار زوار؟ (الوطني) وابن عمك ميخائيل؟

سألتُ نفسي، وأنا على هذا القرب من أليك وفي بؤرة نظرته الباردة: كيف يخطر ببالي أن يكون هو (الوطني). أليك بلشفي حتى النخاع. الطريقة الوحيدة الآن لحماية نفسي، وميخائيل، هي أن أتظاهر بأني ما زلت في صفه. فقلت له:

- إن أفزعتَهم وتسببتَ في فرارهم، فلن نعرف أبدًا مَن غيرهم متورط في هذه المؤامرة. دعني أتحدث إليهم؛ فهم يثقون بي.

- وتصبحينَ أنتِ منقذة البلاد. يا لها من بطولة! المشكلة أنكِ كتومة أكثر مما ينبغي. هل يعرف باتلوف شيئًا عن هذا الاجتماع؟

- سألتقي به غدًا، وحينها سأخبره بكل شيء.

- لا أعرف هل أُصدِّقكِ أم لا.

- يجب أن تغادر قبل أن يأتوا. ميخائيل لا يعرف أني متزوجة. أنتَ مَن طلبتَ أن يظل الأمر سرًّا.

سمعتُ صوتًا مكتومًا قادمًا من بعيد، خطوات رجل، ثقيلةً وثابتةً.

- من فضلك، أليك...

- أريد أن أراكِ وأنتِ تمارسين عملك، اعتبريه اختبارك الأخير.

انتحى أليك جانبًا، وواربتُ الباب وأنا أرجو أن يكون لديَّ متسع من الوقت لتحذير القادم. كل ما أحتاج إليه هو ثوانٍ قليلة أشير فيها بيدي أو أهز رأسي. ولكن الأمور جرت بسرعة فائقة. وصل ميخائيل إلى البسطة، وشرعت في حثه على الابتعاد، ففتح أليك الباب على مصراعيه، فإذا هو واقف إلى جانبي. وفزعت عندما توجه ميخائيل مباشرة إلى أليك مبتسمًا بسعادة ومد يده ليصافحه. قال وقد أشرق وجهه:

- لكم تسعدني رؤيتك.

جعلتني ابتسامته المفعمة بالأمل على وشك البكاء. لقد اعتقدَ أن أليك هو (الوطني)، وراح أليك يجاريه، فقال:

- الأمير شولكين، أليس كذلك.

وراح يعبث بميخائيل متظاهرًا بالانبهار، وسقطَ ميخائيل ضحيةً لمهابته. كيف يمكنني الآن أن أحذره وأخبره أنه تمت خيانتنا؟ قال ميخائيل:

- لا أعرف على أي نحو ينبغي أن أخاطبك، بل لا أعرف اسمك الحقيقي.

- أُفضِّل أن يبقى الأمر هكذا، فهو أكثر أمانًا.

أشار أليك إلى المنضدة، ورحت أحوم إلى جانب الباب، أنتظر أن أسمع مزيدًا من الخطى. فعندما يصل (الوطني) الحقيقي يمكننا التفوق على أليك ثلاثة ضد واحد.

- هلّا أعددتِ لنا بعض الشاي، آنسة شولكينا؟

بيدِ أليك الآن زمامُ الأمور، والانصياعُ هو أسهل الطرق لإبعاد شكوكه، فسرت على مهل إلى الغلاية وملأتها بالماء. أخذتُ كوبين من الرف وأخرجت البرّاد. وبينما أقوم بحركاتي الروتينية تلك، راح أليك يدردش مع ميخائيل ويستخلص منه المعلومات بأسئلة يطرحها طرحًا ودودًا: مَن مِن مسؤولي الحكومات الأجنبية وعد بتمويل ثورة (الوطني) المضادة؟ مَن أيضًا يعرف أنه في باريس؟ ما الوعود التي أُعطيت للمهاجرين الروس الساخطين؟ وقال ميخائيل:

- لا نريد أن يعود آل رومانوف إلى الحكم. وقد عبَّرنا عن هذا بوضوح.

بدا أليك محتارًا، وقال:

- سمعت أن الدوق نيكولاي الأكبر منخرط في الأمر.

فقال ميخائيل:

- إنما هو يحب أن يبالغ في أهميته، وهو شخص قوّال لا فعّال.

- بخلافكَ أنت وأصدقاؤك.

هؤلاء الأصدقاء الذين سيطاردهم العملاء السوفييت. خفق قلبي بشدة متحرقًا لوصول (الوطني) الحقيقي. ولكن أليك كان يبدو مرتاحًا بشكل غريب، وبدأت آمالي تتبدد. لماذا لم أدرك الأمر على حقيقته من البداية؟ أليك لا يشعر بقلق لأنه يعرف أن (الوطني) لن يأتي، وإنما يطيل المحادثة بغرض الاستمتاع وليعبث بميخائيل، وبي.

لو غادر أليك هذه الغرفة ومعه دليل على أن ميخائيل يعمل ضد الاتّحاد السوفييتي، فلن يمر وقت طويل إلا وابن عمي مقتول. ولكن ماذا بيدي لأحميه؟ أضرب أليك على رأسه بمصباح المنضدة؟ أم ألوح بسكين المطبخ البارد؟ نستطيع أنا وميخائيل أن نتغلب على أليك إن تعاونّا، ولكن ما من سبيل لأشرح له الخطر المحدق بنا دون أن يسمع أليك. وسألني أليك على بغتة:

- هل تنتظرين شخصًا آخر؟ أراكِ تنظرين صوب الباب!

فقال ميخائيل:

- لم أخبر أي أحد آخر بشأن هذا الاجتماع.

ونظر إليَّ نظرة قلقة، كأني أنا من ينبغي له أن يقلق بشأنه، في حين نظرَ إليَّ أليك بابتسامة ساخرة أشعلت غضبي، فتوجهت لميخائيل صارخة:

- ليس هو (الوطني)! إنه يعمل مع البوليس السري السوفييتي.. يجب أن تغادر، الآن.

فاجئتُ أليك، ولكن لم يكن هذا كافيًا، فقد فوجئ ميخائيل أيضًا، ومنعه الارتباك من التحرك والهرب في ثوانٍ كانت أثمن من أن تضيع، فنظر إلى أليك، ثم إليّ، لا يدري بأينا يثق. تمالك أليك أعصابه وتموضع أمام الباب، ووجّه حديثه إلى ميخائيل:

- إنها محقة. اسمي ألكسندر ولست (الوطني). لا يوجد شخص بهذا الاسم.

فنظر ميخائيل إلى أليك نظرةً حائرة، فابتسم أليك ساخرًا وراضيًا، ثم قال:

- (الوطني) –من البداية– ليس إلا خدعة، قصة طُبِخت في مكتبي لاصطياد الخونة. يوجد روس ساخطون في كل أنحاء أوروبا، يتهامسون بالإطاحة بالحكومة السوفيتية. فرأيتُ أن أنصب فخًّا وأضع فيه طعمًا أصطاد به الحشرات.

سمعتُ ما قال، ولكن أخذ الأمر بعض الوقت لأستوعب معناه كاملًا. لقد أرسلني أليك إلى باريس وهو يعرف أنه ما من مؤامرة هناك. مهمتي الحقيقية، التي لم يخبرني بها أحد، كانت اكتسابَ ثقة ميخائيل والرابطة، حتى إذا ما بدأتُ الحديث عن (الوطني) يصدقون أنه حقيقة. لا بد أنه كان هناك أيضًا عملاء سوفييت آخرون يصنعون شبكة زائفة من المنازل الآمنة والرسائل السرية، يلفقون بها دليلًا على ثورة ليس لها وجود.

نظر ميخائيل تجاهي، بأعين حذرة، ثم ألقى نظرة خاطفة على الباب. هل يرسل إليَّ إشارة؟ سمعت صوت أقدامه وحفيف ثوبه، فخطوتُ خطوة للأمام، أتهيأ للانضمام إليه لعرقلة أليك. ولكن ميخائيل وقف في تحدٍّ، بنظرة من لا يصدق ما يسمع، وقال:

- كاذب!

ها هو كبرياء آل شولكين اللعين يبرز في لحظة من أشد اللحظات حلكةً، فيمنع ميخائيل من الاعتراف بأنه خُدِع، وكأنها وصمة عار على شرفه الناصع، فقال أليك:

- ناديا هي الكاذبة، هل أخبرَتك أنها زوجتي؟

التفتَ إليَّ ميخائيل، والأسى على وجهه يحرق نفسي، ففي تلك اللحظة بدا كأنه يكرهني أكثر مما يكره أليك. ربما أستحق، ففي نظر ميخائيل خيانتي أكبر من خيانته. تمتم ميخائيل:

- لقد اكتفيت من ألاعيبك.

لم أعرف هل يقصدني أم يقصد أليك؟ استدار بغضب وتذكرت أبي، على طاولة العشاء في بريالكو، وقد راح يتصرف كمن يمسك بزمام الأمور بيده رغم أن كل الظروف ضده. أبكتني الذكرى، حتى قبل أن أرى السكين في يد أليك.

وتحولت صيحتي، وأنا أحذره، إلى صرخةٍ صاحبت انغراس النصل في أحشاء ميخائيل. فانهار على الباب. ورأيت نصل السكين الفضي يمتزج بالأحمر، وأليك يسير به على عنق ميخائيل. شلتني الصدمة وعقدت لساني فلم أستطع حتى التفكير في الهرب. ليس لي من مكان أهرب إليه إلا وأليك قادر على الوصول إليه، وقضت وحشيته على أي بادرة مقاومة. قد يقتلني أنا أيضًا، بلا أي تبعات.

وبينما رحت أحاول مضاهاة ميخائيل الذي أعرفه بهذا الجسد المذبوح الخالي من الحياة، تعامل أليك مع آثار الجريمة بمهارة وخفة، فمسح مقبض السكين بمنديله وطرحه جانبًا، فانزلق على الأرضية تاركًا خيطًا من الدماء عليها. ثم طوَّف الشقة متفحصًا أغراضي بعيني خبير. لم أتحرك من مكاني حتى الآن. سحب حقيبتي من أسفل السرير وراح يطرح ثيابي وأدوات زينتي بها. قلتُ بصوت مرتعش:

- ماذا تفعل؟

- سنرحل.. يوجد قطار متجه إلى لوكسمبورج خلال ساعة، ومن هناك سنتجه إلى ألمانيا.

- الآن؟

فأغلق الحقيبة واستدار إليَّ بهدوء مدير يلقي تعليماته لسكرتيرته، وقال:

- ألديكِ أعمال أخرى ملحة؟

حاولتُ، مذعورةً، أن أجد مبررًا للتأجيل، فقلت:

- توجد أختان بالأسفل، وكانتا لطيفتين للغاية معي، وأريد أن أودعهما.

- الأختان بلانشارد؟

كيف يعرف اسميهما؟ فسَّر أليك قوله:

- لقد دفع لهما باتلوف ليراقباكِ، في إجراء أمني إضافي.

تذكرت سيليستي، وهي تعطيني البريد، وسيلين، وهي تسألني على استحياء عما كنت أفعل في ذاك اليوم. سيدات لطيفات غير ضارات، والآن أعرف أنهما كانتا تراقبانني طيلة الوقت.

- كان المفترض منهما أن يبلغا عن كل زوارِك، ولكن يبدو أنه لم يكن هناك من يزورك.

حمدًا لله أنّي لم أدعُ «لي» إلى زيارتي قط. وسألت نفسي، بشعور عابر من الشفقة على النفس، عما سيظن عندما أختفي؟ تمتمتُ:

- باتلوف، يجب أن نقابله قبل أن نرحل.

- لقد استُدعي إلى موسكو. يبدو أن رؤساءه لم يُرضِهم أداءه هنا. كان يقضي أكثر مما ينبغي في الشرب وتدليل العشيقات، وأقل مما يلزم لمتابعة عملائه. وأوصيت بأن يتلقى دورةَ تعليم جديدة.

هل يعني هذا إلحاقه بمعسكر عمل؟ أم تعذيبَه؟ لا يوجد اختلاف كبير، فعلى كل حال سيُعاقَب باتلوف بسبب كذبي، وها هو مزيد من الشعور بالذنب يثقلني. قال:

- دعيني أخبركِ بما هو على وشك الحدوث؛ هاتان الأختان العجوزان ستريانك تغادرين المبنى الليلة. وغدًا صباحًا سوف تأتيان إلى شقتكِ لتجداها غير موصدة، وتكتشفا جثة ميخائيل، وتتصلا بالشرطة. وحينئذٍ لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى تكتشف الشرطة ما جرى هنا. الشقة التي قُتِل بها ميخائيل شولكين تخص امرأةً تُدعى ماري دوفال. وسوف تُنشر صورة جواز سفرها في الجرائد، ويخبر مصدرٌ في السفارة الروسية الشرطةَ –بشكل غير رسمي– بأن الآنسة دوفال هو اسم مستعار لعميلة روسية سرية، ثم ينتشر النبأ، وينقلب أعضاء الرابطة الثقافية الروسية ضد بعضهم بعضًا، متسائلين مَن منهم كان يعرف حقيقتكِ، ومَن منهم لم يعرفها. لن يكون هناك المزيد من المؤامرات، فلن يثق أحد بأحد. وهكذا تتداعى القوى المقاوِمة للاتحاد السوفييتي.

وفقًا لرينيه، تعرف المخابرات الفرنسية اسمي الحقيقي ويعرفون مَن هو زوجي، ولن يستغرق الأمر وقتا طويلًا حتى يحكموا بأني قادرة على ارتكاب جريمة قتل.

واصل أليك:

- يمكنكِ أن تحاولي الهرب، أن تنسلّي مبتعدة ونحن في محطة القطار، أو... أيًّا كانت الخطة التي تدبرينها في رأسك الآن. ولكنّ لدينا بالفعل نسخًا من صورة جواز سفرك، جاهزةً للتوزيع، ستنشر صورتك على صفحات كل جريدة بالمدينة. وستكونين بصفتك مشتبهًا به في جريمة قتل، هدفًا لمطاردة واسعة النطاق، ولن يطول بكِ الوقت حتى يُقبض عليكِ. فهل حقًّا تفضلين سجنًا في فرنسا على شقتنا في موسكو؟

وددت لو أقول «نعم» فقط لإغضابه، ولكن تلك الاستقلالية التي بنيتها في باريس كانت تذوي، موهنةً قواي ومخرسةً كل احتجاج. وفي تلك اللحظة أدركتُ أني لست بالبطلة التي تضحي بنفسها. لم أكن إلا إنسانةً، تتعلق بآمال الحفاظ على حياتها.

- أريد الذهابَ إلى المنزل، ولن أسبب أي نوع من المشكلات.

ألقيتُ نظرةً أخيرةً على الحجرة التي كانت في يوم من الأيام ملجئي وملاذي، وقد احتضنتُ جسد ميخائيل كقطعة مركزية حجبت كل شيء حولها. لاحظت قميص نوم معلقًا على الحبل خارج النافذة، وقررت أن أتركه، أثرًا مرتعشًا تَبقّى من ماري دوفال المراوغة.

ماذا سيظن "لي" عندما يقرأ الجرائد ويرى أن المرأة التي أحبها قاتلةً كاذبة. ستجد الشرطة طريقها إليه عاجلًا أو آجلًا، فماذا سيقول لهم؟ قد يحاول أن يقلل من قوة علاقتنا، فيقول إنه لم يعرف عني الكثير، وإني كنت أعمل لديه وحسب. أو لعله ينتهز الفرصة ليجتذب الأضواء إلى عمله، فهو صحفي قبل كل شيء، فتخيلت العنوان: «عشيقتي السوفيتية السرية».

لم أعتقد حقًّا أن "لي" قد يفعل مثل هذا، ولكن أنّى بمعرفة ما يمكن لشخص آخر أن يفعل عندما تتحطم أوهامه؟

تناولتُ معطفي المعلَّق خلف الباب، ووورائي بخطوات قليلة أليك يحمل حقيبتي. خرجت من الشقة، تاركةً باريس ميمِّمةً شطر مستقبل مقفر.

لندن
1938

إلى: روجر بالانتري

من: مدير المخابرات السرية

أعلمتُ مكتب رئيس الوزراء هذا الصباح أن التحقيق في قضية (السيدة الحمراء) أُغلِق رسميًّا. لم أحاول أن أخفي خيبة أملي في افتقار فريقكم لتحقيق النتائج المرجوة. فخمسة من أفضل رجالنا، عملوا لأشهر، لم يستطيعوا أن يثبتوا إلا أن أكبر عميلة للاتحاد السوفييتي قد أعجبها رخاميات إِلْجِين بالمتحف البريطاني. لم أستطع أن أخبر رئيس الوزراء عن سبب مجيء السيدة الحمراء للندن ولا إذا ما كانت حققت ما جاءت من أجله أم لا. لم أستطع معرفة إذا ما كانت قد اتصلت بمواطنين بريطانيين يعملون لمصلحة الاتحاد السوفييتي أم لا. لم أستطع على وجه اليقين أن أحدد إذا ما كانت وفاتها حادثًا عارضًا أم جريمة قتل. ورغم ما تلقيته من تقريع قاسٍ، فقد دافعت عن سمعتنا قدر استطاعتي.

وشخصيًّا، أعُدُّ هذه الكارثة واحدةً من أكبر إخفاقات الوكالة. في مثل هذه الحالات، ولكي يُنظَر إلينا كمن يتعلمون من أخطائهم، من الأفضل تلقّي دورة في التدبير المنزلي. أترك لك الأمر لتحدد أيًّا من فريقك أصلحُ كبشًا للفداء.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

موسكو

1938

يمضي الوقت على نحو مختلف في السجن، حيث لا نوافذ ولا ساعات ولا أمل. أفضل تخمين لي هو أنه قُبِض عليَّ منذ بضعة أشهر، ولكن لا سبيل للتأكد من هذا. ضوء زنزانتي يجيء ويذهب بشكل لا يمكن التنبؤ به، لا علاقة له بالنهار ولا بالليل. والنوم يأتي مِزقًا مِزقًا؛ فلا راحة أبدًا. قد أغفو دقائق معدودات أو ساعةً إلا أني دائمًا ما أصحو أرتجف وقد غمرتني الكآبة، فما زلتُ هنا، وحيدةً مهجورةً، لا يلهيني شيء عن خيالاتي. يا لها من مفارقة قاسية أن تدرك أن عقلك قادر على أن يصنع من المخاوف ما يفوق ما يصنعه معذبوك.

بل غالبًا ما انتابني شعور بالراحة كلما صرَّ الباب منفتحًا، وأتى حارس يسحبني سحبًا لجلسة من جلسات التعذيب، فحينها فقط يمكنني رؤية أشخاص آخرين، حتى لو راحوا يهزؤون بي. وخلال ما كانوا يدعونه بجلسات العقاب، لم يكن هناك من مكان للخواطر البائسة، لا مجال حينئذٍ إلا لخاطر واحد؛ البقاء. اعتدت أن أقول لنفسي: سيمر كل هذا، دائمًا ما يمر. ثم أعود مترنحةً إلى زنزانتي، أئنُ وعيني على الراحة الموشكة؛ فرغم الألم، دائمًا ما أنام جيدًا بعد جلسات التعذيب، في بادرة طيبة منحنيها جسدي، ليتعافى.

لا أعلم شيئًا عمّا يجري خارج الأسوار أو حتى في الرواق، معزولة عن العالم ومعزولةً أيضًا عن مكاني به، لم أعد ناديا أنتونوفنا سيميلكوفا. لم أكن إلا حزمة مهترئةً من اللحم والعظم، كومةً من أجزاء محطمة. «قاومي!»، هكذا كان عقلي يحثني، قبل أن يتغلب الألم والحيرة. اعترفت بكل شيء، اعترفت حتى بجرائم لم أسمع بها. لقد حكموا عليَّ بأنّي مذنبة، فعلامَ الجدل؟

عادةً ما كان بين الجلسات وقت، وكنت أقدره بمراقبة تغير لون الكدمات على جلدي. وعندما يأتي حارس جديد ويفتح الباب في اليوم التالي لإحدى الجلسات صائحًا بي لأخرج، كنت أخرج باستنتاج واضح؛ سأُعدم اليوم. ليته يكون ضربًا بالرصاص، فهذه –على الأقل– ميتة سريعة. كنت أُجري أصابعي في شعري أضبطه، وأسوّي كذلك هندامي، عازمةً على مواجهة حتفي بلا خوف.

كان على سترة الحارس دبوسٌ حديدي، علامةٌ لم أتمكن من فهم مغزاها. قادني في الرواق ومررنا بحجرة كان مُعذِّبيَّ بها يناقشون أمورهم. مررنا بعدد قليل من الأشخاص، التصقوا بالحائط ليفسحوا لنا الطريق. قادني الحارس من خلال باب وصعد بي سُلّمًا. أبطأتني شدة الجوع والضعف، فوصل هو إلى أعلى السلم وما زلت عند أقل من منتصفه، فنظر إليَّ عابسًا نافد الصبر.

واصلنا طريقنا نحو بقعة من السجن لم أذهب إليها من قبل، بها مكاتب وآلات كاتبة وسماورات شاي. مكتبٌ هذا، لا ساحة إعدام. ورغم إدراكي لذلك، فإن روحي المنسحقة عاجزة عن تصور أي بارقة من أمل. على الأغلب أُحضِرت إلى هذا المكان لتوقيع اعتراف مكتوب، فآلة قاتلة كآلة ستالين يلزمها بعض الأوراق الرسمية.

أدخلني الحارس إلى حجرة قاسية بها مكتب وكرسيان متواجهان، ألقيت بنفسي على أحدهما ممتنةً لمنح قدميَّ المنهكتين شيئًا من الراحة، فقد جُلدتا بالخراطيم في اليوم السابق، وما زال صدى كل ضربة يتردد فيهما.

مضى الحارسُ، وراح عقلي يعتمل، متسائلًا عما سيحدث الآن. أهو اجتماع؟ أم لونٌ جديد من ألوان العذاب؟ وبعدما بدا كأنه زمن طويل، ولعله لم يكن إلا عدة دقائق، انفتح الباب من خلفي، ودلف إلى الحجرة رجلٌ يأخذ الصلع من رأسه، ذو عوينات مستديرة. عرفته على الفور، فهو الرفيق مولوتوف، رئيس مجلس مفوضي الشعب، أحدُ أهمِ كاتمي أسرار ستالين، رأيته في الأحداث التي ينظمها الحزب ولكني لم أتحدث معه إطلاقًا. ما أعرفه عنه فَمِن أليك، وكان أليك يغار من قوة نفوذه. كان يقول عنه: «هذا المتملق

القذر» أو «لا يمكنكِ أن تصدقي ما فعله هذا الوغد الماكر مولوتوف». لعلي هنا لهذا السبب، فلا شيء يبقى سرًّا في موسكو السوفيتية، وتلك الإهانات لا بد أنها قد شقّت طريقها لآذان صاحبها. سأدفع ثمن إساءات زوجي.

جلس مولوتوف أمامي ووضع مجلدًا على المنضدة، وبدا كمحاسب يراجع قوائم آخر العام، لا رجلًا وقَّع بقلمه مذكرات اغتيال لمن كانوا يومًا أصدقاء له. حكى لي أليك بعض تلك القصص، أيضًا.

- رفيق سيميكلوفا، لا أعتقد أننا التقينا من قبل، ولكني كنتُ أعرف زوجكِ.

قلت لنفسي: «كُنتَ؟»، فسألته:

- هل مات أليك؟

فأومأ برأسه. اسمٌ آخر أُزيل من القائمة. كنت أتوقع هذا الخبر، ولكن صدمني تأكيده على هذا النحو العابر.

- تقول التقارير أمامي أنكِ متعاونة، ولكن غير ذات فائدة كبيرة.

- لقد أخبرت رجالكَ بكل شيء أعرفه.

هل كان من الخطأ قول هذا؟ لو صدَّق أني لا أملك مزيدًا من المعلومات النافعة، فلا معنى لهذا إلا أنه لا حاجة إليه بي، فقلت:

- أنا واثقة أنه توجد أشياء أخرى سأتذكرها بمرور الوقت.. أشياء أخبرني بها أليك...

فقاطعني:

- اعتراف الرفيق سيميلكوف كان اعترافًا مفصلًا تمامًا.

حاولت ألا أفكر في سبب قيامه بهذا. ألا أفكر فيما لا بد أنهم فعلوه به ليحصلوا على مثل هذا الاعتراف. وتابع مولوتوف:

- وقد أدان أخوكِ فعلتك كذلك.

شعرت بألم الخيانة، لكن للحظات قليلة. فلدى فاسيلي أطفال، ونأيه بنفسه هو السبيل الوحيد لحمايتهم. وأخيرًا صرّحَ:

- لقد استدعيتكِ لشأن آخر، فرصةٌ لأن تثبتي ولاءك في خدمة الاتحاد السوفييتي إثباتًا لا شك بعده.

كانت الساعات القاسية من العزلة والظلمة قد نالت من كفاءة عقلي، فلم أستطع أن أحدد إذا ما كان يعبث بي أم يقدم لي عرضًا حقيقيًّا. مال مولوتوف أمامًا، واضعًا مرفقيه على المنضدة، وعيناه تبرقان وراء عدسات نظارته، وقال:

- أخبريني بكل ما تعرفين عن "لي كوبر".

ظللتُ طوال الاثنتي عشرة عامًا الماضية أجتهد لئلا أفكر في "لي". وفي أثناء الرحلة الطويلة شبه الصامتة من باريس، كنت أتخيله وهو يفتح جريدةً ليرى بها صورتي. أتخيل صدمته وهو يكتشف أني قاتلة، وأقول لنفسي هذه هي الصورة التي سيظل يذكرني عليها من ذلك الحين وللأبد. ستتلاشى كل ذكرياته السعيدة لمرأى دماء ميخائيل. وحتى لو جمع بيننا القدر ثانيةً –ولم أرَ أملًا في هذا– فلن يجد لي مبررًا ليصدق بأني بريئة، فكثيرًا ما كذبت عليه.

أصابني الأسى على ميخائيل بمزيد من الألم، فتذكرت أمه وأخواته، والعجائز النبلاء في رابطة الثقافة الروسية. هل صدَّقوا حقًّا أني مَن قتلته؟ وحتى لو اعتقدوا أنها كذبة اصطنعها السوفييت.. فقد خنت ثقتهم، ولولاي ما كان ميخائيل ليموت.

قبيل عبورنا الحدود إلى روسيا، كان اليأس قد أوشك على التملك مني، فسلسلة من الذكريات تشدني إلى باريس شدًّا، ويزداد ألم القيود ويتعمق كلما ابتعدت. إن العودة إلى موسكو مأساة في حد ذاتها، ولن أتحملها وأنا أحمل هذا الشعور الخانق بالذنب، فأجبرت نفسي على النسيان. ناديا التي كانت في باريس قد ماتت، كما مات ميخائيل. ما من سبيل للبقاء إلا بعدم النظر إلى الوراء.

لم أشُكَّ في أن أليك سيعاقبني، فلديه ما يدل على أني كنت أحجب أسرارًا عن باتلوف. لديه أيضًا دليل على أني تعاطفت مع ميخائيل ومن تآمروا معه. يمكن لأليك باتصال هاتفي واحد أن يلقي القبض عليَّ وأن أعدم بتهمة

الخيانة. وحتى لو لم يكن مستعدًّا للتمادي إلى هذه الدرجة، فهناك طرق أخرى أكثر براعة ليذيقني المعاناة. يمكن أن يطلب الطلاق ويعمل على فقداني وظيفتي؛ ما يعني وضع نهاية لتخصيص السكن ولحصص الطعام كذلك. سيتعين عليَّ، إذا فعل هذا، أن أفتش عن فضلات الطعام، كالمنبوذين. ولكن عندما وصلنا إلى شقتنا بموسكو، وكانت على نفس الحال الذي تركناها عليه، أخبرني باقتضاب أنني عُيِّنتُ في وظيفة جديدة، متوليةً أمر الأرشيف في مكتبة الولاية. لا مزيد من الترجمات الخارجية، ولا اتصال مع العالم الخارجي. أخبرني بهذا وقال إنه مرهق وذهب إلى الفراش.

ولأيام طويلة، أو لأسابيع، ظللت أنتظر حلول المصيبة، ولكنها لم تَحُلّ. سارت حياتنا الزوجية سيرًا عاديًّا، فكنتُ الزوجةَ الهادئة الخانعة، وكان أليك يتعامل معي ببرود، ولكن أيضًا بأدب. لم نتحدث عن باريس إطلاقًا. تظاهرتُ بالامتنان، وتظاهرَ بالرضى. ضَعْ قناعًا مدة كافية، وسيصبح طبيعةً ثانية لك، شيئًا مشابهًا للحقيقة. أمضيت أيامي كورقة شجر على صفحة النهر، يحملني تيار الروتين اليومي، يبقيني على السطح ويحميني من السقوط في الأعماق. بدأت أرسم مجددًا، وكان الرسم مصدرًا للتلهي عندما تحاول الخواطر غير المرغوب فيها أن تشق طريقها إليَّ. وفي بعض الليالي تطلَّب الأمر كأسًا أو كأسين من الفودكا لإسكات تلك الخواطر.

في سنة 1931، خُصِّصت شقة لأليك في دار الحكومة، مجمع سكني ضخم للنخبة من أعضاء الحزب. كانت الشقة –رسميًّا– ملكًا للدولة، ولكني فعلت كل ما يمكنني لجعله منزلًا مريحًا، فغطيت الجدران بالصور وملأت أرفف الكتب بالمقتنيات المفضلة. وفي زاوية من غرفة النوم هيأت مكتبًا صغيرًا كمساحة عمل. كانت الشقة الجديدة فرصةً لبداية جديدة، وقررتُ أنَّ أفضلَ طريقة لتحقيق هذا هو إنجاب طفل.

ارتأيت أن الأمومة من شأنها أن تجعل المستقبل أقل كآبةً، فستمنحني شيئًا من الأمل، وتعلمني نوعًا جديدًا من الحب. لم تكن لقاءاتي الحميمية مع أليك كثيرة، فشرعتُ في بذل مزيد من الجهد، على أمل الحمل، ولكني لم أحمل قط. لا أدري أكان هذا بسبب ترددي الذي لم أُقِرَّ به قط، أم لِعلّة جسدية

لم تُشخَّص، وأليك يرفض الذهاب إلى الطبيب، مقتنعًا أنه -إن كانت توجد مشكلة- فهي لا تخصه. وراحت دوامة اليأس توسع من الفجوة بيننا، وأصبح الجنس مرتبطًا بالفشل، وبدأ أليك يصد محاولاتي للتودد إليه، فانطويت أكثر، وبمرور الوقت، توقفنا عن المحاولة بالكلية، سعيًا وراء راحتنا المشتركة. لم أعد مضطرةً إلى التظاهر باستمتاعي بعلاقتي معه، وارتاح هو مما كان يقوم به كواجب مُجهِد. غلا حزني، ثم فتُر. كنت أعتقد أن لأليك غرامياته، ولكني لم أسأل، لأني لم أهتم، فاللامبالاة أنتجت نوعًا خاصًّا من الحرية.

وبحلول منتصف الثلاثينيات، كنت أعيش ما سيراه أي روسي حياةً مميزة؛ أشاهد الأفلام في سينما ملحقة بالمبنى، وألعب الكوتشينة مع زوجات أعضاء الحزب الأخريات، وبمقدوري أن أتسوق في محال خاصة، وأن أتناول من الطعام قدر ما أريد. ولكن كنت أشعر بالوحدة في غياب مَن يمكن أن أفضي إليه بأسراري. زرت خالي سيرجي بين الحين والآخر وحاولت إقناعه بالانتقال معي إلى موسكو، ولكنه كان دائمًا ما يرفض. فسانت بطرسبرج - كما لم يزل يدعوها سرًّا- هي بيته، ولم يكن عنده من حافز ليبدأ بداية جديدة. واصل الكتابة مستمتعًا بدوره بوصفه رجل دولةٍ عجوزًا صاحب أعمال أدبية اشتراكية ومرشدًا لشباب الفنانين. وعندما مات فجأةً خلال النوم، لم أرَ ميتته على هذا النحو إلا معروفًا أخيرًا يسدينيه، موت سريع، بلا معاناة. فمهما افتقدته، لم أكن لأضِنَّ عليه بمثل هذه النهاية الهادئة.

تجنب أخي أيضًا موسكو، وضاعف بعدُ المسافةِ بيننا من تباعدنا العاطفي المتأصل. أسَّس فاسيلي حياةً جديدة على بُعد ألفي ميل، في طشقند، حيث يُدرِّس في الأكاديمية العسكرية. تزوج من امرأة من طشقند وأنجب منها أربعة أطفال. كانوا سعداء، كما ظهر في الصور التي أرسلها فاسيلي، ولكني لم أرَ أيًّا من أبنائه أو بناته قط. آلمتني رسائله القصيرة كما آلمني أنه لم يدعُني إلى زيارته في يوم من الأيام، ولكني حاولت تجاهل هذا، فأنا أعرف أن فاسيلي لا يريد أي شيء يربطه بأمور السياسة، ولن يجلب له كونه صهرًا لألكسندر سيميلكوف، إلا ذلك النوع من الاهتمام الذي يعمل على تجنبه. لقد نشأت وأنا أنظر إلى فاسيلي كمثال كبير، ولكني حميته كثيرًا، أيضًا. فبينما

كنت أموت جوعًا، كنت أرسل له الطعام في سجنه، وموافقتي على الزواج من أليك كانت -إلى حد كبير- لينقذ أليك حياته، وكنت أخشى مما قد يفعله به إن قلت لا. ولحين من الزمان، في باريس، آمنتُ بأن أخي ذلك النوع من الأبطال الذي تتخيله الفتيات؛ الوطني المخلص الذي يهبُّ لإنقاذ بلاده. ولكن روسيا قد تغيرت عما كانت عليه حين كنا أطفالًا، ولفاسيلي عائلة جديدة، وولاؤه الآن لها.

عرفت من أليك أنه توجد اضطرابات في الحزب، شعور دائم بأن هناك مَن يراقب كل عضو. اتهامات، ثم محاكمات. وكلُّ مؤامرة تُحبَط تكشِفُ مؤامرةً جديدة. وعندما أُلقِي القبض على أول مجموعة من البلاشفة البارزين.. دُهِشتُ، إلا أني لم أقلق كثيرًا. فالدليل واضح، كما أنهم قد اعترفوا. ثم جاءت المزيد من المحاكمات، وكانت الدلائل أقلَّ نصوعًا. تُهَمٌ لا منطق بها، نظرًا إلى ما أعرفه عن الرجال الذين اتُّهِموا بها. ورغم كل ذلك، فالجميع يعترف. لا يمكن أن يجتاز تلك الأوقات العصيبة إلا رجالٌ بمكر وقسوة مولوتوف. أما أليك فكان أقل قدرة بكثير على التأقلم مع مثل تلك الأحوال، ففي يقينه المشبع بالكبر، كان يحسب أن سنوات خدمته للبلاشفة ستحميه. لم يدرك أن ولاءه للقضية سيُقاس بولائه لستالين؛ فقيسَ، فلم يكن كافيًا.

جاؤوا لإلقاء القبض علينا في أواخر فبراير عام 1938. عاد أليك إلى البيت متأخرًا، منهكًا. كنت راقدة في فراشي، أوشك على النوم، ولكني سمعت أنفاسه المتعبة وهو يخلع ثيابه. ألقى بجسده المرهق على الفراش إلى جواري. لو كان زواجنا مختلفًا لاستدرتُ وسألته كيف كان يومه، ولربما حينها يضع ذراعه على صدري ويخبرني، ولكني اكتفيت بالصمت. وعندما نمت فعلًا، كان نومي عميقًا لدرجة أني استغرقت بعض الوقت لأدرك أن يدًا تهزني ممسكة بذراعي.

- انهضي.. هيا معنا!

كانت الأصوات النابحة صارخةً تمامًا كالمصابيح التي أُضيئت كلها. غصّت غرفة نومنا الصغيرة برجال الشرطة، وكلهم يصيح. لمحتُ أليك يحتج، ولكن الرعب أخرسني. سحبت بلوزة وتنورة ووضعتهما فوق قميص نومي

وأنا أرتعش خدرةً غيرَ واعيةٍ، من أثر النوم. وفي حين صرخوا في وجهي يتعجَّلونني، ترددتُ أي حذاء ألبس، القديم ذي النعل البالي حتى لا أحزن إن فسد؟ أم أفضل أحذيتي، وأمتنها، حتى يتحمل؟ كيف لي أن أقرر وأنا لا أعرف إلى أين أذهب؟

كانت عملية القبض علينا فوضوية، عن عمد، عمليةً يقصد منها الإرباك وبث الرعب في الأنفس. لا بد أن أليك على دراية بما سيجري أفضل مني بكثير، ولكنه لم يُمنح أيَّ فرصة لتحذيري. اخترت الحذاء الجيد، وربطت الإبزيم، وعندما وقفتُ، كانوا قد مضوا بأليك. سحبني رجلان انغرزت أصابعهما في عضدي، ولم ترتخِ قبضتهما إلا بعد أن وضعاني في مؤخرة سيارة سوداء، وجلسا عن يمين ويسار، في صمت مُرعب. وعندما وصلنا إلى السجن، اصطحباني إلى زنزانتي مباشرة.

لقد أخطأتُ بارتداء الحذاء الجيد، فقد أخذوه مني في أول ليلة، وتركوني حافية. ربما أعطوه لزوجة عضو من أعضاء الحزب، كهدية غير متوقعة، وربما سترتديه هي أيضًا عندما يجروها إلى زنزانة مجاورة.

طالت أيام سجني لتستحيل إلى أسابيع، راح عالمي ينكمش إلى أربعة جدران رمادية، تنطمس فيها المعالم الفاصلة بين ما هو ماضٍ وما هو مستقبل. والآن واحدٌ من أقوى الرجال في روسيا جالس أمامي، وحياتي بين يديه. إن كان مولوتوف يريد أن يعرف ما صلتي بـ «لي» فقد أصدُقُهُ القول، فهذا أسهل من الكذب، فقلت:

- أقمتُ علاقةً مع «لي كوبر» في باريس، سنة 1926.

ظلت نظرته ثابته، ولكن صمته اللحظي جعلني أشك أني فاجأته، فسألني بنبرة عادية:

- لماذا؟

أول ما خطر لي أن أقول: لأنني أحببته. ولكنها بدت إجابةً مبتذلة. هذه المشاعر في سُبات منذ زمن بعيد، حتى إني لم أعد أثق أنها حقيقية. وأخيرًا قلت:

- رأيته وسيمًا.. وأعجبتني ابتسامته.

- هل دخلتِ هذه العلاقة بتوصية من زوجك؟

فهززت رأسي، وقلت:

- لم يعرف أليك بالأمر، أو على الأقل هذا ما أظنه، فما تكلمت أنا وهو عنه قط.

دوّن مولوتوف ملاحظة سريعة في إحدى أوراقه، فيما بدا لي كحركة يقوم بها ليجعلني أنتظر، ثم قال:

- هل تحدثتِ مع السيد كوبر عن زوجك؟ وهل كان يعرف مَن هو؟

- لا تدخل النساء في علاقات غرامية ليتحدثن عن أزواجهنّ.

فابتسم ابتسامة خفيفة، وعيناه لم تزل تبرقان كبلورتين من الثلج خلف نظارته.

- لقد حرصتُ كلَّ الحرص على ألا أناقش عمل أليك أو أذكر أني متزوجة بمسؤول من مسؤولي الحزب.

ثم تذكرت مفكرةً لي، وقوائم الأسماء عليها، وأيضًا التهم الغامضة الموجهة إليَّ، فقلت:

- حقًّا قد سألت نفسي إذا ما كان السيد كوبر أكثر من مجرد كاتب، فمن الجائز أن تكون الحكومة البريطانية قد جنَّدته ليتجسس عليَّ.

ثم ساد صمت طويل، ولم يكن هناك ما أخسره بمواصلة الحديث، فقلت:

- هل هذا صحيح؟! هل السيد كوبر مخبر سرِّي؟

فهز مولوتوف رأسه إيجابًا، وقال:

- بل أكثر من ذلك؛ فقد عُيِّن عميلًا للمخابرات البريطانية مباشرةً بعد زيارته الاتحاد السوفييتي في 1922. وكان رجلهم الأول في باريس عندما كنتِ هناك، والآن يعمل مع رئيس وكالة المخابرات السرية في لندن.

كان جسدي أوهن من أن ينفعل منصدمًا كما يقتضيه الحال، ولكن الألم راح يسري فيه ببطء وأنا أحاول أن أستوعب أن «لي» كان يستهدفني من أول يوم، فيبتدع محادثة ماهرة في الحفل الموسيقي، ثم يعرض عليَّ العمل معه، ثم يغازلني بالقدر الكافي لاصطيادي. وكنت أحسب أني في منتهى الحرص! كنت، في أسوأ تقديراتي، أشك أنه يبلغ عني لمصدر في السفارة البريطانية، أما أن يكون هو من يدير العملية كلها، فهذا ما لم أتصوره قط. لا بد أنه كان يعلم بشأن أليك طوال الوقت، حتى في تلك الليلة التي سألني فيها الزواج، لقد كادت حقًّا تلك الحيلةُ أن تفلح معي.. ولكني لم أنتبه للفخ الذي نصبه لي مولوتوف حالًا، فقد اعترفت بإقامة علاقة مع جاسوس بريطاني، جريمةٌ كافيةٌ لتبرير إعدامي.

- لم ترَي السيد كوبر أو تتكلمي معه منذ صيف عام 1926؟

فهززت رأسي بالنفي. هل يأمل أن أورط نفسي أكثر من هذا؟

- هل تعتقدين أنه سيرضى أن يراكِ، إن طلبتِ رؤيته؟

كان سؤاله غريبًا، حتى إني لم أستطِع إخفاء انزعاجي، وقلت:

- ولكنه يحسب أني مجرمة قاتلة.

- لعل هذا يجعله أكثر فضولًا للحديث معكِ.

كوّم مولوتوف الأوراق أمامه في حزمة، ووضع يديه فوقها، كمحامٍ يلخص قضيته، وقال:

- العلاقات بين الاتحاد السوفييتي وإنجلترا في مرحلة حساسة. وهذا المجنون هتلر قد أقام أوروبا فلم يقعدها، ويريد الرفيق ستالين أن يُبقيَ طموحات الألمان تحت السيطرة، وطبيعي أن تكون إنجلترا حليفةً لنا، لنواجه تمدد النازية.

- لا أرى ما علاقتي بأمر كهذا.

- يلعب الدبلوماسيون ألعابهم المعتادة، يناورون ويلمِّحون، إلا أنهم لا ينجزون شيئًا على أرض الواقع. لا يريد البريطانيون أن يتملقوا الشيوعيين –على الأقل في العلن– وعلى أي حال، فالرفيق ستالين لا

يعرف إذا ما كان بإمكانه أن يثق بهم أم لا. ما نحتاج إليه هو اتصال مباشر بين ستالين وتشرشل، اتصال خارج الدوائر الدبلوماسية.

حتى بعد أن أسهب مولوتوف في الشرح، لم أصدق ما يقول تمام التصديق. فهو يرسلني إلى إنجلترا لأسلم رسالة فائقة السرية من ستالين إلى "لي". سأسافر باسمي المستعار القديم، ماري دوفال، وهو ما قال مولوتوف أنه سيبقيني تحت السيطرة، فماري لم تزل مطلوبةً في فرنسا في جريمة قتل. كما أكد مولوتوف أنه يوجد من سيحميني طيلة الوقت، وهو ما فهمت منه أني لن أُترَك بمفردي أبدًا. وقد يسعى "لي" في القبض عليَّ بتهمة الجاسوسية، وإذا حدث هذا سيعلن الاتحاد السوفييتي أني عميلة خائنة، بل وسيعمل على إخراسي، للأبد، حتى قبل أن أُحاكم. ولكن كل هذه الأخطار لا قيمة لها في مقابل ما يعرضه عليَّ؛ مخرجًا من السجن، ومهربًا من روسيا. ورؤية "لي" مرةً أخرى. مال قلبي عبر المسافة الفاصلة بيننا، يشده الحنين. أنا الآن في السادسة والثلاثين، ولم أعد تلك المرأة التي عرفها في باريس. لا أعرف كيف سيكون رد فعله عندما يراني، ولكني سأخاطر بتقبل أي شكل من الإهانة مقابل أن أحصل على تفسير.

تمت الترتيبات بسرعة كبيرة، ولا بد أنها بدأت قبل مدة طويلة من جَرِّي على وجهي من زنزانتي إلى هذه الغرفة. خرجت من السجن مباشرة إلى عيادة الأسنان حيث وضعوا لي غطاءً على سِنّ من أسناني الأماميةِ كُسِرت في أثناء إحدى جلسات التعذيب، ومنحوني غرفةً في فندق الميتروبول، فشقتي خُصِّصت لعائلة أخرى. أمضيت أسبوعًا في مراجعة خطط الرحلة خطوة خطوة. قامت مجموعة من الخياطات بحياكة بعض الثياب الجديدة لي. اشتروا لي حذاءً جديدًا، ومعطفًا من الصوف يصل إلى الركبة، وأنبوبًا من أحمر الشفاه أضاء كامل وجهي عندما جربته. نظرت في المرآة ورأيت مخلوقًا تألَّفَ من أجزاءٍ من الماضي؛ شعر أمي، وعزم أبي، تلك الفتاة التي رقصت الفالس يومًا في فستانها الحريري، وتلك المرأة التي هزت أردافها على موسيقى الجاز في قصر باريسي. ناديا أنطونوفنا شولكينا سيميلكوفا.

تكاد تكون جميلة، تكاد تكون طبيعية.. من الخارج، على الأقل. فمن الداخل، ما زلتُ أشعر بالخواء.

كان مُرافقي الرسمي؛ الرفيق يانوف، فظًّا، ولكن لا يشكل أي تهديد. وخلال رحلة القطار التي استغرقت يومين، كان كوالد يحمي ابنته أكثر منه حارسًا، كأنه يراقب ابنةً قد تتمرد. نمنا في نفس المقصورة وتناولنا جميع وجباتنا معًا في عربة الطعام. محادثاتنا قصيرة وسطحية، كلانا يدرك أننا أكثر أمانًا كلما قل ما نعرفه. عندما نزلت من العبّارة في دوفر، شعرت كأنني أدخل إلى عالم مألوف. مرَّ القطار المتجه إلى لندن بالقرى الخلابة ومروج الأغنام الشاسعة، المناظر الطبيعية التي قرأتُ عنها في الروايات لسنوات. كان الركاب من حولي يتحدثون بلغة إنجليزية واضحة وصريحة، وهي لغة دقيقة لأشخاص محددين. تذكرت النبرة الهادئة للآنسة فيلدز، وهي تقرأ بصوت عالٍ، وتساءلتُ عما إذا كانت ستعود إلى هنا، إلى وطنها الأم، وعمّا إذا كانت قد فكرت بي يومًا.

وصلنا إلى فندق متواضع في بيزوتر يقيم فيه السياح متوسطو الحال. غرفة يانوف في مواجهة غرفتي مباشرة، كل خطواتي التالية خُطِّطت بعناية في موسكو. يعيش "لي" بمفرده في شقة بتشيلسي، على بعد نحو ثلاثة أميال، بلا زوجة ولا أطفال. ووفقًا لتقرير من السفارة السوفيتية في لندن، فهو يقضي معظم وقته في مكتبه، ويتناول العشاء متأخرًا في نادٍ خاص. وفي معظم الأيام يعود إلى منزله في التاسعة تقريبًا. وهذا هو الوقت الذي سأراه فيه بغير سابق إعلان. تدربت مع اثنين من تابعي مولوتوف على ألوان مما سأقوله. ولكن هذا يختلف تمامًا عن الحديث مع "لي" وجهًا لوجه.

في تلك الليلة أقلَّني يانوف في سيارة استأجرتها السفارة الروسية. كان المبنى الذي يقطنه "لي" قصرًا فيكتوريًّا كلاسيكيًّا من ثلاثة أدوار، له دَرَج يقود إلى المدخل. مكث يانوف في السيارة وخرجتُ متجهةً بخفة ونشاط، أخفي تحتهما خوفي. سرتُ حتى الباب الأمامي، وكان هناك لوحة بها ستة أزرار أجراس واسم "لي" على أعلاها. ضغطت الزر بقوة لمدة أطول من المعتاد لكي لا يهتز إصبعي. كانت الساعة العاشرة والنصف تقريبًا، فهل

ذهب إلى الفراش؟ ثم سمعت وقع أقدام مكتومة وانفتح الباب. وها هو "لي" مرتديًا ثياب النوم، يذكرني بالليلة التي فاجأته فيها بباريس، تلك الليلة التي أردته فيها بدرجة حبست عني أنفاسي.

انفرجت شفتاه كأنما أراد أن يقول شيئًا ولم يستطع. رأيت أثر السنوات باديًا عليه كما هو متوقع، فشعره الذهبي أقل بريقًا، وأقل كثافةً عند جبهته، وجِلْدُ ما حول فمه وذقنه بدأ يرتخي، ولكن عينيه كما هما تمامًا؛ متيقظتان يملؤهما الفضول. رأيتُ للحظة عابرة ذلك الرجل الذي أحببته يومًا، تحت دثار من حذرِ منتصف العمر أبقاه صامتًا.

- هل يمكنني الدخول؟

- بالطبع.

لم يزل "لي" محتفظًا بأدبه المعتاد، حتى في موقف مُقلق كهذا.

قادني إلى أعلى؛ إلى شقته، ولم ينظر وراءه إلا مرة واحدة كأنما يتأكد أني حقًّا موجودة. وما إن دلفنا إلى الشقة حتى أخذ قبعتي وعرض عليَّ الشراب. غرفة جلوس بسيطةٌ، تبعث على الشعور بالراحة، بها كراسي مبطنة ومساند أرجل، وأحجية من الكلمات المتقاطعة فوق ذراع أريكة بجوار المدفأة. غرفة ذات طابع ذكوري، إلا أنها غرفة جميلة.

أخرج كؤوسًا من خزانة جانبية. وسألني إذا ما كنت أريد الويسكي، ثم هز رأسه سريعًا، متذكرًا أني لا أحبه، وعرض عليَّ النبيذ الأحمر، فأومأتُ بنعم. ألهانا صبُّ الشراب دقيقة أخرى إلى أن جلسنا؛ أنا على الأريكة، وهو على كرسي في مقابلي.

- فلتبدئي الحديث أنتِ أولًا، فالكلمات تعوزني تمامًا.

كان يقصد بتلك الدعابة أن يخفف من توتري، ولكن ساقيه كانتا متصلبتين وكتفاه مشدودتان. كنت قد هيأت نفسي لكل ردود الفعل، وقررت ما سأقوله إن كان غاضبًا أو راح يلقي بالاتهامات، وحتى إن حاول أن يستشعل جذوة علاقتنا؛ خاطر أُسلّي به نفسي. ولكن ما لم أعمل له حسابًا هو تلك المشاعر التي تدفقت عندما رأيته مرة ثانية. لم تعد تهم تلك الكذبات التي تبادلناها.

فالحب، على ما أدركتُ الآن، قد يكون هادئًا وصامتًا، قد يكون إصرارًا على إيثار حاجات من نحب على حاجاتنا.

- أنا في حاجة لأفسر لك ما حدث في باريس.

- ليتكِ تفعلين.

ورفع كأسه يبادلني نخبًا وهو يستحضر ابتسامة. لطالما أحببتُ ابتساماته، ولكن هذه الابتسامة جعلتني أشعر بالبرد. أخذت رشفة من شرابي وأنا أرتب أفكاري. أفضل طريقة للمضي في هذا، أن أتكلم بما استطعت من الصراحة، فقلت:

- تعرف أني كنت متزوجة. ما لم أستطع إخبارك به هو أن زوجي كان ذا مكانة عالية في المديرية السياسية؛ البوليس السري. وقد أرسلني إلى باريس لاختراق الرابطة الثقافية الروسية، وأتحقق إذا ما كانوا يخططون لانقلابٍ على الاتحاد السوفييتي. كان زوجي يعتقد أن بإمكاني اكتساب ثقتهم لأن ابن عمي، ميخائيل شولكين، عضو في المجموعة. اعتقدت أن الأمر هيِّن، فما عليَّ إلا أن أحضر بعض التجمعات، وأنتبه لما يتهامسون به. ثم سمعت برجل يُدعى (الوطني)، يعمل ضد البلاشفة من داخل روسيا. وكلما زادَ ما أسمعه عنه، زاد إيماني بإمكانية نجاح الأمر، فقررت أن أساعد ميخائيل وأصدقاءه؛ أن أعمل ضد الاتحاد السوفييتي.

- تطلّبَ هذا قدرًا كبيرًا من الشجاعة.

- كنتُ صغيرة، ولم يكن لديَّ فكرة عما أَزُجُّ بنفسي فيه.

- هل طلب منكِ زوجكِ أن... أن تصادقيني؟

- لا.. بل كنتَ منعطفًا في الطريق.

- لستُ متأكدًا أن هذا مديح.

شعرتُ بدفقة مألوفة من المشاعر تعتمل في صدري وقد باغتني بدعابته.

- كنت أستمتع برفقتك. لم يكن لكَ من صلة بمهمتي، وقد راق لي هذا. وعندما طلبتَ مني العمل معك، كان عليَّ أن أحصل على موافقة رئيسي

في السفارة الروسية، فقلت له إني مرتابة بك لأجد مبررًا لقضاء الوقت معك، لا لأني أعتقد حقًّا أنك جاسوس.

انتظرت منه أن يعترف بهذه الحقيقة، وانتظر هو أن أتم حديثي. لم يزل كلانا حذرًا.

- اتضح أن جزءًا من الخطة لم أكن على دراية به؛ فـ(الوطني) لم يكن شيئًا حقيقيًّا، بل مجرد حيلة حاكها زوجي لتصيد أي متآمر محتمل. قيل لي إن (الوطني) سيأتي إلى شقتي للقاء سري، ولم يأتِ إلا زوجي، الذي طعن ميخائيل، فأرداه أمام عينيَّ، ثم أجبرني على العودة إلى موسكو معه. لم يكن لديَّ خيار آخر.

راح «لي» يهز رأسه ببطء كأني أؤكد حقائق يعرفها بالفعل.

- كنت أريد أن أهاتفك، أو أن أكتب إليك، ولكن أليك لم يتركني بمفردي قط. وبمجرد أن عدنا إلى روسيا...

هززت كتفيَّ لا أدري ما أقول، فقاطعني بقوله:

- لم أصدق قط أنكِ من فعلها.

سرى بداخلي شعور بالراحة كالمطر يطهر مخاوفي.

- رأيت صورًا لجثة ابن عمكِ. كانت جريمة وحشية أعلم أنكِ أبعد ما يكون عن القيام بمثلها، مهما كانت جرائمك.

قلت لنفسي: «مهما كانت جرائمكِ!»، لم يزل "لي" غير واثق بي، وحُقَّ له أن يفعل. أردت أن أشكره، ولكنه صدني بإيماءة من رأسه قبل أن أنطق، وقال:

- فيمَ مجيئكِ إلى هنا؟ أهي مأمورية أخرى من مأموريات زوجكِ؟

أدركت حينها أن لطف "لي" هش كالزجاج. عبَّ من زجاجته عبة كبيرة وسريعة.

- مات أليك.

باغته الخبر، فقال:

- يؤسفني سماع هذا.

لم أكن أريد الحديث عن أليك، ليس الآن. لا يمكنني تفسير هذا الشعور المختلَط من الراحة والحزن الذي ينتابني عندما أفكر فيه.

- أعدموه منذ زمن غير بعيد، بتهمة معاداة الدولة. أما أنا فقبضوا عليَّ وأودعوني السجن. وفي يوم اقتادوني إلى لقاء مع الرفيق مولوتوف، أعتقد أنك تعرف من هو.

فأومأ "لي" على الفور، فمن المؤكد أن أي جاسوس بريطاني مهتم بالشأن الروسي يعرف هذا الاسم.

- أخبرني أن الحكومة السوفيتية تود أن تعمل مع نظيرتها البريطانية لتحجيم ألمانيا، وأنهم لم يستطيعوا أن ينجزوا شيئًا يُذكر بالطرق الرسمية. وقال إنه يعتقد أن المناقشات ستكون أبلغ أثرًا إن تمت عبر القنوات غير الرسمية. وهو يعرف مكانتك في المخابرات البريطانية، كما يعرف أنك تجيد حفظ الأسرار.

- وغلب على ظنه أني سأثق بكِ لأجل ما كان بيننا.

قال "لي" تلك الكلمات بلا مبالاة، وعيناه في عينيَّ، فقلت:

- أجل.

فضحك ضحكة حادة، تكاد تكون ساخرة، وقال:

- حسنًا، أكملي.. ما الرسالة؟

سلمته مظروفًا أعطانيه يانوف في وقت مبكر من مساء هذا اليوم، وقلت له:

- لا أسماء بالرسالة.. لأسباب تعرفها، ولكن هذه هي الشروط التي يعرضها ستالين من أجل التحالف مع بريطانيا العظمى. ولو أمكنك إيجاد الشخص الملائم لتُسلِّم له هذه الرسالة.. فقد يكون هذا في مصلحة بلادنا وبلادك.

أخذَ المظروف ووضعه على المنضدة بجواره، بغير إبداء اهتمام.

- فلنقل إني أوصلت هذه الرسالة، فماذا بعد ذلك؟

فهززتُ كتفي قائلة:

- هذا أمر ليس إليَّ مردُّه.

ويبدو أن إدراك هذه الحقيقة أثقل على كلينا، بالقدر ذاته، فما نحن إلا قطعتين في لعبة لا سيطرة لنا عليها. شرعت في الكلام بتردد قائلةً:

- عندما أتيتَ إليَّ في ذلك الصالون بباريس، هل كنتَ تعرف مَن أنا؟

- ليس تمامًا، فقد تذكرتُ رؤيتك في جولة الكُتّاب في موسكو، ولكن لم أعتقد إلا أنك مترجمة. ونعم بدا غريبًا بعض الشيء أن أصادفكِ مرة أخرى، فقلت لنفسي لا ضرر في أن أعرف عنكِ المزيد، فعرضت عليكِ أن تعملي معي في الترجمة لكي أجد مبررًا لمقابلتك مرة أخرى. وكنت أحتفظ بقائمة بها اسم كل من أقابله في سفري...

فقاطعته:

- أعرف هذا.

- نعم تعرفين، أذكر تلك الليلة التي رأيتكِ فيها تُقلِّبين أوراق مفكرتي.

فعاودتني ذكرى تلك الليلة كصدمة كهربية؛ أنا عند طاولة الطعام و «لي» واقف في مدخل الباب، نصفَ عارٍ، بعينين ناعستين تضيئهما شمس الصباح. ولكن «لي» بدا حصينًا من ذلك الحنين، وتابع:

- عندما راجعتُ الملحوظات التي دوَّنتُها في زيارتي لروسيا ورأيت اسم المترجمة التي جاءت لقاعة الاستقبال في الفندق، وكان الاسم «يوليا كيشكينا». ولكن نفس هذه السيدة عرَّفتني على نفسها في باريس باسم ناديا شولكينا، قلت لنفسي لعلها تستهدفني لأنها تعرف أني أعمل مع الحكومة البريطانية.

فقلت:

- لم أفعل هذا، فقد كنتُ أحسب أنك اشتراكي.

- كنتُ اشتراكيًّا، حتى عدتُ من روسيا. كل ما أخبرتكِ به حتى تلك اللحظة كان صحيحًا، فقد كنتُ حانقًا بسبب ما أراه من فقر في إنجلترا، واعتقدت أن الثورةَ هي السبيل الوحيد لإصلاح الأمور. وكنت حقًّا أعتقد أن الاتحاد السوفييتي سيقودنا جميعًا إلى مستقبل مشرق، ولكن بعد أن رأيت الأحوال بنفسي في روسيا...

وعبَّ ما تبقى من الويسكي، وقال:

- رأيت ما جعلني أرتاب؛ فالمرشدون لم يتركونا وحدنا ولو للحظة واحدة، والناس الذين رأيتهم بدوا متخشبين تخشبًا غريبًا، كأنما لُقِّنوا ما يجب عليهم قوله. يعرف أبي بضعة شباب ممن كانوا يعملون في المخابرات العسكرية في أثناء الحرب، وقد تحدثت مع واحد منهم عندما عدت إلى إنجلترا، فأخبرني أن الحكومة تبحث عن أشخاص مثلي ممن زاروا روسيا ويمكنهم المساعدة في فهم الموقف. ولكم سُرَّ أبي عندما أخبرته أني عزمتُ على الالتحاق بالخدمة، فأخيرًا أفعل شيئًا يفخر به.

لم يكن "لي" قد أخبرني إلا نصف الحقيقة، عن أب متسلط، وعن قسوة المدرسة الداخلية، وعن تمرده على كل هذا في نهاية المطاف. وأخفى عني النصف الآخر؛ أنه لم يفقد الأمل قط في أن يرضى عنه أبوه.

- أرسلتُ تقريرًا قصيرًا إلى لندن عنكِ وأخبروني أن ناديا شولكينا زوجة مسؤول روسي كبير، وشجعوني على مواصلة مقابلتك، لأعرف إن كنتِ بصدد القيام بعمل يدعو إلى الريبة. فاختلقتُ قصة عن كتابة كتاب لكي نقضي مزيدًا من الوقت معًا، ولكن لم يكن هذا هو كل ما في الأمر، فحقًّا كنت أستمتع بصحبتك.

- وأنا كذلك.

على نحوٍ ما شعرت أننا نبدأ بداية جديدة، يفضي فيها كلٌّ بأسراره، على استحياء، ولا يدري كيف يتقبلها صاحبه. فقلت:

- هذا الذي كان بيننا.. لم يكن ضمن أوامري.

- وأنا أيضًا.

قالها وهو ينظر إلى كأسه، ثم راح يملؤها وهو يقول:

- وصلت إلينا بعض الشائعات عن الرابطة، وعن (الوطني) أيضًا، مِن أحد المخبرين داخل السفارة الروسية.

لا بد أن هذا المخبر كان باتلوف، لاعبًا على كل الجهات، يداهن الإنجليز تحسبًا لسقوط البلاشفة، وقد أخبرني أليك أنه أُعدِمَ، بعد عودتنا من باريس بمدة قصيرة. عاد "لي" إلى مقعده، وقال:

- نُشِر خبر قتل ميخائيل شولكين في كل الجرائد الفرنسية. وصورتكِ أيضًا؛ ماري دوفال الغامضة. لم أشُكَّ أن الدليل ضدك قد لُفِّق، فليست المخابرات الفرنسية بالكفاءة التي تجعلهم يتعرفوا على المجرم بهذه السرعة. ورغم ذلك فقد أصابني الذهول، إذ لم أكن أعرف إذا ما كنتِ ضالعة في المؤامرة أم مجرد ضحية بريئة. لم أعرف حتى إذا ما كنتِ حيةً أم لا. فربما قتلك نفس الشخص الذي قتل ابن عمكِ. وأفدح ما في الأمر أني كنت أعتقد أني لن أعرف الحقيقة أبدًا.

لاحظتُ تشققاتٍ رقيقة في هدوئه، حزنًا في عينيه، وتهدُّلًا في أكتافه.

- بالطبع كنتُ غاضبًا، حزينًا. ناهيك بخوفي من أن أكون قد خرّبتُ حياتي المهنية، فكيف لي أن أفسر لرؤسائي في لندن حقيقة أني لم أعرف ما كنتِ تنوين القيام به.

فتمتمتُ بأسفي، وأنا أعرف أنها كلمات أقل من التعبير بعمق ندمي.

- قلت لنفسي لا جدوى من التحسر. فقررت أن أتعمق في التحقيق بشأن قتل ميخائيل. قلت لعل للأمر علاقةً بزوجك، فأخذتُ صورة السيد سيميلكوف إلى المبنى الذي كنتِ تعيشين فيه، فقال شخصان مختلفان إنهما شاهدا رجلًا شبيهًا به. كما توصلتُ إلى محصل تذاكر رآه في القطار الذي وصل إلى باريس. وكان هذا كافيًا لأحصل على مقابلة في لندن مع رئيس جهاز المخابرات السرية. على المستوى الرسمي، لم يزل قتل ميخائيل شولكين قضية لم تُحَل، والآنسة دوفال هي المشتبه به الرئيس. ولكن على مستوى غير رسمي، فالمخابرات

البريطانية والفرنسية تعتقد أن من قتل السيد شولكين هو ألكسندر سيميلكوف، بمعاونة زوجته؛ ناديا. وعلى حد علمي، لا يعرف الحقيقة كاملةً إلا أفراد قليلون على قمة الهرم الحكومي. وأعتقد أن هذا كان نوعًا من الابتزاز للسيطرة على السيد سيميلكوف في رحلة ترقيه عبر مراكز الحزب.

- الحزب في حالة من الفوضى العارمة، ولا أعرف مَن في صف مَن.

- ماذا سيحدث عند عودتكِ؟

- أخبرني الرفيق مولوتوف أنهم سيكافئونني على ولائي.

كان للكلمات وقع الكذب على أذنيّ، حتى وأنا أنطق بها، فقلت بنبرة أهدأ:

- لا أعرف إن كنتُ أصدقه أم لا.

- حسنًا، إذن فعلينا أن نجد سبيلًا لإبقائكِ هنا. يمكن للمفاوضات الدبلوماسية أن تستمر لسنوات، أليس كذلك؟

ضحكتُ ضحكة عالية على نحو لم أتوقعه، متحررة من توتري. وسرعان ما ضحك "لي" أيضًا، وسرى بيننا شعور متبادل من السعادة.

- أين تمكثين، وهل هو مكان آمن؟

- آمن بما فيه الكفاية. ولديَّ حارس لا يفارقني، وهو ينتظر في السيارة بالخارج؛ ما يذكرني بأنه ينبغي لي أن أذهب الآن، فسيرتاب إن أطلت بقائي هنا.

- لعله الآن يتساءل إلى أين وصل بنا الحال.

لم تكن إلا مزحةً، ولكنني شعرت بدفء حمرة الخجل تسري في خدودي. من السخف تخيُّلنا نستعيد حرارة الشباب. نهضتُ أتعجل الذهاب قبل أن أرتكب أي حماقة، وقال لي:

- سأعمل ما بوسعي لإيصال الرسالة إلى مكتب رئيس الوزراء. ولا بُدّ أن نلتقي ثانيةً لاحقًا، كيف أصل إليكِ؟

فأعطيته عنوان الفندق، ودوَّن "لي" سريعًا على قصاصة من الجريدة وأعطاها إليَّ، قائلًا:

- هذا رقمي الخاص في المكتب، وهو يعمل طوال اليوم. اتصلي بي في أي وقت تشائين، وإن لم أكن هناك، فسيعرفون كيف يصلون إليَّ.

- أريد أن أطلب منكَ معروفًا، في مسألة تخصني.

فأومأ برأسه، بفضول:

- كان لي مربية إنجليزية في صغري، الآنسة فيلدز. ظلت معنا من سنة 1913 إلى سنة 1914، استقدمها أبي عن طريق وكالة توظيف في لندن. لا أعرف عنها أكثر من هذا، فهل يمكنك أن تعثر عليها؟

- سأجعل شخصًا يتولى هذا الأمر.

- شكرًا، أود أن أراها وأنا هنا.

أحضر "لي" قبعتي، فقلت:

- لماذا سألتني إذا ما كنتُ أشعر بالأمان أم لا؟

- لستِ بحاجةٍ لأن أخبركِ أن للسوفييت عيونًا في كل مكان، حتى لندن، ولا بد أنه يوجد فريق مراقبة كامل يتتبعكِ.

بالطبع هو محق. لماذا لم يخطر ببالي أن يانوف ليس إلا جزءًا من عملية أكبر. لستُ في لندن بأكثر مني أمانًا في موسكو، فقلت:

- سألزم حذري.

- هذا حسن، فلا أريد أن أكون قلقًا عليكِ.

قالها بلطف، ولكن أيضًا بنبرة فاترة أربكتني. حسبت أننا قمنا بخطوات تجاه إعادة الصداقة، ولو على استحياء، ولكنه لم يُظهِر أي مشاعر حيال انصرافي، بل فتح الباب فجأة وأفسح لي. شكرته وراحت أصابعي ترتعش بعصبية. نتصافح، أم نتعانق؟

رد "لي" على شكري له بإيماءة من رأسه وأنا أخطو للخارج، وأغلَقَ الباب خلفي قبل حتى أن أدير وجهي. فابتلعت الإهانة وأسرعت إلى أسفل، ثم إلى

خارج المبنى. كان يانوف يتكئ على السيارة يدخن. سألني عما جرى برفعة من حاجبيه. أومأتُ له ثم دلفت إلى الكرسي الخلفي. لم أتمالك نفسي فرحت أرتعش لسبب لم أدرِ كُنهه، ولكن لعله شعور متأخر بالصدمة للقاء "لي" مرةً ثانية، وإخباره بالحقيقة، أخيرًا.

وبعزم على استغلال ما تبقى من وقتي، مهما قصُر، أقنعت يانوف أن نقضي الصباح التالي في زيارة المتحف البريطاني. تجولنا في قاعاته الفخمة بصمت منذهل، مدهوشين من الكنوز التي أرسلها جامعو تحفِ الإمبراطورية من كل أنحاء العالم. وتناولنا الغداء في مقهى صغير، شطائر من لحم الخنزير مشبعة بالدهن، وتنزهنا في حدائق كينسنجتون، كسائحيَن مجهولين وسط عشرات من أمثالهم. تُرى كم واحدًا ممّن مررنا بهم استؤجر ليراقبني. عندما عدنا إلى الفندق قرب المساء، وجدت مظروفًا في انتظاري على مكتب الاستقبال. وعرفت من الخط عليه أنه من "لي".

«فيرا فيلدز ويذربي، 20 طريق تيتشلي، لندن، ويستمينستر.

إن كان وقتكِ يسمح، فقابليني في التاسعة من مساء اليوم في محل لقائنا السابق.

سيُقدَّم الطعام. الثياب الرسمية غير ضرورية».

قلت ليانوف إن السيد كوبر يريد مقابلتي الليلة، ومزقت الورقة قبل أن يتمكن من قراءة ما فيها. ولم أذكر شيئًا عن الآنسة فيلدز، أو فيرا.

لطالما تخيلتُها تعيش في بلدة ريفية، كواحدة من أبطال كاتبتها المفضلة، جين أوستن. ولكنها هنا، في لندن. أخبرت يانوف أني سأصعد إلى غرفتي لأنال قسطًا من الراحة، واتفقنا أن نلتقي في بهو الفندق في السابعة مساءً لتناول العشاء. كنت آمل أن أجد ما يكفي من الوقت، انتظرت على أعصابي ثلاثين دقيقة، ثم تسللت إلى الصالة. كان باب يانوف مغلقًا، وفي البهو طلبت من موظف الاستقبال تعليمات عن كيفية وصولي إلى منزل الآنسة فيلدز، وكان قريبًا بما يكفي لأن يكون جديرًا بالمخاطرة. غادرت الفندق من مدخل العاملين، ولوّحتُ لأول سيارة أجرة تمر بي.

وللمرة الثانية في يوم واحد.. أظهرُ على عتبة باب صديق قديم دون سابق إنذار. وعلى العكس من "لي"، لم تُبقِ فيلدز مشاعرها تحت السيطرة، فحدقت إليَّ، ثم شهقت، وانفجرت في البكاء.

- ناديا؟

ومدَّت يديها وأمسكتني من كتفي، لتقول:

- ماذا تفعلين هنا؟ يا إلهي، تفضلي، تفضلي.

كانت ترتدي مئزرًا عليه غبار من الطحين، فوق فستان أزرق داكن، وقطرات العرق متجمعة عند الحد بين جبهتها وشعرها. تمدد جسدها بما فعلته به منحنيات الأمومة، ولكن جوهرها.. تمامًا كما هو في ذكرياتي؛ فوّارة، دافئة، سريعة الحركة.

- كنتُ على وشك إخراج بعض الأرغفة من الفرن.

وأشارت إليَّ بيديها بسعادة قائلةً:

- هيا، تعالي معي إلى المطبخ.

تبعتُ المرأة التي طالما فكرت فيها على أنها «الآنسة فيلدز» إلى مؤخرة المنزل، حيث تناثرت الأوعيةُ والملاعق اللزجة فوق طاولة المطبخ. أخرجت وعاءين من الفرن، ومسحت وجهها بجانب مئزرها، ثم تحول اهتمامها إليَّ.

- انظري كيف أصبحتِ، بعد كل هذه السنوات.

فابتسمتُ حياءً، وتذكرت كيف كانت تحرص على أن يكون شعري وثيابي في أجمل صورة عندما نذهب لتمضية بعض الوقت في الخارج. وقلت:

- أكثر من عشرين سنة.

- كيف حال والديكِ؟ أخبريني بكل شيء.

لم تعلم إذن، وكيف لها أن تعرف، وقد انتُزِعت من حياتنا انتزاعًا، فأخبرتها:

- لقد ماتا، منذ زمن بعيد.

أوجعني قلبي لِما سيضطرني الحديث إلى قوله، ولكن لم أبدأ حتى سمعت الباب الأمامي ينفتح وصوتًا ينادي:

- أمّي.. لقد نفد مني اللون الأحمر ثانيةً، سأذهب لأشتري المزيد بعد الشاي.

فنظرت إليَّ الآنسة فيلدز نظرةَ معتذرٍ، وقالت:

- هذه ابنتي صوفي.

وبدا عليها توتر، لا أدري له سببًا، ثم تابعت:

- إنها في الكلية الملكية للفنون، ولا تكفُّ عن شراء الألوان...

توقفت عن الإصغاء عندما اندفعتْ إلى المطبخ شابةٌ تأخذ بالألباب، طويلةٌ، ورشيقةُ، ولها عنق طويل، وشعر بني داكن. كانت وقفتها وحركاتها صدًى غريبًا لأمي، كما كانت عيناها، وما بها من مسحة حزن، صدًى آخرَ لسيرجي.

ألقيت نظرة خاطفة إلى الآنسة فيلدز، فأكدت لي شكوكي، وهزة رأسها هزة خفيفة، تقول:

- ليس الآن.

ثم وجَّهت كلامها لابنتها، وتكلمت بوجه مشرق كأن شيئًا لم يحدث، وقالت لها:

- صوفي، هذه هي الآنسة ناديا شولكينا، نعرف بعضنا بعضًا منذ سنوات بعيدة في روسيا. هلّا تلطفتِ وأحضرتِ لنا الشاي في الغرفة الأمامية؟

امتثلت صوفي لأمها بلا شكوى، رغم أنها راحت تراقبني بفضول وأنا أتبع أمها خارجَتين من المطبخ. وما إن جلست الآنسة فيلدز وجلستُ على الأريكة، حتى قالت فيلدز:

- أجل.. هي ابنة سيرجي.

لسنوات طويلة وأنا أسأل نفسي لماذا رحلت الآنسة فيلدز بغتةً، أخشى أن يكون الخطأ -على نحو ما- خطئي أنا. كنت صغيرة جدًّا لأشك في أنها حُبلى، ناهيك بأن يكون لها علاقة سرية مع خالي. وفهمتُ، أخيرًا، لِمَ لَمْ يفسِّر

أبي أو أمي ما حدث. ففي حياتنا فيما قبل الثورة، كانت فيلدز وسيرجي يعتبران من عالمَين مختلفَين؛ عالم النبلاء وعالم الخدم. ولكني أذكر كيف كان سيرجي يتحيّن الكلام مع فيلدز كلما زارنا. كان يقول إنه يفعل هذا لممارسة إنجليزيته، ولكني الآن أرى بوضوح أن هذا لم يكن إلا مبررًا لقضاء الوقت معها. كل تلك الكتب التي كانا يتبادلانها وكل تلك المناكفات المرحة، كانت كلها علامات على أنهما عاشقان متيمان، وقد منحتهما أيام كسلنا الصيفية في الريف، الفرصةَ ليتسللا بعيدًا عن الأعين.

سألتني الآنسة فيلدز مترددة:

- هل هو...؟

فأومأت بنعم، قائلة:

- منذ بضع سنوات. كانت ميتة هادئة؛ نوبة قلبية في أثناء النوم.

شهقت فيلدز شهقةَ من كانت قد أعدت نفسها للنبأ، وقالت:

- لقد كنت أهيم به. تعرفين مَن هو، يجعلكِ تشعرين أنكِ أهم شخص في العالم.

كان خالي يبهرني أنا أيضًا. فقد كان ذكيًّا وسيمًا وحالمًا وطيب القلب. ابتلته الثورة كما ابتلت الجميع، وفي بعض الأوقات غاظني رضاه الخانع بمعاناتنا. لم أدرك إلا بعد سنوات طويلة كم كان ثباته نعمةً لنا. ما زلت أومن أنه أطيب إنسان عرفته. ثم خفضت فيلدز من نظرها، محرجةً للإفصاح عن كل هذا القدر من مكنون صدرها، وقالت:

- كنتُ لأفعل أي شيء من أجله. لم أشعر مثل شعوري معه أبدًا، لا قبل أن ألتقيه، ولا بعد أن رحلت.

في بريالكو، راودني شعور بأن اهتمامها بي يخفت أحيانًا، وبمحض أنانية الطفولة كنت أغتاظ عندما تتجاهلني. كم مرةً من تلك المرات كانت تفكر في سيرجي؟! كيف، وهي وسيرجي يحملان مثل هذا السر، كيف أفلحتْ في أن تتكلم معه في توافه الأمور وهما على مرأى من العائلة؟ ثم تابعت حديثها:

- علمت أني حامل في وقت مبكر، فقد رأيت علامات الحمل على أمي عندما كانت حُبلى في أخواتي الصغريات. حينها فزِع سيرجي؛ فهو من قال لي إنه يعرف كيف نتجنب هذا الأمر. كلانا عرف أنه ليس بالإمكان فعل شيء، وأنه عليَّ أن أعود إلى إنجلترا لأعطي الرضيع لعائلة تتبناه.

- هل عرف والداي بالأمر؟

فأومأت الآنسة فيلدز بنعم، وقالت:

- لم تتحدث أمكِ معي بعد أن أخبرها سيرجي، ولكن أباك ساعدني كثيرًا، فرتَّب سفري وأصرَّ أن آخذ كامل أجرتي بما فيها الشهر الذي لم أكمله. وأعطاني سيرجي بعض المال أيضًا، وخاتمًا لأتذكره به.

سمعتُ وقع أقدام صوفي تقترب، وجلسنا في صمت وهي تقدم الشاي وطبقًا به قطع من الكعك. أجريت حسبةً سريعةً؛ لو كانت فيلدز حاملًا في صيف 1914، فستنجب الطفل في أواخر العام أو في بدايات 1915؛ ما يعني أن عمر صوفي الآن ثلاث وعشرون سنة. قالت فيلدز لابنتها:

- اذهبي واحصلي على ألوانكِ إن شئتِ، فنحن نستعيد لحظات الماضي.

كدت أن أحتج، فقد كنت أنتظر أن تنضم صوفي إلينا، وأردت أن أطيل النظر إليها، مفتونةً بحركاتها وإيماءاتها التي تبدو وكأنها مستخلصة من ماضيَّ، ولكني تفهمت رغبة أمها في حمايتها، بإخفاء حقيقة مولدها عنها. قالت صوفي بمرح:

- حسنًا.

ونظرت إليَّ بغير مبالاة وقالت:

- سعدتُ لوجودكِ، لن أغيب طويلًا يا أمي.

صبَّت الآنسة فيلدز الشاي، وأخذت قضمة أو قضمتين من الكعك، ونحن ننتظر رحيل صوفي. وما إن ذهبت حتى أطلقت فيلدز آهةً، وقالت:

- شكرًا لكِ، فهي لا تعرف.. بالتأكيد.

- كنتِ تنوين التخلّي عنها، فما الذي غيَّر هذا؟

- الحرب؛ فقد بدأت الحرب بعد نحو أسبوع واحد من عودتي إلى إنجلترا. لم أكن أريد حقًّا أن أتخلى عنها، ولكني ذهبت إلى أحد منازل الأمهات غير المتزوجات لأحفظ لعائلتي ماء وجهها. كانت خطتي أن أترك والديَّ يظنان أني ما زلت في روسيا. وبعد أن أضع الطفل، أعود إلى المنزل وأخبرهم أن عملي انتهى، ثم بدأت الحرب. علمت أن والديَّ سيقتلهما القلق عليَّ، وأنا وحيدة في دولة أجنبية، وسيراسلون وكالة التوظيف إن لم يتلقوا مني الرسائل. كنت أقرأ كل الجرائد، وقوائم من ماتوا، وبدأت أشعر أن التخلي عن الطفلة عمل غير صائب. لقد أحببت سيرجي حبًّا عظيمًا، وهذه الطفلة كل ما تبقى لي منه. ثم أدركتُ أن الحرب قد أمدتني بعذر مثالي، فبإمكاني الآن أن أقول إني تزوجت في روسيا، ولكن زوجي قُتل في الميدان. وعندما وُلدت صوفي كان هناك بالفعل آلاف من أرامل الحرب في بريطانيا. لم أكن نغمة شاذة يسهل ملاحظتها.

- مَن تظن صوفي أباها؟

- هي تعرف أن اسمه سيرجي، ولكني أخبرتها أنه كان سائقًا يعمل لدى نفس العائلة، وأنه قُتِل في الحرب. لحسن الحظ أنها لم تُكثر من السؤال. ارتابت أمي بالأمر، أو أظن هذا. ولكنّ أخي قُتِل في يبيره، بعد مولد صوفي بستة أشهر تقريبًا، فسلَّتها المولودة الجديدة، بل حفظت عليها حياتها، حقيقةً. فعندما تحملين طفلًا صغيرًا لا يمكنكِ إلا أن تشعري بالسعادة. افتقدتُ سيرجي بشدة، ولكم أردت أن أخبره بشأن صوفي، ولكن لم أعتقد أن أي رسالة قد تصل إليه، والحرب دائرة، ثم كانت الثورة.. حينها كنت قد قابلت السيد ويذربي. كنت أقدم المساعدة في أحد المستشفيات، وأُحضِر إلينا بعد أن فقد نصف ساقه، مصيبة لم يتذمر منها قط، ولو للحظة. تواعدنا، وتزوجنا بعدها بثلاثة أشهر. قالت أمي حينها إني سأكون له ممرضة أكثر مني زوجةً، ولكني علمت أنه سيكون أبًا صالحًا لصوفي. وهو أيضا شخص يُعتمد عليه، محاسب قانوني، ولا يحتاج المرء إلى ساقَين لإجراء الحسابات، أليس كذلك؟

أنجبتُ طفلين منه، آرثر وستيفن. سيعودان إلى المنزل في أي لحظة، ولَكم أحب أن تريهما.

أردت أن أبقى، فقد استمتعت بعائلتها كما لو كانت عائلتي، ولكن لا يمكنني المخاطرة، فلعل يانوف بالفعل قد طرق باب غرفتي بالفندق واكتشف أني خرجت، فقلت لها، وقد نهضت بالفعل:

- ليتني أستطيع، ولكني مرتبطة بـ...

فقاطعتني:

- ولكني لم أعرف أي شيء عنك بعدُ، هل انتقلتِ إلى لندن؟

- أنا فقط في زيارة للندن، ولكن سوف أعود متى استطعت.

تبِعتني الآنسة فيلدز صوب الباب، وقد أزعجها رحيلي السريع، وقالت:

- لكم كنت أتمنى ألا ترحلي بهذه السرعة! هل هناك من سبيل للاتصال بك؟

فعانقتها عناقًا حارًّا، وقلت:

- سأشرح لكِ كل شيء فيما بعد، أعدكِ بهذا.

- لا تدرين كم أسعدتني رؤيتكِ، لم أعرف أني أفتقدكِ إلى هذه الدرجة إلا الآن.

- سأعود.. قريبًا.

أحسب أني وصلتُ إلى الفندق دون أن يتبعني أحد، ولكن مَن يدري؟ سمعت شخيرًا من غرفة يانوف، ولكن قد يكون هناك من تبعني إلى منزل الآنسة فيلدز، ولعلِّي عرَّضتها هي أيضًا للخطر. استلقيت على السرير ورحت أعايش اللحظة التي رأيت فيها صوفي. أسرَتْ قلبي تلك الصغيرةُ الغريبة. إنها دمي وعائلتي، وعلى نحو ما كانت كذلك الآنسة فيلدز. تربطنا معًا صوفي، ولا أريد أن أتخلى عن أي منهما. أدرك الآن بيقين متين أن الحياة الوحيدة التي أريدها.. هنا في لندن.

لا شيء يربطني بروسيا. أليك مات، وماتت معه قبضةٌ كان يُحْكِمُها عليَّ. شقتي خُصِّصت لغيري، وصودرت مقتنياتي. ومَن عرفتهم مِن رجال ونساء، الآن بين مسجون ومقتول. وحتى أخي، لا يمكنني أن أراه دون أن أُعرِّض أطفاله للخطر. ومهما كان قدر إنجازي في إنجلترا، فلن يمنع مولوتوف شيءٌ من إلقائي بالسجن مرةً أخرى. بل قد يأمر يانوف أن يتخلص مني بهدوء بعد إتمام عملي، لأصمت للأبد. لا يمكنني أبدًا أن أعود إلى هناك، وليس هناك من أحد قد يعينني في هذا إلا شخص واحد.

لم يكن لدينا أنا و «لي» وقت كافٍ لنستقر على خطة معينة، فعندما كنّا في شقته في تلك الليلة كنا ندرك تمامًا أن يانوف ينتظر بالخارج، يعُد علينا الدقائق. ولحسن الحظ كان «لي» معتادًا العمل تحت الضغوط. أخبرني «لي» أن إعطائي اسمًا وهوية جديدين ليس بكافٍ. وقال:

- لا بد أن يعتقدوا أنكِ قد متِّ، فهذه هي الحالة الوحيدة التي سيكفّون فيها عن البحث عنكِ. ولو كانت ميتةً في العلن –من النوع الذي يشق طريقه للصحف– فحينها سيغلب عليهم أن يصدقوا الأمر.

وبعد مناقشة حفنة من الاحتمالات المرعبة، استقر الأمر على مسرحية حادثة. سيرتب «لي» سيارة تدهسني –فرضًا– وأيضًا سيارة إسعاف تأخذ جثتي إلى مكان آمن. ولكن لن تفلح هذه المسرحية إلا في المكان المناسب.

قال «لي» بضيقٍ:

- لا يمكن أن نقوم بهذا في طريق من الطرق الرئيسة، فلو كانت هناك الكثير من السيارات فلربما تصابين بالفعل، ولكن، أيضًا، لا بد أن يتم الأمر في مكان به شهود. أناس يُبلِّغون الشرطة ومراسلي الجرائد بما حدث. ويا حبذا لو كان أحد هؤلاء الشهود مطلعًا على الخطة كلها، للتيقن من سير الأمور بسلاسة.

كنتُ أنا من اقترح الآنسة فيلدز. فلو وقعت الحادثة أمام بيتها، يمكنها حينها أن تصف الحادثة على الوجه الذي نريده تمامًا. كانت المخاطر عظيمة،

فلو أخفق أي جزء من الخطة، سيقتلني العملاء السوفييت. ولكن لم يكن لديَّ ما أخسره على أي حال. أُفضِّل أن أجرب حظي، وأن أعلم أني بذلت جهدي.

وبناءً على ما اتفقنا عليه، وبعد ليلتين كنت أمشي في مايدا فيل، وبجيبي جواز سفر مزور. أقبلت سيارة نحوي، مسرعةً، وسقطتُ على الأرض. سمع الجيران صرير الإطارات، وهُرِع أحدهم إليَّ، في حين اتصل آخرُ بسيارة الإسعاف. رقدتُ ساكنة تمامًا وحولي ضجيج من الصياح. وعندما وصلت سيارة الإسعاف، ووُضِعتُ على النقالة، سمعتُ الآنسة فيلدز تتذمر مما حدث، قائلةً:

- يا للعار، كيف...

أغلقت سيارة الإسعاف أبوابها، ونغزتني يد في ذراعي، وفتحت عيني لأجد «لي» جالسًا إلى جواري. لم أكن أعلم أنه سيأتي، فقد أخبرني فقط بما يخصني من الخطة؛ أين عليَّ أن أكون، في أي ساعة، وأفضل طريقة للسقوط على الأرض.

رفعت جسدي بذراعي، وحدقت إلى ما حولي. تبينت وجه «لي» بالكاد، وكان هناك رجل آخر إلى جانبه، تغطي وجهه الظلال. لم يُقدِّم «لي» أيًّا منا للآخر.

- سنتوقف عند مستشفى سانت ماري. ستؤخذين إلى غرفة خاصة، حيث ستجدين ملابس جديدة. غيري ثيابكِ بأسرع ما يمكنك.

رحت أهز رأسي وقد روعني معرفة ما نقوم به. لطَّخ «لي» خديَّ بسائل كثيف، وكانت أنامله قرمزية اللون، وقال:

- نحتاج إلى صورة لتقرير الطبيب الشرعي، استلقي وتظاهري بالموت.

فعلت كما أمرني ورأيت –وراء جفني المغلقين– وهجًا من ضوء سريع. وعندما أبطأت السيارة، سحب «لي» بطانيةً ووضعها على جسدي ووجهي. عندما فُتحت الأبواب وأنزلوني من السيارة، تماوتُّ قدر استطاعتي، حتى كاد صدري ألا يتحرك بنفس. سمعت جلبة غرفة طوارئ وصوتًا عميقًا يصيح موجها التعليمات. ثم وُضِعت النقالة بقوة على سرير، وهمس لي:

- سأعود حالًا.

استرقتُ النظر من خلف البطانية لأجد نفسي في مكان مغلق تمامًا تحيط بي ستائر تدلت من السقف، وإلى جانبي كومة من الملابس مطوية بشكل أنيق. خلعت حذائي لكي لا أصدر صوتًا وترجّلتُ. كانت الملابس المُعدّة لي ملابس بريطانية تقليدية؛ تنورة من التويد، وبلوزة بيضاء، وكارديجان من الصوف. لعلّ هناك امرأةً في مكتب «لي» تتولي اختيار ملابس العميلات السريات، أو لعله اشتراها بنفسه.

ورغم أنه لم يكن معي مرآة أو فرشة شعر، إلا أني اجتهدت ليبدو شعري بأفضل هيئة ممكنة، فهذبته بيدي وأسدلته خلف أذنيّ. جفِلتُ عندما سمعتُ حفيف الستائر تفتح فجأةً، لأجد أمامي الرجل الآخر الذي كان في سيارة الإسعاف.

- لقد أرسلني السيد كوبر.. هيا بنا.

تصلب جسدي عندما وضع ذراعه بقوة حول كتفيّ، ولكنه همس لي:

- اتكئي عليّ. تظاهري بالإعياء.

وكوّر بقية ثيابي ودفع بهما بين ذراعيّ، ثم قادني عبر ممرات المستشفى، زوجًا يعتني بزوجة أثقلها المرض. أبقيت رأسي منخفضًا، ورحت أتفحص أحذية الممرضات ومشمَّع الأرضية الملطخ بالبقع. خرجنا من باب خلفي، عبر سلم ضيق، إلى سيارة سوداء تنتظر عبر الشارع. لم يستغرق هربي أكثر من دقيقة.

اعتراني القلق عندما ابتعدنا بالسيارة فقد قال "لي" إنه سيعود، كيف وثقت بهذا الشخص الغريب عني تمامًا، فسألتُه:

- أين السيد كوبر؟

- يعتني ببعض الأمور، وسيأتي عندما يستطيع.

كان لديَّ عشرات من الأسئلة الأخرى، ولكن برود الرجل لم يشجعني على طرح المزيد.

خرجنا بعيدًا عن لندن، عبر حارات قرى تتلوى ولا تصعد إلا لتهبط. وعندما توقفنا أخيرًا عند مدخل سيارات دائري أمام أحد المنازل، كان الظلام

دامسًا فلم أتبين المنزل بوضوح، إلا أنه يمكنني أن أقول إنه كان من الطوب وكبيرًا إلى درجة ما. كل الأنوار مطفأة. ركن السائق السيارة خلف شجرة، وقادني إلى الداخل بسرعة. لمحت ملامح منزل بيت ريفي متواضع، بستائر عليها صور الزهور، قبل أن يأتي ليأخذني إلى الدور العلوي، وفيه إلى نهاية الصالة، وهناك أضاء مصباحًا، ودلفنا إلى غرفة نوم صغيرة بها رائحة عفنة، وأثاث غير متناسق. مكان للضيوف غير المرحب بهم.

- يمكنكِ النوم هنا.

أغلق الباب خلفه. هل سيحرسني؟ أم سيتركني وحدي في المنزل؟ شعرت بالضياع التام، وأنا أنجرف من حياة لأخرى، لا أمان في أي منهما.

خلعت ثيابي واستلقيت تحت الغطاء. أغلقت عينيَّ، رغم أني أعرف أن النوم مستحيل. ومع ذلك، فعندما سمعت ضوضاء خشخشة غريبة وفتحت عينيَّ، كانت الغرفة مشرقة بضوء الشمس، وكان "لي" هناك، بجوار النافذة، يفك الستائر.

- صباح الخير.

جلستُ وسحبت الغطاء إلى الأعلى أخفي قميص النوم، وسمعت صوتًا من داخلي يقول «لقد رآكِ ترتدين أقل من هذا» ليزيدني ارتباكًا. كان هناك أيضًا صينية فَطورٍ على المنضدة، إلى جوار الفراش، وإبريق شاي. صب "لي" كوبًا، وأضاف السكر والقشدة، وتناولته منه بإيماءة خجِلة. لم أستطع منع نفسي من الشعور بأن الزمن قد عاد بنا، فها هو "لي" يقدم لي الشاي آخر الظهيرة، جالسًا على منضدته الفوضوية في باريس.

سحب كرسيًّا، أراه الآن نسخة أقلّ إشراقًا، وأنحف من الرجل الذي كنت أحدق إليه يومًا عبر تلك المنضدة.

- ليست أجمل غرف المنزل، ولكنها أدفؤها. أرجو أن تكوني قد نمتِ جيدًا.

- أين نحن؟

أخذ رشفة من الشاي، يفكر في كلماته بعناية، وقال:

- يخص عائلتي.
- تعيش هنا؟
- لا.. قضينا فقط بعض عطلات الأسبوع هنا عندما كنت طفلًا. أجَّره أبي عندما ماتت أمي، ولكن لا يوجد من يقطنه منذ سنوات طويلة. يحتاج المكان إلى عمل كثير، ولم أكن قادرًا على القيام بما يحتاج إليه الأمر، فعندي مسؤوليات أخرى كثيرة تستنفد وقتي.
- كنتُ أظن أن الحكومة لديها مكان لإقامة أمثالي؛ منازلُ آمنة.
- نعم لديها، ولكنها لن تكون آمنةً بالنسبة إليك.

استرخى "لي" في كرسيه، وعلامات الإرهاق بادية على وجهه.

- كان من السهل أن نجعلكِ تختفين. كل ما يلزم هو إخفاؤك لأيام قليلة، ثم وضعك على سفينة إلى الأرجنتين أو كيب تاون. ولكن، إذا كنتِ تريدين العيش في إنجلترا، باسم جديد، فلا بد أن تكون قضية موت ناديا سيميلكوفا مقنعةً تمامًا، وقوية بما يكفي لئلا يعاود الروس البحث عنكِ. ووضعكِ في منزل آمن يعني اتباع بروتوكول معين. وحينها سيتم إخطار الكثير من الأشخاص، من السكرتارية ورجال الشرطة وصولًا إلى قمة جهاز المخابرات. وقد يخوننا واحد من هؤلاء، فللروس مصادرهم داخل المخابرات البريطانية، تمامًا كما لنا مصادرنا داخل مخابراتهم. ولن يفلح ما نقوم به إلا بأن يتيقّن الجميع –بما فيهم جهاز المخابرات السرية البريطاني– أنكِ قد متِّ.
- ولقد قمنا بهذا، أليس كذلك؟
- لم تكن الحادثة إلا الخطوة الأولى، وما سيجري بعد ذلك أهمُّ. لا بد أن يكون هناك تسلسل ورقي، وثائق رسمية تدعم القصة. لدى الشرطة في لندن جواز سفر ماري دوفال، ومن المرجح أنهم قاموا بالفعل بالاتصال بالسلطات الفرنسية. ستقوم الشرطة الفرنسية بتأكيد أنه ما من سيدة باسم ماري دوفال تعيش في العنوان المذكور بجواز السفر، ثم تدقق في الأمر لتجد أن هذه السيدة مطلوبة في جريمة قتل.

حينئذٍ، سيخبرون جهاز المخابرات الفرنسية، وبدورهم سيعلموننا أن سائحتنا الفرنسية الميتة كانت في الحقيقة عميلةً روسيةً.

أنا ورئيس الجهاز فقط من يعرف الحقيقة. سيأمر بالتحقيق في موت ناديا شولكينا، وسيولِّد هذا سلسلةً من التقارير، كلها حقيقية، وكلها سرية تمامًا. ما أعتمد عليه هو أن يسرِّب عميل على طول هذه السلسلة تلك التقارير إلى الروس. وإذا رأوا تلك التقارير من جهاز المخابرات السرية توبّخ الجميع لسوء إدارتهم للقضية، فمن شأن هذا أن يقنعهم أنكِ بالفعل ميتة.

- ماذا تريدني أن أفعل؟

- ابقَي هنا بضعة أيام حتى أرتب الأوراق. سأحضر لك ثيابًا جديدة، ثم يمكننا الحديث عن المكان الذي ستذهبين إليه بعد ذلك.

- كنت أرجو أن تكون لندن.

يعرف أني أريد أن أظل بجوار صوفي والآنسة فيلدز.

- قد يكون الريف أكثر أمانًا.

تخيلت يانوف وبقية عملاء مولوتوف ينتشرون عبر المدينة، يقتفون كل أثر لي، وفجأة راح الشك في مستقبلي يغمرني غمرًا. ليس لديَّ ثوب للنوم ولا فرشة أسنان، لا مشط ولا دبابيس للشعر، وليس لديَّ جورب أو ثياب داخلية. غيرت نفسي تمامًا من قبل، مع أليك. ولكني الآن أكبر وليس هناك مَن يرشدني، من يقول لي مَن هو الشخص الذي عليَّ أن أكونه؟

نهض "لي" قائلًا:

- بمجرد أن ترتدي ثيابكِ وتتناولي فَطوركِ سأريكِ المنزل.

رغم أن المنزل كان هواؤه شحيحًا فإنه مبهج، فغرف الجلوس مغطاة بورق الحائط والأرضيات بقطعٍ خشبية عريضة قديمة الطراز. وبدا كأن السير في المنزل يعيد الحياة إلى «لي». وفي المطبخ، كانت هناك امرأة كبيرة تعقص شعرها بمنديل، تمسح الأرضية، في حين راح الرجل الذي أقلَّني إلى هنا الليلة الماضية يقرأ جريدةً على المنضدة.

- هذه السيدة ساندرز، من القرية. ستهتم بطعامك. وقد قابلتِ داني بالفعل.

أومأ إليَّ داني إيماءة سريعة، وعاد إلى جريدته، دون أن يقدم –هو أو "لي"– أي مزيد من المعلومات.

ومن المطبخ، قادني "لي" إلى حديقة خلفية لم تُقلَّم شجيرات الورد بها منذ سنوات بعيدة. وأحواض الزهور ليس بها غير ألوان متناثرة وسط الحشائش. ولكني استطعت تخيل تلك المساحة على النحو المقصود منها، مَرجًا خصيبًا أخضر، يمتد صوب سياج حجري وتلال منحنية، بانوراما ريفية كأنها خرجت من أحد كتب الآنسة فيلدز.

- حديقة جميلة.

- كانت جميلة، ولكن أحسب أنها فسدت قليلًا.

- يمكنني أن أشذبها بعض الشيء.

- لا تزعجي نفسكِ.

- بل أفعله حبًّا.

أشعرني الخروج من المنزل بالأمل، كأعشاب جُريس صغيرة، عنيدة، تصر على الظهور.

- هل تذكرين ما قلته لكِ، في ألدون؟

توقفتُ وشعرت بالإحراج؛ فقد قلنا كل شيء في ألدون، وكثير منه كان في الفراش.

فتابعت كلامي سريعًا:

- أحب الخروج للهواء الطلق في الريف، والعمل في الحديقة سيشغل وقتي.

- فاصنعي بها ما شئتِ إذن.

دار لي بعينيه عبر الحديقة على مهل، كما لو كان يبحث عن شيء ما، ثم قال:

- كانت أمي تحب قضاء وقتها في الحديقة. ولسنوات طويلة، كنت أتجنب المجيء إلى هنا، ولكن كم ستكون سعادتي لو رأيتها تعود للحياة.

- مثل (الحديقة السرية).

- ماذا؟

- كتاب قرأته أنا والآنسة فيلدز، من زمن بعيد.

خطر لي، شيئًا فشيئًا، أنه لعلنا نتكلم عن أنفسنا أيضًا. فلو كنا راغبين في الحفر والسحب، فقد نكون أيضًا قادرين على تمزيق الماضي وزراعة مستقبل جديد. يمكنني تخيل نفسي وأنا أزيل عن هذا المنزل أثر الزمن، وأجلس في الحديقة للرسم. يبدو بالفعل مكانًا أرغب بالمعيشة فيه. هل هذا لأني هنا مع "لي"؟

- قلتَ إني سأمكث هنا أيامًا قليلة.

بدأت كلامي غير واثقة مما سأقول، ولا ما الذي يريده "لي"، وأكملت:

- هل يمكن أن أمكث (مدة) أطول؟

فابتسم "لي"، في ومضة من روحه القديمة، وقال:

- ابقي هنا كما تشائين. يمكن لهذا المكان أن يتسع لمدبرة منزل.

فابتسمتُ أيضًا، وقلت:

- تريدني أن أعمل عندك ثانية؟

- سأدفع لكِ أجرًا جيدًا، أفضل مما دفعته في باريس.

لم أتبين إذا ما كان جادًّا أم لا. فيمكن لتعييني لهذه المهمة أن يبدو منطقيًّا، حسب خطته. فهذا يمنحني مكانًا أختبئ به، عالمًا بعيدًا تمامًا عن مكاتب جهاز المخابرات السرية وعن حياة "لي" اليومية.

هيأتُ نفسي للتعامل مع الأمر على أفضل وجه، عينني أم لا. ثم شعرتُ بظهر يد "لي" تلامس ظهر يدي. لمسة قد لا تعني شيئًا، وقد تعني كلّ شيء. فتمتم:

- كنت أمزح فقط، ستمكثين هنا ضيفةً عليَّ، لأي وقت تحبين.

كان هذا كافيًا لأقترب منه. لأعبُرَ بسلاسة إلى حديثٍ لطالما خفت أن أبدأه.

- كنت على يقين أنك قد تزوجت.

- كدتُ أن تزوج ذات مرة.

قالها بفظاظة، منعتني من طرح المزيد من الأسئلة، فتساءلتُ بأنانية:

- مَن هي، وهل كانت تشبهني؟

- فسخت الخطبة، لأني سأظلمها بزواجها من رجل له مثل وظيفتي؛ فقد أُستدعى في أي ساعة، ولن أكون أبدًا قادرًا على أن أخبرها إلى أين أذهب. كنت سأجعل حياتها بؤسًا.

- يؤسفني ذلك.

قلتها بحزن حقيقي، فقد شعرت بمرارة الألم في صوته، وأحسست بظلال الوحدة التي يعانيها.

- وهناك آمر آخر.. فأنا لا أثق بحكمي.

ونظر إليَّ بابتسامة ساخرة، متابعًا:

- فقد كانت لديَّ مشكلة في تصديق ما تقوله النساء لي، بعد سوء حكمي الكبير في فرنسا.

كان يمكنني أن أضحك كأنه قال شيئًا ساخرًا، وأن أدفع بهذه الذكريات بحزم صوب الماضي وأشق طريقًا جديدًا، كأصدقاء قدامى، أو أخاطر وأخبره بالحقيقة وأنظر إلى أين تقودنا. فشرعت في الكلام بتردد قائلةً:

- تلك الأيام في ألدون...

- تقصدين عندما نسيتِ أن تخبريني أنكِ جاسوسة سوفيتية.

تقبَّلتُ سخريته، كملاكم يمتص أثر اللكمة، فإخراج السم هو الحل الوحيد للتعافي.

- لقد أثقل عليَّ حد المرض أني لم أخبرك، ولكن كل ما قلته لك في خلواتنا، وأنا بين ذراعيك، وكل ما همستُ به في أذنيك، كل هذا حقيقي لا كذب فيه.

حدّق "لي" إليَّ بجمود، كقاضٍ يحتاج إلى مزيد دليل ليقتنع.

- عندما طلبتَ مني الزواج، كنت أريده أكثر من أي شيء، ولكنَّ أليك ما كان أبدًا ليتركني أمضي. ولقد كان غيورًا للغاية، كان سيطاردك أنت أيضًا. لم يكن أمامي من سبيل لحمايتك إلا الرحيل.

لطالما حاولت بكل قوتي أن أظلَّ قوية. لم يعد لديَّ أي وسيلة لمغالبة الدموع التي انسالت على وجهي، ولا لمغالبة الحزن الذي منعني من قول أي شيء آخر. لقد تشاركت أنا و «لي» شيئًا قيمًا ونادرًا، وحتى لو وافق أن يمنحني فرصة ثانية، فنحن الآن أشخاص مختلفون. لن يكون الأمر أبدًا كما كان من قبل.

مد "لي" يديه إلى خديَّ ليمسح دموعي، وركنتُ إلى لمسته. بدا كما لو أن هناك حياةً كاملةً من التوقعات راحت تذوب تدريجيًّا. لقد بذلت قصارى جهدي لحماية أمي وفاسيلي بعد موت أبي، مضحيةً بشبابي في تلبية أوامر أليك. ولقد أعدتُ صياغة نفسي بوصفي رفيقة شيوعية مخلصة، فمهدت الطريق بغير قصد لقتل ابن عمي. لا أعرف ماذا يُراد مني أن أفعل، ولا مَن ينبغي لي أن أكون في حياتي القادمة. كل ما أعرفه هو أني أريد أن أبقى هنا، في هذا المنزل الذي يذكرني ببريالكو. وأريد أن أكون مع "لي"، بأي طريقة ممكنة.

مسح "لي" دموعي، وجذبني نحوه. كان شعورًا رائعًا، كأني عدت إلى بيتي.

18 من سبتمبر، 1938

إلى: كل العاملين بجهاز المخابرات السرية

من: مكتب المدير

أعلن ببالغ الأسى استقالةَ السيد «لي كوبر».

لقد كان السيد كوبر عونًا كبيرًا لجهازنا لما يقرب من عقدين من الزمان، في مواقع مختلفة في لندن وخارج حدود البلاد. عرفه الكثيرون ممن يعملون في هذا المكتب بتفانيه ومثابرته، وأعرف أننا سنفتقده. ولوأد أي شائعة، فإن السيد كوبر أذِن لي أن أعلمكم بسبب رحيله، وهو أن صحته تتدهور منذ بضع سنوات وواجبات وظيفته تزيد الأمور سوءًا. وبناءً على نصيحة الطبيب، قرر السيد كوبر أن يستقيل ليحيا حياةً هادئة في الريف. وفي حين يرحب برسائل زملائه السابقين الشخصية، فلن يكون له أي تصريح أمني، وعليه فلا يمكن استشارته في أي شأن يخص عملنا. عنوانه بأسفل هذا البيان لمن أراد أن يراسله مباشرة.

ويلتشير، إنجلترا
أغسطس 1939

كان حفل زفاف صغيرًا. أنا ولي، نردد نذورنا في مذبح كنيسة القرية، وصديق "لي"، داني، الذي أتى للتو من لندن بعد إنجاز واحدة من «مهامه» الغامضة. أفراد عائلة ويذربي الخمس كلهم، وفيرا -كما تعلمت أن أدعوَها- يتلألأ وجهها في الصف الأول. وقفت إلى جانبي صوفي، إشبينتي الوحيدة، ملاكًا في فستان أرجواني. كانت سعادتها أقل إشراقًا من سعادة أمها، ولكن حقيقية بنفس القدر.

لم تزل لا تعرف الحقيقة بشأن أبيها. بدأت فيرا التمهيد للأمر بإفضاء السر إلى زوجها، بعد مدة قصيرة من تعارفي معه. فهمت لمَ راق جون ويذربي لفيرا عندما كانت أمًّا غير متزوجة ذات مستقبل غامض. فهو رجل محترم ومتزن، تعامل مع خبر علاقة زوجته القديمة بهدوء وحكمة. قال: «إن العائلة هي أهم شيء». هكذا أخبرتني فيرا ذات يوم.

- لا مانع لديه في أن تقضي بعض الوقت مع صوفي، فأنتِ ابنة عمتها، قبل كل شيء. سأخبرها بشأن سيرجي عندما أكون مستعدة.

ثم صمتت قليلًا، مترددة بشأن اعترافها القادم:

- لم أزل أفتقده، أحيانًا.

- وأنا أيضًا.

بعد تلك الأسابيع الأولى من موتي المزيف، بدأت أنتقل بسلاسة إلى حياة جديدة واسم جديد. وفيما أرجو أن يكون الفصل الأخير من تحوُّلي، أصبحتُ ناتالي دوبوا، أرملة فرنسية استُقدمت لتنظيم المنزل قبل أن يعود السيد كوبر ليستقر به. لزمت المنزل فلم أخرج منه إلا لبعض مشاوير التسوق في القرية،

وكنت على وعي بالنميمة التي تبعتني كالظل، لماذا يُحضر السيد كوبر امرأة فرنسية لتهيئة بيت ريفي بريطاني؟ هل ترك السيد كوبر وظيفته بإرادته أم فُصِل منها؟ وماذا كان كان يفعل كل تلك السنوات في لندن؟

لا بد أنهم افترضوا أني عشيقته حتى قبل أن نتشارك غرفة النوم ذاتها بوقت طويل. وقد أخذنا هذه الأمور على مهل أيضًا. فكان بيننا محادثات طويلة وقبلات حذرة قبل المُضي في علاقتنا. أحس كلانا بعِظَم قدر ما قد نحققه يومًا ما، شعرنا به يحوم حولنا، ولكننا لم نتوغل فيه مباشرة، بل رحنا نلامسه من بعيد، لنتأكد من قدرته على الصمود. كانت إمكانية عودة الحب بيننا مغرية حقًّا، ولكن الذي حفظ عليَّ قوتي وقدرتي على المواصلة هي تلك المهام العملية التي جعلت يومي منظمًا؛ كالتنظيف وإصلاح الستائر، وتلميع الأثاث البالي، والعناية بالحديقة زرعًا وقلعًا. تولت السيدة ساندرز أمر المطبخ، وتعايشنا معا بسلام، ينمو بيننا احترام متبادل كل يوم. كان زوجها يأتي ثلاثة أيام في الأسبوع ليقوم بأعمال الحديقة الشاقة، وفي آخر الأمر، قالا عني كلامًا طيبًا عند أهل القرية. فما إن أثبتُّ أني عاملة مجتهدة إلا وبدأ الناس يحيونني بإيماءة رأس أو ابتسامة لطيفة، دون أسئلة، كم أنا ممتنة لهذا المخزون البريطاني من الرزانة.

تغير جدول المنزل اليومي تغيرًا طفيفًا بعد انتقال "لي" للعيش به. فأولًا، بدأتُ أتناول غدائي في المطبخ، مع السيدة ساندرز. وذات صباح جاءني "لي" في الحديقة، قائلًا:

- يا له من يوم جميل! يجب أن نأكل بالخارج.

ودون أن نناقش الأمر رسميًّا، بدأنا نأكل معًا. كان أحيانًا يغلق باب المكتبة عليه، ويقضي بعض الوقت في صياغة الوثائق النهائية المطلوبة لإنهاء عمله. وعندما لم يكن يفعل ذلك، كان يساعد في إنجاز أي عملٍ كان، كإعادة طلاء غرف النوم أو فرز صناديق ممتلكات العائلة. وراح بين الوقت والآخر يقضي المساء في حانة محلية كوَّن فيها صداقات مع المزارعين من جيراننا. في البداية فوجئوا لرؤية سيِّدٍ ما كانوا يدعونه «القصر» يدلف إلى حانة (فور بيلز)، فما كان أبو "لي" ولا جده ليضعا قدمًا في هذا المكان. ولكن الزمن

يتغير، حتى في الريف المحافظ، وما كنا نمزح بشأنه ونصفه بـ(أسمار لي) أصبح خيطًا جديدًا يربطنا ببيتنا الجديد.

أنهى الشتاء النزهات التي نقوم بها في الحقول بعد أن نهيئ الحديقة للطقس البارد. وبدأت السيدة ساندرز تغادر مبكرًا كل يوم، لتصل إلى منزلها قبل حلول الظلام، فكان هناك المزيد من الساعات لنقضيها أنا و "لي" بمفردنا، بجوار مدفأة لم تفلح قط في تدفئة الغرف السفلية كهفية الشكل. ولكننا وجدنا طرقًا أخرى للتغلب على لسعات البرد. فترك كل منا فراشه البارد، ونمنا على سرير واحد، يختبئ كل منا في الآخر، ونخلد إلى النوم ونحن نتبادل الرقيق من الهمسات. لا بد أن السيدة ساندرز ارتابت بالأمر، ولكن منعها إخلاصها من التفوه بما قد يسيء إلى رب عملها. ورغم ذلك فقد بدا عليها الشعور بالراحة، أكثر من المفاجأة، عندما أخبرها "لي" أننا سنتزوج. بل إنها عانقتني، قائلة:

- أكاد أطير فرحًا من أجلك!

لم يكن هناك عرض زواج مسرحي مثير. كل ما كان أني نظرت إلى "لي" ذات يوم وقلت:

- يجب أن نتزوج.

- حان الوقت!

وضحك، مواصلًا:

- لم أُرِد أن أطلب هذا، فقد رفضتِني مرة بالفعل.

توردتُ خجلًا ورحت أعتذر، ولكنه أوقفني بضغطة من يده على يدي، وقال:

- إنما أناكفكِ، فأنا أريد أن أسألكِ الزواج منذ شهور مضت، ولكني أردت أن أتأكد أنكِ سعيدة، أنكِ تريدين البقاء.

لا يمكن أن ألومه على حذره، فكيف يتيقن أني لستُ معه إلا لعدم وجود مأوى آخر لي؟

- هذا بيتي الآن.. معك.

كنت مستعدةً للزواج منه في اليوم التالي مباشرةً في مكتب القاضي، ولكن لم يكن الأمر بهذه البساطة نظرًا إلى ماضي كلٍّ منا. أراد "لي" أن ننتظر لسنة على الأقل من تاريخ وفاة ماري دوفال، ليطمئن أن الحادثة بأسرها في طيِّ النسيان. وذهب إلى لندن بضع مرات لحضور اجتماعات غير رسمية مع روجر بالانتري، النائب الأول لمدير جهاز المخابرات السرية، ولم يكن هناك -حتى الآن- ما يدل على أن السوفييت يتشككون في موت ناديا شولكينا. كانت هناك حادثة قاتلة لجاسوس صغير في بريطانيا، ولكن لا صلة لها بمخاوف مولوتوف الأكثر إلحاحًا؛ إيقاف هتلر قبل دخول جيشه إلى مقاطعة قريبة إلى حد خطِر من روسيا. مرّرَ "لي" الرسالة التي حملتُها من ستالين إلى مكتب رئيس الوزراء، ولكن لم ينتج عنها شيء، على قدر ما علمنا.

وتأخر الزفاف مزيدًا من الوقت بسبب الروتين الحكومي العنيد، فأنا بحاجة إلى أوراق تحمل اسمي الجديد لأتقدم للحصول على إذن الزواج، ولم يكن سهلًا إيجاد مزور موثوق دون التوصل إلى موارد جهاز المخابرات السرية. ثم كان عليَّ أن أختار يومًا مناسبًا لحضور كل أفراد عائلة ويذربي. فصوفي منخرطة في دورة فنية في كورنوول لمعظم الصيف، ورفضت أن أحتفل بزفافي في غيابها. وسعدت أيما سعادة عندما طلبت منها أن تكون إشبينتي.

أخيرًا استقر الأمرُ على آخر يوم سبت من أغسطس. كنتُ -أول الأمر- أفترض أننا سنحظى باحتفال غير كنسي سريع، ولكن بمرور الوقت بدأت أميل لعقد زفافٍ كنسيّ. فالذهاب إلى مكتب وتوقيع أوراق الزواج، سيذكرني إلى حد كبير بزواجي من أليك، وأريد لهذه المرة أن تكون مختلفة. راقت لي فكرة أن نبدأ أنا و "لي" حياتنا الجديدة في مكان له لمسة تاريخية، مكان ردد فيه نذور الزواج كثير قبلنا. كما خمّنت، وصح تخميني، أن زفافًا بالكنيسة سيكون بمنزلة رسالة مهمة لجيراننا؛ نحن جزء من هذه القرية، وسوف نبقى هنا.

أعدت السيدة ساندرز مائدةً من الحلويات في ظهر المنزل، وأتت فيرا قبل ذلك بيوم لتساعدني في التجهز، ولتصنع كعكة الزفاف. فيرا طباخة

متحمسة، ولكن عشوائية إلى حد ما، وسألني ”لي“ ممازحًا إذا ما كانت قد استوحت كعكتها من برج «بيزا المائل»، ولكن طعمها كان لذيذًا. أشرقت الشمس في أول المساء، والتقط زوج فيرا صورًا في الحديقة، وابتسمتُ إلى أن آلمتني خدودي. وبعد أن تناولنا الطعام، وصلت إلينا رسالة تهنئة قصيرة من روجر بالانتري. فتمتم ”لي“ حتى لا يسمعه غيري:

- إنه يجاملني.

قبل بضعة أيام من زفافنا، وقّع مولوتوف ميثاق عدم اعتداء مع ريبنتروب، وزير هتلر للشؤون الخارجية. فبعد الفشل في مغازلة الدول الأخرى لإقناعها بالتصدي لهتلر، حوَّل ستالين الدفة تمامًا، فتحالف مع عدوه السابق. وبدا هذا كقفزة عملاقة مفاجئة صوب حرب قال الجميع إنها حرب محتومة.

أخبرني ”لي“:

- سألني روجر إن كنتُ مهتمًّا بالعودة للعمل؛ فخبرتي مع الروس قد تفيد.

أردت أن أهز رأسي وأقول لا، فقد أفلتُّ أخيرًا من وكر الأكاذيب هذا، ولا أريد أن يعود «لي» إليه. لكن الأمر سيكون مختلفًا، إذا كنا في حالة حرب. سيشعر لي بأنه ملزم خدمةَ بلاده بأي طريقة تحتاجه بها. ولعلّ هناك طريقة يمكنني من خلالها المساعدة، أيضًا. لكنني لم أرغب في التفكير في الأمر يومَ زفافي.

وفي وقت لاحق، بينما آرثر وستيفن ويذربي يلعبان الكروكيه على العشب مع «لي» والقسّ، وصوفي تساعد السيدة ساندرز في التنظيف بالمطبخ، انتحت بي فيرا جانبًا. لقد زارتنا كثيرًا حتى أطلقنا على إحدى غرف النوم اسم «عائلة ويذربي»، وهذا هو المكان الذي أخذتني إليه، لتخبرني أنها أحضرت لي هدية.

فاعترضت، قائلة:

- لست في حاجة إلى هذا، فالكعكة تكفي.

- سأعطيها لك على كل حال، زفافًا أو غيره.

وقفتُ بجوار النافذة في حين ذهبتْ هي إلى خزانة الملابس في الجهة الأخرى من الغرفة. يمكنني سماع صيحات أولاد ويذربي وأبوهم يصيح مشجعًا «لي»:

- أرِ الصبيةَ كيف يكون اللعب.

هل سننجب أطفالًا؟ أرجو ألا يكون الوقت قد فات على هذا، رغم أنه لم يكن بإمكاني محو نزعتي الأصيلة لتوقع أسوأ الأحوال. سيكون «لي» أبًا رائعًا. ولكني أيضًا أعلم أني أكفي لإسعاده، فلقد أخبرني بهذا كثيرًا، والآن أصدق قوله.

أخرجت فيرًا صندوقًا مستطيلًا مسطحًا من أحد الأدراج.

- أحتفظ بهذا منذ سنوات بعيدة، ووضعتُ عليه الإطار لأجل هذه المناسبة.

فتحت الصندوق، ورأيت ومضةً من شيء فضي. ناولتني غرضًا ثقيلًا، أغلب وزنه يأتي من طبقة من الزجاج والمعدن. كانت صورةً لمجموعة من الأشخاص، يقفون أمام منزل. راحت عيني تنتقل من وجه إلى وجه، وأتت الأسماء كهمسات من الماضي: أمي، أبي، فاسيلي، سيرجي، مدبرة منزلنا، «إلينا»، وزوجها، يوري، وأنا في فستان أبيض مزين بشريط من الدانتيلا، واقفةً أمام الآنسة فيلدز.

- تذكرين كيف كانت أمك دائمًا تلح في التقاط الصور للعائلة. سرقت هذه الصورة يوم رحيلي.

رأيت وتذكرت الدَرَج الأمامي لمنزلنا الصيفي. والكراسي التي عفا عليها الزمن في الرواق، بخلفية الصورة. تذكرت أمي وهي تحشدنا جميعًا في مكان واحد وقد علتها السعادة وهي تجرب ساعتها الجديدة. تذكرتها وهي تهتاج خلف عدسة الكاميرا ثم تعود مسرعةً لالتقاط الصورة. في تلك السنة التقطت أمي مئات الصور، ضاعت كلها.. إلا هذه.

لم أمنع نفسي من البكاء في حضرة فيرا. أعرف كم سيسعدها أن ترى كم أثرت فيَّ هديتها. أحيانًا ما كانت تداعبني بشأن تحفظي البالغ، بقولها:

- لا بأس في أن تروِّحي عن نفسك بين الحين والحين.

ولكن تشجيعها وتشجيع "لي" علمني أن أصبح أكثر رقة، فلم أعد أرى مشاعري نقطة من نقاط الضعف.

- أريد أن نتحدث إلى صوفي معًا. حان الوقت لأن تعرف بشأن سيرجي، وأود لها أن تسمع عنه منكِ.

كدت أخبر فيرا أن هذه المحادثة يجب أن تكون محادثة خاصة، بين أم وابنتها، فقد تشعر بالخجل أو تتأذى مشاعرها، بل وربما تغضب، ولكني أدركت أن هذا هو السبب الذي تريد فيرا وجودي لأجله؛ أن أكون مصدًّا لتخفيف الصدمة. قلتُ:

- هيا نذهب، لنجدها ونتمشى معًا.

نحن عائلة قبل كل شيء. فصوفي ابنة خالي، ولو سارت الأمور على نحو مختلف لكانت فيرا خالةً لي. وبعد كل من خسرته سأتشبّثُ بمن بقي لي.

ضممت الصورة إلى صدري. لقد أعطتني فيرا ما هو أكثر من هدية؛ لقد أعادت إليَّ جزءًا من ماضيَّ. ومن الآن فصاعدًا يمكنني أن أنظر إلى وجوه من أحبهم. يمكنني أن أرى وجوههم في زمنٍ كانوا فيه سعداء، مبتسمين يملؤهم الأمل، يتألقون تحت ضوء شمس الظهيرة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook